ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي

عباس محمود العقاد



ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي

ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي

نقد ونماذج مترجمة من أدب القصة

تأليف
عباس محمود العقاد



ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي

عباس محمود العقاد

رقم إيداع ٤٥١١ / ٢٠١٤
تدمك: ٦ ٦٩٥ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

الأدب الأمريكي

كلام المؤرخين عن طبائع الأمم قديم، ومثله في القدم كلامهم عن العلاقة بين طبائعها وآثارها الأدبية والثقافية، وقد كثر الكلام في هذه العلاقة، بعد ظهور المباحث النفسية، واستفاضة النظر في علم النفس الاجتماعي وأطوار الجماعات على التعميم، وقد يكثر الخطأ كلما كثر الكلام في هذا الصدد، ولا مقياس لتحقيق الخطأ والصواب كالمقياس الذي نحقق به صحة المسائل الحسابية أو صحة الفروض الرياضية، ولكن غيبة المقياس لا تقضي ببطلان البحث ولا بالعدول عنه، فهو مسلك مطروق غير موصد، ولن توصده اليوم ولا في الغد كثرة الخلاف عليه.

والنقاد يذهبون تارةً من فهم طبائع الأمم إلى فهم آدابها وثقافتها، ويذهبون تارةً أخرى من فهم آدابها وثقافتها إلى فهم طبائعها، ويطيلون من أجل ذلك في بحث عناصر الأجناس، أو بحث الأمزجة القومية على ضوء العقائد الموروثة، وعلى ضوء المقررات العلمية الحديثة، ومهما يكن من توفيقهم في ذلك أو إخفاقهم فيه، فهم متفقون على صعوبة التطبيق؛ حيث تتعدد العناصر وتمتزج في البيئة الواحدة، وأصعب ما يكون ذلك تطبيقًا في بيئة كالولايات المتحدة، تنتمي إلى عناصر شتى من السكسون واللاتين وأمم الشمال وأمم الجنوب، ويذكر فيها الذاكرون بين أجدادهم أناسًا من الإنجليز والسكندنافيين والهولنديين والإسبان والفرنسيين والإيطاليين، فلو كانت هذه الأصول أنهارًا وجداول تجري على انفراد، ثم تمتزج في الطريق، ثم تخلص من الملتقى إلى ملتقى آخر، تطرد عليه أمدًا، وتنحرف عنه أمدًا آخر، لكان من العسير تخليص أمواهها، وتحليل مقاديرها، ونسبة الامتزاج والانفصال بين أجزائها، فكيف بعناصر الفكر والشعور وهي قد تخفى على صاحبها في الوقت الواحد، وتخفى عليه من باب أولى في معظم الأوقات …؟

أقرب من البحث في العناصر وامتزاجها — على ما نعتقد — أن نبحث في البواعث التي اشتركت فيها الأفواج المهاجرة إلى القارة الأمريكية، فهي بواعث محدودة معروفة، وآثارها ليست من الخفاء واللبس بحيث تختلط فيها الآراء، كما تختلط في امتزاج الطبائع والأقوام.

كانت بواعث الهجرة الأولى تنحصر — أو تكاد — في التماس النجاة من الضغط على الحرية الدينية، والتماس البيئة التي يتسع فيها الميدان لإقامة «الطوبى» الروحانية على مشيئة المهاجرين، وكان طلاب النجاة فريقين من المتطهرين ومِمَّنْ يسمونهم بالحجاج، والأولون متدينون محافظون متشددون، والآخرون متدينون محافظون يتصرفون في شئون التقاليد بالرأي والتجديد.

واقترنت هذه الهجرة الدينية بهجرة دنيوية يقودها الطموح، وبُعد الهمة، والاعتداد بالنفس، والجرأة على اقتحام المورد المجهول، ولم تكن الهجرة الدينية خلوًّا من عامل الطموح وبُعد الهمة، فمَنْ كان ضعيف السعي، هيابة للمجهول، لا يلتمس النجاة بعقيدته ولا المغامرة في سبيل دنياه.

وَلَمَّا وجد المهاجرون الأولون أنفسهم في المجاهل الأمريكية، كان موقفهم من سكانها الأصلاء موقف مَنْ يؤمن أنه يستخلص لله أرضًا في حوزة الشيطان، فكان شعور الجهاد للسماء مقترنًا بشعور الجهاد للأرض، وكان السعي عندهم في طلب الرزق كالغزوة في طلب النجاة من الشيطان والغلبة عليه.

إن المهاجرين الذين حَفَّزتهم هذه البواعث يتشابهون على اختلاف العناصر والأقوام، وربما كان الهولندي الذي يحرص على إيمانه، وتستنهضه همته إلى ترك الديار والتغرب في مجاهل الأرض أقرب إلى الإنجليزي أو السويدي أو الإسباني الذي يشبهه في بواعث نفسه من أبناء الوطن الواحد الذين لا تشابه بينهم في الغيرة على ذخائر الروح، أو الغيرة على ذخائر الأرض والحطام، فهذه أخلاق متمكنة في الطبائع تتوارثها الأجيال، ويتشابه فيها الأبناء والآباء، ولا يصعب على المؤرخ أن يتتبع فعلها في تكوين المجتمع وحوادث التاريخ.

ومن ثَمَّ غلبت على المجتمع الأمريكي خصلتان ظاهرتان: إحداهما سيادة السُّنَّة العامة في شئون العقائد والأخلاق، والأخرى خصلة التجربة العملية والاعتداد بالذات في شق طريق الحياة ومواجهة المجهول.

خصلتان قد تتوافقان أحسن وفاق، وقد تتنازعان أشد نزاع، فتجري رعاية السُّنَّة العامة مع الاعتداد بالذات في اتجاه واحد، أو يختلف الاتجاه مع تجارب الواقع، فذلك

هو الصراع العنيف، ونحسبه محور الصراع الأكبر في مشكلات الأدب ومعضلات النفس البشرية بين النجاح العملي الواقعي ورعاية المبادئ والأصول، كما تتمثل في الآداب الأمريكية الحديثة، قصة كانت، أو مسرحية، أو مذهبًا من مذاهب الفلسفة، أو رأيًا من آراء السلوك والأخلاق.

ولا نذكر «البرجمية Pragmatism» ودلالتها، فهي أبرز من أن تحتاج إلى إبراز، ولكننا ندع القراء يذكرون ما يشاءون من القصص الكبار أو الصغار، فلن يعدموا في واحدة منها مشكلة تنجم من الاعتداد بالذات والمغامرة في مواجهة المجهول كائنًا ما كان هذا المجهول. وها هنا مجموعة من القصص نرى فيها المُراشِهن على الغيب، والشيخ المنفرد بمسكنه بعد السبعين، والمريض الذي يقلقه العلاج الطويل فيعشق على السماع، ويهجم على بلد المعشوقة التي لم يرها قط، ولم يكن لها وجود، والخابط في الأرض على غير قصد، حتى يلتقي على رءوس الجبال بأرواح الحراس من الرواد الأقدمين، والمؤمن السانج الذي تنهار حياته حتى يدعمها في مجاهل أفريقيا بإيمان جديد، والخطيب الذي يناضل الشيطان بالحصافة الدنيوية كما يناضله بالعقيدة القوية، والفتى الذي يركب رأسه شوقًا إلى التجربة الحسيَّة، فيهجم من متعة الحياة إلى الموت، والأب الذي يلهو فترده تجارب اللهو بهدى العاطفة الأبوية إلى الرصانة والاعتدال … وهكذا كل «شخصية» في كل قصة تختارها جزافًا أو تختارها بقصد وتمييز، فلن تعدم فيها جميعًا عنصر التجربة الذاتية أو الصراع بين المبدأ والواقع، أو الإقدام على المجهول، ولن يشق عليك أن ترجع إلى أصول ذلك قبل جيلين أو بضعة أجيال، من طريق أوجز وأوثق من تلك الطرق التي تتعقب العناصر وطبائع الأقوام.

قرأت في كتاب «الفكرة الأدبية في أمريكا» Literary Opinion in America فصلًا للكاتب الناقد جيمس جبون هنكر Hunker يقول فيه في أثناء الكلام عن الرواية الأمريكية الكبيرة: «أَمَّا آداب التطهر في روايتنا الحاضرة فمِمَّا يجترئ المرء على أن يجبه المتدين الناشئ قائلًا له: إنها ليس لها وجود.»

وبعد صفحتين اثنتين يقول الكاتب نفسه: إن الروايات تفيض بالعظات الملتهبة، للإقناع بهذا المذهب أو ذاك من مذاهب السياسة أو الأخلاق …

وقد كان خليقًا بالكاتب الناقد أن يفطن للتناقض الواضح بين موت «التطهر» والولع بالوعظ، والإقناع بأية دعوة من الدعوات. فإنهما في الباطن من معدن واحد، وإن جنحت

الدعوة إلى التمرد على العرف والسنن المرعية، فليست الحماسة هنا إلا من مادة الحماسة للمعتقد كيفما كان.

ويكاد يُجمع النُّقَّاد المُحْدَثون على أن صبغة التجربة Experience أغلب الصبغات على الأدب الأمريكي المعاصر، وهم على صواب في هذا الإجماع، فإن محاولات التجربة نفسها تدل على أن الخصلتين في وقت واحد تدل على الاعتداد بالذات، وعلى قوة العرف والتقليد، ولا معنى لتغليب التجربة إن لم تكن هنالك مغالبة أو محاولة للتوفيق بين ما يكشفه الإنسان لنفسه وما يفرضه العرف عليه.

وتكاد هذه الصبغة تكون ملازمة للمصنفات الأمريكية من أقدم عهودها، قبل الاستقلال وبعد الاستقلال، وإنما كانت صبغة الدينيات أعم وأشيع في القرن السابع عشر، ثم عمت وشاعت بعده صبغة السياسيات في دور النزاع بين سكان البلاد وحكامها، ثم ظهرت الثقافة الأدبية — أول ظهورها — مستقلة مصطبغة بزمانها ومكانها ودواعيها ... ولم تكن مهملة قبل عهد الاستقلال إلا لأنها كانت مهملة في الحياة العامة، ولم تكن هي التي تمثل الأخلاق والمقاصد والطباع.

وتنقسم عهود الأدب الأمريكي بفواصل من الزمن مرسومة متفق عليها بين مؤرخي الآداب، فهناك فاصل الثورة على الحاكم المستعمر، وفاصل الحرب الأهلية، وفاصل الخروج من العزلة بعد الحرب العالمية الأولى، وكلها فواصل بيِّنة صحيحة، تُؤرخ الانتقال من عهد إلى عهد، ومن اتجاه إلى اتجاه، ولكننا نود أن نقرن بها فاصلًا يُذكر أحيانًا، ولا يُعطى حقه من الشأن والأثر، وهو معادل في اعتقادنا لفواصل الثورات والحروب، ذلك الفاصل هو عهد الصور المتحركة، ويلحق به فاصل الإذاعة. فإن أثر الصور المتحركة لعظيم في اختيار الموضوع، عظيم في تنويع الأسلوب، عظيم في تنسيق القصة والحوار ... وسيرى القُرَّاء في القصص التالية هذا الفارق بيِّنًا لا خفاء به فيما كُتِب منذ شيوع الصور الناطقة على اللوحة البيضاء، فإن الكاتب ليشغل قلمه فيها كما يشغل انتباهه بعوارض حسيَّة لا دخل لها في لباب الموضوع، لولا أنه يكتب ويحسب حساب المخرج الذي يتولى كتابة «الوصفة المنظرية» أو السنار. فما دخل النمل، وقياس المرتفعات، وألوان الأشجار، والمسافات بينها، وأطوالها أو غزارة أوراقها ونزارتها، في قصة «شتينبك» عن الشيخ الهرم زعيم الهجرة، ورحلات التغريب ...؟

إن هذا وأشباهه مِمَّا أدخلته الصورة المتحركة على أسلوب الكتابة، وقد أثبتنا بعضه على سبيل المثال، وتعمدنا أن نضع هذه القصص بعضها إلى جانب بعض كما تتفق بغير تمييز مقصود؛ لأننا نعتقد أن الدلالة على هذا النحو أصدق من دلالة التمييز والانتقاء.

أمَّا طريقتنا في الترجمة فهي مراعاة الأصل غاية المراعاة، ما لم يكن حشوًا لا محل له من لباب المعنى ومن الوجهة الفنية، ففي هذه الحالة نكتفي بالمفيد، ولا نلتزم الحشو، وهو لا يزيد في الكتاب كله على بضعة أسطر … وقد أردنا ترجمة صادقة في نقل العبارة بمعانيها وظلالها، ولم نرد نسخًا كنسخ الوَرَّاقين Copyism من لغة إلى أخرى، فمَنْ سَمَّى ذلك نسخًا أو مسخًا، فقد أصاب التسمية! ونرجو أن تكون دقة الأداء وتلخيص التراجم وشواهد التمثيل على المختار من كل أديب؛ صورة صادقة لتطور القصة القصيرة في الآداب الأمريكية منذ وُجدت على عهد «أرفنج» إلى هذه الأيام.

عباس محمود العقاد

القصة القصيرة

إن الكتابة القصصية أنواع كثيرة في العصر الحاضر، منها الرواية وهي التي تقابل كلمة نوفيل Novel في اللغات الأجنبية، ومنها الرواية الصغيرة، وهي التي تقابل كلمة نوفليت Novelette ومنها القصة أو الحكاية وهي التي تقابل كلمة «استوري» Story، ومنها الحكاية القصيرة أو النادرة وهي التي تقابل كلمة «شورت استوري» وترجمتها الحرفية على حسب أصل الكلمة: تاريخ قصير.

ومن البديهي أن الفوارق بين هذه الأنواع لا ترجع إلى الطول والقصر، ولا إلى الإسهاب والإيجاز، ولا إلى العناية بالأسلوب الأدبي وقلة العناية بذلك الأسلوب، ولا إلى خطر الموضوع أو تفاهته، فكل أولئك صفات قد تتشابه فيها جميع هذه الأنواع، فتكبر الحكاية المطولة حتى تلتقي بالقصة القصيرة في عدد الكلمات، أو تتناول الحكاية موضوعًا من أجلِّ الموضوعات، ولا تتناول القصة الكبيرة إلا موضوعًا هينًا من مسائل المجتمع أو مسائل الأحوال النفسية.

إنما يرجع الاختلاف بينها إلى فارق أصيل من باب التغليب والترجيح — على الأقل — إن لم يكن من باب الحسم والشمول، ولم نعرف تفرقة بينها أصح وأصدق من التفرقة التي أجملتْها الكاتبة «أديث هوارتون» حين قالت: «إن الموقف هو الموضوع الغالب على القصة القصيرة، وإن رسم الشخصية هو الموضوع الغالب على الرواية …»

ويمكن أن نضيف إلى الموقف موضوعًا آخر يصلح للقصة القصيرة أو الحكاية، وهو الإيحاء ولفت النظر، أو هو ما يقابل — حرفيًّا — كلمة «الاقتراح Suggestion».

ولا بد أن نحسب حساب الاصطلاح والتخصيص في هذه التفرقة الأخيرة، فإنها لم تكن كذلك منذ نشأت الحكاية أو القصة القصيرة في القدم، وكثيرًا ما كانت هذه الموضوعات تتلاقى وتتشابه، ولا يلحظ بينها فاصل حاسم غير الطول والسعة، ولكنها

تفرقة لم تزل تلتزم شيئًا فشيئًا مع تقدم الفن وجنوح الكتابة الحديثة إلى التخصيص وتوزيع الأغراض والمناسبات.

فالقصة القصيرة أو الحكاية لا تتسع لرسم شخصية كاملة أو عدة شخصيات كاملة من جميع جوانبها، ولا تتسع كذلك للحوادث الكثيرة ولا للحادثة الواحدة التي لا تتم إلا مع التشعب والاستيفاء والإحاطة بأحوال جملة من الناس في مختلف المواقف والأحوال، ولكنها قد تعطينا لونًا من ألوان الشخصية كما تتمثل في موقف من المواقف، فنفهمها بالإيحاء والاستنتاج، وقد تعرض لنا موضعًا نفسيًّا أو موضعًا اجتماعيًّا، ينفرد بنظرة عابرة ويؤخذ على حدة، فيدل كما تقدم دلالة الموقف والإيحاء.

من هنا كانت القصة القصيرة لونًا من الكتابة مناسبًا كل المناسبة للأدب الأمريكي، منذ استقل هذا الأدب بأقلامه وموضوعاته، وعُرف له رسالة قائمة بذاتها غير المحاكاة والتقليد.

فالمواقف أكثر ما تكون في بلاد الأقاليم والأجناس، وبلاد التاريخ المذكور الذي تلتقي فيه الوقائع الحاضرة بالذكريات القريبة، وتصطبغ فيه هذه الذكريات بصبغة الخبر تارةً وصبغة الأسطورة تارةً أخرى، وعلى حسب النظرة إليها، وعلى حسب «الزاوية» التي ينظر منها المقيم في هذا الإقليم أو ذلك الإقليم.

وليست الأقاليم هنا حدودًا جغرافية تختلف بالمواقع والأبعاد وكفى، ولكنها ثروة زاخرة بتعدد الأجناس والأمزجة والمصالح والأعمال. وقد قيل مثلًا: إنك في الجنوب لا تستطيع أن ترمي بحجر دون أن تصيب شاعرًا … فكان هذا فارقًا من فوارق الأقاليم في مزاج التخيل والشعور، ولكنه فارق يرتبط في الواقع بالتاريخ وشواغل الحياة، كما يرتبط بالموقع وأصول النازلين فيه.

ومن مادة الفكاهة الخالدة التي تصلح لمواقف القصص القصيرة؛ حياة الريف وعادات أهله، وحرب النكات بين الأجناس والأقوام، وكلها مادة لا تنفد في مصنفات أمراء الفكاهة المعروفين، وكلها يتسع لها المجال في الأقاليم الأمريكية التي تمتزج فيها الأجناس والأقوام، ويكثر فيها التندر بطرائف الأمم وغرائب الأطوار والتقاليد في مجتمع واحد، ويعيش فيها الريفي بعاداته ومأثوراته، إلى جانب الطوارئ والبدع المتجددة في الحواضر والعواصم، فلا ينضب معين الفكاهة أو الملاحظة السريعة التي تتمثل في المواقف الخفيفة، وتدور عليها القصة القصيرة في باب النقد الاجتماعي وما إليه، ثم تأتي الصحافة المحلية فتعتمد على النادرة التي تبدأ وتنتهي في نشرة، وتضمن المدد من هذه النوادر إذا فاتها

الخبر الواقع المتجدد في جميع النشرات، وتأتي بعد ذلك شرائط الصور المتحركة ومسارح الأقاليم الجوالة؛ فتضع المواقف في موضعها المحسوس من التصوير والتمثيل، وتستطيع أن تخلق من القصة القصيرة مناظر تشغل النظر ساعة أو ساعات، حيث ينتهي القارئ من مطالعة القصة القصيرة في دقائق معدودات.

هذه كلها مادة للقصة القصيرة تتوافر للأدب الأمريكي أو يزداد نصيبه منها على نصيب الآداب في الأمم الأخرى، فلا جرم إذا كانت هذه القصة لونًا من ألوان الأدب الأمريكي يكاد يغلب عليه، وكانت نماذجه منها قدوة يقتدي بها الكُتَّاب كأنها مصدر «الأزياء الفنية» في هذا الباب!

وقد اتفق في وقت واحد أن هذه القصة تخصصت بالموقف والإيحاء، وأن الفن كله يتجه إلى تمثيل الحالات وعرض الصور، وينفر قليلًا قليلًا من تعمد التسلية، بمجرد سرد الحوادث، وتعليق الأنفاس بالمفاجآت ومثيرات الشعور، فربما أنف الكاتب في العصر الحديث أن يقال عنه إنه يكتب للتسلية والتشويق، ويختلق العظائم والقوارع لتنبيه القارئ والاستيلاء على شعوره وخياله، فحسبه أنه يدير نظر القارئ إلى موقف نفساني أو موقف اجتماعي؛ ليكون قد أبلغ وأدى ما عليه، وحسبه أن يوحي إلى القارئ بما يتخيله ويرتب عليه أفكاره، مستقلًّا بالتخيُّل والتفكير، ليكون كاتبه وأديبه وشريكه أو مشركه معه في المشاهدة والملاحظة، وبهذا تتفق قصة الموقف ورسالة الفن العصري من الوجهة العامة، فيصبح تصوير الموقف غرضًا شاملًا يُغني عن اعتساف الحوادث والبحث عن «غير المعتاد» للتنبيه والاستيلاء على الشعور ... ولا شك أن التحول من بطولات الأمراء والنبلاء والسروات قد كان له دخل كبير في هذه الخصلة الفنية التي جاء بها العصر الحديث، فلا ضرورة «لغير المعتاد» في تصوير الأبطال والحوادث إذا كان العرف قانعًا بتصوير كل إنسان وكل موقف، غير مقصور على الإنسان الخاص أو على الحادث الخاص متسعًا شاملًا بالتعميم على سُنَّة العصر في جميع الأمور.

وسيرى القراء في مجموعة القصص التالية مذاهب المؤلفين في اختيار المواقف خلال القرن الأخير، فقد كان الموقف وحده لا يكفي لكتابة القصة قبل سبعين أو ثمانين سنة، بل كان من الواجب أن يكون الموقف رائعًا أو كافيًا لاستغراق الحواس وغمر النفوس بالعاطفة، فلم يزل هذا الموقف يتطور مع الزمن حتى أصبح «الموقف» جديرًا بالتسجيل كلما كان فيه موضع للملاحظة القريبة، أو للمقارنة العاجلة، أو للتأمل الذي ينبعث فيه القارئ مع نوازعه وأهوائه، غير متقيد بالكاتب في نزعته أو هواه.

في العصر الحاضر أصبح الكُتَّاب من طراز فولكنر أو همنجواي أو شتينبك يكتبون القصة لموقف واحد لا ينتهي إلى قارعة، ولا يتبعه الكاتب أو القارئ إلى نتيجة مقصودة، فمن مواقف أقاصيصهم موقف رجل يدخل بيته فتنبئه زوجته أنها عثرت بخادمة موافقة، فإذا بالخادمة «لا توافق» لأن الرجل يعلم بعد أن يراها أنها كانت زميلته في الدراسة، ولا تزال هي وهو يتناديان بالأسماء دون الألقاب، ومن مواقفها موقف مصارع يأتمر به منافسوه ليقتلوه، فيتلقى الخبر ولا يتبعه بعمل؛ لأن حكم الموقف يأبى عليه الهرب كما يأبى عليه إبلاغ ولاة الأمور ... ومن مواقفها موقف شيخ من الجيل الماضي يُسئِم السامعين المُحدَّثين بأخبار الطواف إلى الغرب، ثم التمادي في الطواف، فلا يطيق المحدثون سماع هذه «الأعاجيب» التي كانت في يوم من الأيام تهز المشاعر وتكفي وحدها للتغريب، ثم التغريب من غير قصد إلى مكان معلوم، وإنما هو كشف آخر من جانب البر بعد الكشوف الأولى من جوانب البحار، ولا محل له من السمر أو الكلام بعد أن كشف المحدثون كل بقعة من بقاع الغرب، ونسوا أنه كان غيبًا مجهولًا قبل جيل.

هذه القصص تُختار لهذه الدلالة، وتفيد في اختيارها إلى جانب القصص التي سبق إليها المؤلفون قبل جيل واحد، فهي القصة القصيرة في معرض الأجيال على حسب اختلاف المواقف والأحوال؛ ولهذا توضع المجموعات المختارة من ألوان الفن وضروب الكتابة، ولعل هذه المجموعة أن تكون لها رسالتها الكافية بين المجموعات.

الرواد

(١) واشنطون أرفنج ١٧٨٣–١٨٥٩

يلقب «أرفنج» بسفير أمريكا الأدبي إلى القارة الأوروبية، ويلقب أحيانًا بأبي الأدب الأمريكي، وهو جدير بكلا اللقبين، يستحقهما بمزايا متعددة، أكبرها وأظهرها أنه رجل لم تستغرقه بيئة قط، سواء أكانت بيئة الزمن أم بيئة المكان، أم بيئة الفكر والثقافة.

يكتب عن الأقاليم المحلية، ويكتب عن أقاليم الولايات من شرقها إلى غربها، ويصف شئون العالم الجديد ولا يقصر في وصف شئون العالم القديم، ويتتبع مسائل عصره، ويتتبع كذلك مسائل التاريخ القريب والبعيد، ويُعنى بالشرق، كما يعنى بالغرب في عالميه الجديد والقديم … فمن مؤلفاته كتاب عن النبي محمد عليه السلام، وكتاب عن خلفائه، وآخر عن فتح غرناطة، وآخر عن خواطر يوحيها قصر الحمراء! وثقافته تلم بأطراف متباعدة؛ فمنها الترجمة والقصة والمقالة والرسائل التي لا تخلو جميعًا من أسلوبه الغالب عليه، وهو أسلوب النقد الاجتماعي في قالب الفكاهة الرضية التي لا تنطوي على عداء لأحد أو لجماعة من الناس … وتتعدد بيئته في تراجمه كما تتعدد بيئاته في سائر موضوعاته، فهو يترجم — كما تقدم — للنبي محمد عليه السلام، ويترجم لكولمبس ولواشنطون، ويترجم للأديب الإنجليزي أوليفر جولد سمث، وتظهر سجيته كلها في إعجابه بهذا الأديب لأن جولد سمث قد اشتهر بكتابه عن «المواطن العالمي» وهو فيلسوف صيني يطوف في العالم، ويعلق على مشاهداته وتجاربه بنظرة شرقية تتجلى فيها غرائب النقائض والمفارقات.

وقد رشحته لهذه السماحة الثقافية أحواله جميعًا، ما كان منها عامًّا يرجع إلى عصره ومنشئه، وما كان منها خاصًّا يرجع إلى أسرته ومزاجه وتربيته، فإنه ولد في عصر الاستقلال، وحضر خلافات الحرب الأهلية، ونشأ من أسرة موسرة لها أعمال في نيويورك وليفربول، وقد عاش في هذه المدينة بضع عشرة سنة وكيلًا عن أسرته في أشغالها التجارية، وترعرع بعد أن عبرت الثقافة الأمريكية بأطوارها الثلاثة: وهي طور الكتابة الدينية في القرن السابع عشر، وطور الكتابة السياسية في القرن الثامن عشر، وطور الكتابة الأدبية في عصر الاستقلال، وإذا نظرنا إلى لباب فكاهته رأينا لها محورًا عامًّا من البيئة الزراعية التي أخذت تتحول إلى بيئة التجارة والصناعة، ومن البيئة المختلطة التي أخذت تتحول إلى الوحدة القومية الشاملة! ولهذا نرى لفكاهته هدفين تنصبهما له تلك المرحلة من تاريخ بلاده: أحدهما السذاجة الريفية، والآخر غرائب الأجناس التي يبرزها التقابل بين الأمم في وطن واحد.

أمَّا ملكته الفكاهية في جملتها فمصدرها القدرة على النظر إلى الأمور جميعها من زاويتين لا من زاوية واحدة، وكثيرًا ما كتب عن شئون وطنه كما تبدو لعين الطارئ المختلف كل الاختلاف عن جميع بنيه، ومن ذاك رسائل التركي المنفي الذي تخيله مهاجرًا إلى الديار الأمريكية، يكتب الرسائل عنها، ويصف منها فيما يصف نظام الحكومة والدولة فيقول: إن الولايات المتحدة تحكم على نظام يسميه نظام حكم الكلام «لوجوقراطي» وإنها الآن في حرب أهلية لاختيار «الباشا» الحاكم عليها، وليس للمتقاتلين في هذه الحرب سلاح غير سلاح الخطب والمقالات.

وُلد بنيويورك (٣ من أبريل سنة ١٧٨٣) ومال بطبعه إلى دراسة القانون ومطالعة الآداب، فلم يتابع تعليمه الجامعي، ثم سافر إلى القارة الأوروبية وهو في الحادية والعشرين مستشفيًا، وعاد إلى السياحة فيها مستطلعًا منقبًا وهو يناهز الأربعين، فالتقى بكبار أدبائها، وشهد مسارحها، وتنقل بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإسبانيا، واخْتِير بعد ذلك لوظيفة في المفوضية الأمريكية بمدريد، ونُقل منها إلى المفوضية الأمريكية بلندن، ثم ارتقى وزيرًا مفوضًا لبلاده في إسبانيا، واختاره معهدها الملكي لدراسة التاريخ عضوًا فيه، فكان من أبرز أعضائه، وخُيِّل إلى الناشرين في وطنه في أثناء غيابه أنه قد نُسي، وخلفه على زعامة الأدب كُتَّاب جيل بعد جيله، فأعرضوا عن طبع كتب بعد نفادها، ولكن واحدًا منهم — وهو بتنام — كان يطوف في البلاد الإنجليزية لشئون تتعلق بصناعته؛ عرض عليه بعد

عودته أن ينقده ألفي ريال في السنة مع حصة في الأرباح لطبع كتبه القديمة، وما عسى أن يصدره من مؤلفاته الجديدة؛ فتبين للناشرين والنقاد معًا أن مكانته في بلاده وغير بلاده ترتفع ولا تهبط، وأن تعبيره عن القومية الأمريكية «العالمية» كان أصدق التعبيرات في تلك المرحلة من مراحل الثقافة والتكوين الاجتماعي والصلات الخارجية …

وَمِمَّا يؤثر عن نزعته القومية أن هذا النظر «العالمي» فيه لم يضعف غيرته الوطنية، ففي الوقت الذي كان الناشرون يُعرضون فيه عن كتبه، وكان الأديب الإنجليزي موري محرر المجلة الربعية Quarterly Review يجزيه أحسن الجزاء عن طبع مؤلفاته ونشرها، اقترح عليه هذا الأديب أن يكتب للمجلة مقالًا أدبيًّا، وعرض عليه مائة جنيه أجرًا للمقال، فرفض مقترحه، وقال في كتابه إليه أن هذه المجلة طالما نددت بقضية وطنه على صفحاتها، فهو لا يرضى أن تظهر مقالاته على تلك الصفحات.

ولم تكن السياحة هي العامل الوحيد في تعدد الجوانب الثقافية التي اشتهر بها أرفنج، فقد كانت مطالعاته لا تقل عن سياحاته، ويمكن أن يشار إلى بعض أساتذته الأدبيين، ولا يمكن حصرهم جميعًا، فمنهم مونتسكيو وسكوت وأديسون وجولدسمث، ومنهم كُتَّاب القرن الثامن عشر عامة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا، ويندر أن يشار إلى أديب من أدباء السلف اليونان أو اللاتين لم يطلع عليه.

وأسلوبه سهل رشيق، خلو من اللهجة التعليمية التي كانت تشيع بين أساليب القرن الثامن عشر، ويلاحظ عليه أنه يتجنب العواطف القوية، وينفر من الفواجع والسَّوْرات النفسية، ولكنه يحسن تصوير الملامح الشخصية بغير تكلف، ويعطي «اللون المحلي» حقه من العطف والفكاهة الرضية.

وقلَّ أن يطلع القارئ على أثر لهذا الكاتب النابغ إلا وجد فيه خصائصه جميعًا ممثلة عفوًا بغير مجهود …

ونتخذ المثل من القصة التي احتوتها هذه المجموعة، وهي قصة «ريب فان ونكل» فإنها قصة رجل ساذج لم يحصره جيل واحد، وفيها دعابته المعهودة عن سذاجة الريفي وعادات الهولنديين في أيام الهجرة الأولى، وفيها كذلك لمحة إلى قصة «أهل الكهف» وإلى طرائف عصر الانتقال بين أيام الاستعمار وأيام الاستقلال، وليس أوضح من صورة بطل القصة وصورة المجتمع البسيط الذي عاش فيه منذ شبابه إلى شيخوخته المضاعفة، تلك الشيخوخة التي صاحبت جيلين من الشباب والشيوخ.

ريب فان ونكل

وحق أودين رب السكسون، الذي يُنسب إليه يوم أودين أو الأربعاء ليكونن الحق لزامًا أحرص عليه إلى اليوم الذي أتوارى فيه إلى الضريح …

كل مَنْ ألقى به المسير إلى هدسون يذكر ولا ريب جبال كاتسكل فرع الأسرة الجبلية التي تُعرف بالأبلاشية، وتُرى على غرب النهر من بعيد مرتفعة إلى علو نبيل، مشرفة على ما حولها من الأرضين، يطرأ عليها في كل موسم أو جو يتغير، بل في كل ساعة من ساعات النهار طارئ من الألوان الساحرة التي تغشى أشكالها وملامحها، وتحسبها ربات البيوت في تلك الجيرة مقياسًا من أدق مقاييس الجو والهواء، فإذا اعتدل الجو واستقر تسربلت بالزرقة والاحمرار، وارتسمت صورتها الفخمة على أفق الغروب، ويتفق أحيانًا حين يصحو الأفق من حولها أن تتجمع فوق رأسها كمية من الأبخرة المرحة تطيف بقمتها، فتلمع في أشعة الشفق الأخيرة كأنها تاج العظمة والفخار.

وربما تراءى للمسافر تحت أقدام تلك الجبال السحرية دخان يتلوى، وهو صاعد من سقوف القرية القرميدية التي تلمع بين الأشجار حيث تلتقي الزرقة من أعالي الأرض بخضرة البطحاء النضرة، وهي قرية صغيرة معرقة في القدم، أسَّسها بعض المستعمرين من الهولنديين منذ أوائل أيام الإقليم، حوالي عهد الحاكم الطيب «بيتر ستو فيزان» طيَّب الله ثراه، ولم تزل هناك بقايا من بيوت السكان الأوائل تخلفت إلى سنوات قريبة، بنوها بالحجارة الصفر الصغار التي جلبوها من هولندة، وفتحوا فيها الشبابيك تحت سقوفها الحدباء، يعلوها «أبو رياح».[١]

في هذه القرية، وبين جدران بيت من هذه البيوت التي أبلاها الزمن، وران عليها طول العهد بتقلب الأجواء، كان يعيش من زمن بعيد — أيام كانت القرية ولاية بريطانية — رجل طيب ساذج يُسَمَّى «ريب فان ونكل» ينحدر من سلالة «فان ونكل» الذي ذاعت شهرته في تلك الأيام، أيام البطولة والفروسية في عهد الحاكم بيتر ستو فيزان، وقد صحبه حين ذهب إلى حصار قلعة كرستيا، ولكن «ريب» لم يرث إلا القليل من خلائق أجداده الحربية، فهو رجل سمح بسيط حسن العشرة لجيرانه، مستسلم لزوجته التي لا تفتأ تنهره وتسيء إليه، ولعل هذا الخلق الأخير هو الذي أورثه تلك الهوادة التي

[١] صورة على شكل الديك، تتقلب مع الريح، وتدل على أحوال الجو.

تحبب صاحبها إلى الناس، وتلازم خارج الدار كل مَنْ ابتُلي داخلها بالخضوع للزوجات السليطات؛ إذ تُراض أمزجتهم ولا ريب بالمطرقة والكير في نيران الخلاف المحتدم، حيث تغني الخطبة الواحدة عن عظات المنابر في العالم كله، وهي تحاول أن تعلم الناس فضائل الصبر والاحتمال، ومن ثَمَّ تُحسب الزوجة الصاخبة في عداد النعم المرضية، ويقال عن «ريب فان ونكل» بحق إنه مثلث البركات!

والواقع أنه كان على حظوة عظيمة عند زوجات القرية الصالحات، وهن على عادة الجنس اللطيف يعطفن عليه في كل مشكلة بيتية، ولا يفوتهن في سويعات السمر أن يُلقين اللوم كله على السيدة فان ونكل، كلما قلبْنَ شجون الحديث … وقد تعوَّد الأطفال أن يتلقوه بصيحة الفرح كلما طلع عليهم، فيساعدهم في اللعب، ويصنع لهم ألاعيبهم، ويعلمهم كيف يرسلون الطيارات في الهواء، وكيف يصيبون المرمى، ويقص عليهم أقاصيص العفاريت والساحرات والهنود، وحينما ذهب يدلف في أزقة القرية أحاط به جيش منهم يتعلَّق بأذياله، ويصعد على ظهره ويداعبونه بغير احتشام، ولا تسمع كلبًا واحدًا ينبحه بذلك الجوار!

وآفة «ريب» الكبرى كراهته العصية لكل عمل نافع، وليس ذلك لقصور منه عن الدأب والمثابرة؛ فإنه قد يجلس النهار كله وفي يده سنارة أثقل من رمح التتري يصطاد بها السمك، ثم لا يسأم الجلوس وإن لم يسعده الحظ بانتفاضة واحدة من الخيط تبعث فيه الأمل، وربما حمل بندقية الصيد ساعات بين الغابات والمستنقعات، وفوق التلول، وتحت الأودية عسى أن يظفر ببعض السنجاب أو الحمام، ولم يرفض قط أن يمد يد المعونة لجار يدعوه إلى أشق الأعمال، ولم يزل في الطليعة في كل مهرجة من مهارج الحصاد، أو في كل حشد يتلاقى لإقامة الحواجز والحدود. وقد تعود النساء كذلك أن يبعثن به في رسائلهن، وأن يندبنه لتلك المهام التي لا يتقبل الأزواج منهن أن يستجيبوهن إليها! فكان بعبارة أخرى على استعداد لأن يقوم بكل عمل غير عمله … أما المستحيل عنده فهو أن يُعنى بحقله أو شئون داره، وكل ما له فيه منفعة أو صلاح!

وواقع الأمر أنه كان يقول إن العمل في مزرعته عناء ضائع، فإنها كانت ألعن قطعة من الأرض في الإقليم كله، وليس فيها إلا ما هو غلط ينتهي إلى غلط على الرغم منه، فحواجزها لا تزال تتساقط وحدها، وبقرته تضل الطريق أو تجوس خلال الكرنب، والعشبُ فيها كأنما أقْسمَ ليسبقن في نموِّه وتكاثره كل عشب مثله في المزارع الأخرى، وكذلك كان المطر على عهد أن ينهمر كلما اتفق له عمل خارج داره، ومن ثَمَّ فنيت مزرعته

الموروثة فدانًا في إثر فدان، ولم يَبْقَ منها غير رقعة صغيرة يزرع فيها الحبوب والبطاطس، وهي أسوأ المزارع حالًا على الإطلاق.

وكان أطفاله كذلك شُعثًا غبرًا كأنهم شرداء لا ينتسبون لأحد، ومنهم ابنه «ريب» الذي نشأ على صورته، تنمُّ مخايله على أنه سيخلف أباه في عاداته وأطواره كلما شوهد بملابس أبيه البالية، وكان كالعجل الصغير يقفو آثار أمه حيث سارت، ملتفًّا بسراويل أبيه، وقد طوى فضولها بيده فعل السيدات الرشيقات؛ إذ يأخذن أذيالهن بأيديهن في الهواء العاصف.

على أن «ريب فان ونكل» كان من أولئك السعداء الذين رُزقوا ذلك المزاح الرضي الأبله، الذي يتلقى الدنيا على علاتها في يسر وقلة اكتراث ... يأكل الخبز أبيض أو أسمر حسبما يتفق، ويؤثر أن يعيش جوعان بدرهم على أن يعيش بالعمل والمشقة على دينار، ولو أنه تُرك وشأنه لصفر للحياة يطويها في غير اكتراث، ولكنها هي امرأته التي لا تني تطن في أذنيه مؤنبة له على كسله وتراخيه، وعلى الخراب الذي يسوقه إلى أهله، وتدأب على ذلك صبحًا وظهرًا وعشيًّا، فلا يهدأ لها لسان. ومهما يَقُلْ فهو على يقين أن كلمة منه يتبعها لا محالة فيض من تلك البلاغة المنزلية، حيلته الوحيدة حياله أن يصبر عليه، وأن يهز كتفيه وينفض رأسه، ويمط شفتيه، ويرسل بصره أمامه، ولا ينبس بحرف ... وتلك على الدوام مناسبة جديدة لانطلاق زوجته في طوفان آخر من التأنيب والتبكيت، فلا يسعه إلا أن يشد عزمه ويفارق المنزل إلى الخلاء، وهو المكان الوحيد الذي يملكه الزوج المغلوب!

وكان أليفه الوحيد في الدار «كلبه وولف» الذي كان حظه من مدام «ريب» كحظ صاحبه! كلاهما رفيق بطالة وكسل، وربما لحظته السيدة بعين السخط لاتهامها إياه بإغراء الرجل والتواطؤ معه على الكسل والتشرد ... والحق أن «وولف» كان كما ينبغي لكل كلب شجاع مثلًا للكلاب، لا يسبقه سابق في مطافه بالغاب، ولكن ما جدوى ذلك كله أمام لسان امرأة سليط؟! فما هو إلا أن يدخل المنزل حتى يهبط صدره، ويتدلى ذنَبه، أو ينطوي بين رجليه، ويتسلل في خجل ورهبة، ملقيًا بالنظر من هنا وهناك إلى مدام «ريب» متأهبًا للفرار كلما لمح من بعيد شبح المكنسة في يدها ...!

وساء الزمن عامًا بعد عام مع «ريب فان ونكل» في حياته الزوجية، فليس من شأن السن أن تداوي طبيعة النكد ... ومن شأنها دائمًا أن تزيد مرانة اللسان وتشحذه بكثرة الاستعمال! وطالما عَزَّى نفسه كلما برح المنزل بالتردد على نادي الحكماء وذوي الحنكة

والخبرة وزملائه في الكسل والهوادة، حيث كان المجلس ينعقد على كنبة عند باب خان، تعلوه صورة صاحب الجلالة «جورج الثالث» وتأوي إليها الزمرة، فتقضي نهار الصيف في الظل، وتتحدث هنالك بفضول الغيبة القروية أو بلا شيء، ولكن الإصغاء إليهم في بعض ثرثرتهم متعة تساوي دراهم السياسي الأريب؛ إذ يجيلون النظر في صحيفة من الصحف القديمة، يلتقطونها من مسافر عابر، ويصغون سكوتًا إلى الأستاذ العلَّامة «دريك فان بومل» وهو يتنقل بين موضوعاتها، ولا تخيفه منها أضخم كلمة من كلمات المعجمات الغامضات، ثم يتبادلون الرأي في أصداء من الحوادث العامة مضت عليها بضعة أشهر ...!

وكان المسيطر التام على آراء هذه النخبة شيخ القرية وصاحب خانها «نيقولا فيدار» وعلى بابه يقضي النهار من الصباح إلى المساء، لا يتحرك إلا ريثما يتقي الشمس في ظل شجرة كبيرة، يستطيع مَنْ يراه على مقعده وراءها أن يعرف الساعة كما يعرفها من علامة المِزْولة! نعم إنه كان كثير الصمت، كثير التدخين، قلما تنفرج شفتاه، إلا أن مريديه — ولكل عظيم مريدون — كانوا قد عرفوه وعرفوا كيف يستشفُّون رأيه من ملامح وجهه، فإذا سمع كلامًا لا يعجبه، فآية ذلك أن ينفخ الدخان نفخة الغضب والاستياء! أمَّا إذا وافق الكلام هواه، فآية ذلك أن يطيل النفس ثم يرسله سحبًا هِينة خفيفة، أو ينحي البيبة عن فمه، ويطلق منه الدخان المتموج ليهز رأسه هزة التأمين والاستحسان!

وحتى هذا المعقل الأمين قد طُورد فيه «ريب فان ونكل» آخر الأمر، ولاحقته عنده زوجته اللجوج، حيث كانت تفاجئ الجمع بصيحاتها، وتصف كل عضو من أعضائه بصفاته عندها، فلا يعتصم منها حتى تلك الشخصية المُوَقَّرة، شخصية «نيقولا فيدار» ولا يأمن أن يسمع من ذلك اللسان الصاخب تهمة التحريض على البطالة، يغري بها قرينها المسكين ...!

وران اليأس بعد طول الصبر على المسكين «ريب» ولم يكن له منجًى من هذه المطاردة ومن متاعب الحقل إلا أن يحمل بندقيته ويأبق إلى الغابات، ويستريح إلى جذر شجرة، يشاطره في ملجئه منها كلبه وولف الأمين، وهو قسيمه أيضًا في البلاء والاضطهاد!

وربما التفت إلى «وولف» حينًا بعد حين، يناجيه بكلمات العزاء والمواساة: «آه يا وولف العزيز، إن سيدتك تسومك سوم الكلاب، فلا تأس ولا تحزن، إنك لن تعدم ما دمت بقيد الحياة صديقًا يقف إلى جانبك ويواسيك!»

ويقابل وولف هذا العزاء ناظرًا إلى وجه مولاه مبصبصًا بذنبه، وما من شك أنه كان يجاوبه من أعماق قلبه، ويفصح له عن كامل عطفه، لو يقدر كلب أعجم على الإفصاح!

وفي إحدى هذه الرحلات، يومًا من أيام الخريف، صعد «ريب» — على غير قصد منه — إلى قمة من أعلى قمم التلال؛ يتشاغل بملهاته المحببة صيد السنجاب، ويستمتع بالسَّكِينة حيث تتجاوب أصداء بندقيته كرَّة بعد كرَّة، ثم ألقى بنفسه وقد أجهده التعب عند الأصيل على ربوة خضراء، تجللها الأعشاب الجبلية على حافة الهاوية، ولاحت له من فرجة الغصون غابات الوادي التي تمتد تحته ميلًا بعد ميل، وعلى مد البصر منظر النهر الفخم في مجراه الصامت تنعكس عليه سحابة حمراء أو شراع زورق يتهادى هنا وهناك، ثم يتوارى في زرقة التلال، وإلى الجانب الآخر وهدة عميقة في عزلة موحشة يمتلئ قاعها بفتات الهضاب المطلة عليها، وقلما يبلغ إليها شعاع الشمس الغاربة …

وراح «ريب» يسرح البصر في هذه المشاهد هُنيهة، والليل يقبل بأكنافه، والظلال تتطاول من حوله، فبدا له أن الظلام ملقٍ سدوله — ولا شك — قبل أن ينتهي إلى القرية، لو أنه أزمع الهبوط إليها، وتنهد طويلًا حين جال بخاطره ما سيلقاه من أهوال السيدة «فان ونكل» وزماجر غضبها!

وأنه لَيَهِم بالنزول فإذا بهاتفٍ يصيح به: «ريب فان ونكل» … «ريب فان ونكل» … ويلتفت فلا يرى أحدًا هنالك، اللهم إلا غرابًا على جناحيه خلال التلال، فيُخيل إليه أنه سمعه قد خدعه، ويستدير لِينحدر فيعاوده الصوت: «ريب فان ونكل» … «ريب فان ونكل» كما سمعه أول مرة، وإذا «بوولف» يقوس ظهره ويعوي عواءً عاليًا، ويزحف إلى جانب مولاه، وفي عينيه نظرات الخوف، وهو يطل على الوهدة، فيخامر الخوف جوانح «ريب» وينظر حيث رأى كلبه يطيل النظر، فيلمح ثمة إنسانًا يدلف مصعدًا في الجبل بين تلك التلال المهجورة، وعلى ظهره حملٌ ينوء به ويثقله … فأدهشه أن يلقى أحدًا هناك، وخطر له لعله أن يكون جارًا من جيرانه في حاجة إلى العون، فأسرع منحدرًا إليه …

وتضاعفت دهشته حين اقترب منه لغرابة مرآه؛ إذ كان قصيرًا، ممتلئًا، مربع القادمة، كث اللحية، يلبس ملابس أهل هولندة، وحول حَقْويه صدار يستدير عليهما فوق سراويله القصار التي ترصعها الأزرار على الجنبين وفوق الركبتين، وكان يحمل على كتفه برميلًا يبدو عليه أنه مترع بالشراب، ويومئ إلى «ريب» ملتمسًا منه المساعدة.

فبادر «ريب» إلى نجدته كعادته، وإن ساورته خاطرة من الاستغراب والتهيب، وتعاونا معًا على الصعود بالحمال إلى مثعبة جفت في طريق السيل، وكان «ريب» يسمع كلما ارتقيا مصعدين قصفًا كقصف الرعود البعيدة، يخيل إليه أنه آت من بعض الشقوق بين الجبال حيث يتجهان، فتمهل قليلًا، ثم خطر له أنها قد تكون نوبة من نوبات الرعود

المعهودة في تلك الذرى. فتقدم، وطفق يتقدم هو وصاحبه، حتى أفضيا إلى فجوة كالمدرج تحيط بها مزالق الوهاد، وتعلوها الأشجار التي تشابكت فروعها، فلا تبدو من خلالها غير رقعة هنا ورقعة هناك، من قبة السماء الزرقاء وسحائب المساء اللامعة ... وكان «ريب» وصاحبه يرزحان بحملهما صامتين؛ لأنه — وإن عجب لهذا الحمل يصعد به صاحبه إلى تلك الذروة — كان يحس حول الرجل الغريب شيئًا من الغموض يحول دون الألفة ورفع التكليف بينهما ...!

واعتراه طارق جديد من الغرابة حين انتهيا إلى الفجوة المدرجة؛ إذ نظر ثمة فلمح طائفة من الشخوص الغريبة تلعب لعبة الأوتاد التسعة، وعليهم تلك الأكسية العجيبة من السراويل والصدائر قد تَعَلَّقت من نطاقها الخناجر، وفي لباسهم مشابهة لملابس دليله، وعلى سماتهم عجب عجاب؛ إذ كان فيهم الضخم الدماغ، العريض الوجه، الذي تحكي عيناه أعين الخنازير، ومنهم مَنْ يبدو عليه كأنما رُكِّبَ وجهه من أنف ولا شيء، وعلى رءوسهم قلانس يتدلى الريش فوق أقفيتها، وكلهم من ذوي اللحى التي اختلفت ألوانها وأشكالها، يرأسهم واحد منهم قصير القامة في لون بشرته سفعة من تقلب الأجواء، وعلى صدره «عنترى» مُطَرَّز الحوافي، وفوق رأسه قبعة يعلوها الريش، وفي قدميه حذاء مرتفع الكعبين تُزَيِّنه وردتان ... ومنظرهم جميعًا يُخَيِّل إلى «ريب» أنه ينظر إلى الصورة الفلمنكية التي كان يراها في حجرة القس «فان شيك» مُعَلَّقة هناك منذ أيام الهجرة الأولى ...!

والذي أدهش «ريب» بصفة خاصة أن هؤلاء السادة كانوا في تسليتهم ولعبهم يتشحون بوشاح الرهبة والوقار، ويلتزمون الصمت الخفيَّ، ويلوحون للعين كأغرب ما وقعت عليه من محفل أناس يلعبون ويتلهون، ولا يتخلل صمتهم غير ما كان يسمعه حين يلقون بكراتهم من دوي كدوي الرعود ...!

فَلَمَّا اقترب منهم «ريب» وصاحبه، أمسكوا عن اللعب، ونظروا إليهما فأطالوا النظر، كأنهم التماثيل الجوامد، وتراءت على ملامحهم صرامة أفزعته، فسقط قلبه، واختلجت ركبتاه، وعمد صاحبه إلى البرميل فأفرغه في بواط واسعة، وأومأ إليه أن يدور بها على الرفاق، فلبى الأمر وهو يرتجف من الرعب، ورآهم يجرعون الشراب في صمتٍ عميق، ثم يعودون إلى اللعب ...

وسكن روعه رويدًا رويدًا، وبلغ من طمأنينته أنه اجترأ على ذلك الشراب يتذوق منه، فاستعذب مذاقه كأطيب ما تكون الأشربة الهولندية، وكان من دأبه اللهفة على الشراب

حيث وجده، فعاود الكَرة وأغرته لحسة بلحسة، وأكثر من معاودة البواطي لحظة بعد لحظة حتى غام حسه وغامت عيناه، ومال رأسه، واستغرق في نومٍ عميق!

فلما تنبَّه ألفى نفسه على الربوة الخضراء حيث التقى بصاحبه، ومسح عينيه ونظر، فإذا الصباح مشرق وضيء، وإذا الطير تقفز وتغرد بين الغصون، والنسر محلق باسط جناحيه يستقبل النسيم صافيًا على قنن الجبال، وهجس في نفسه: أتراني قضيت الليل كله ها هنا؟! ثم راح يستعيد ما حدث قبل استغراقه في النوم، ويذكر ذلك الرجل الغريب صاحب برميل الشراب، وفجوة المدرج، وتلك الرفقة العبوس اللاهية بلعبة الدبوس، وتلك الباطية الخبيثة، يا لها من باطية خبيثة حقًّا! فكيف يكون اعتذاره للسيدة «فان ونكل» يا ترى؟!

والتفت إلى جانبه ينظر بندقيته، فلم يجد في موضعها غير هنة رثة أكل الصدأ حديدها، فخطر له أن تلك الرفقة العبوس قد عبثت به وأسكرته لتختلس منه بندقيته، واختفى وولف أيضًا! فهل تراه انطلق وراء حجلة أو سنجابة؟ إنه ليصفر له ويناديه ولا من سميع، إنما يجيبه الصدى بمثل صفيره وندائه، ولا كلب هناك.

واعتزم أن يعود إلى مكان الرفقة يسألهم حيث وجدهم عن كلبه وبندقيته، فما هو إلا أن همَّ بالحركة حتى أحس في مفاصله بيبوسة، وعجز عن الحركة على غير عهده بنشاطه! فقال لنفسه: إن هذه المراقد الجبلية لا توافقني، ويا له من وقتٍ ممتع أقضيه بين يدي السيدة «فان ونكل» لو لزمت الدار بداء المفاصل والعياذ بالله!

لقد وصل إلى الوهدة بمشقة، ورأى الهضبة التي ارتقاها مع صاحبه، ولكنه لفرط دهشته وجد عندها جدولًا يتدفق من صخرة إلى صخرة، ويملأ الجبل بأصداء خريره، فعالج أن يتخطاه، وسلك طريقه في جهد ومشقة بين ألفاف الشجر وهي تعترضه كالشباك في الطريق، وبلغ آخر الأمر إلى حيث الفجوة المدرجة، ولكنه لم يجد هناك ثغرتها التي كان يذكرها، ووجد الصخر قائمًا أمامه كالسد المنيع يهوي عليه الماء، كأنه الدخان مندفعًا إلى حوض غائر قد اسود في ظلال الغاب التي أحاطت بجهاته ... واضطر «ريب» المسكين أن يقف في ذلك الموضع، فعاود الصفير والنداء على كلبه، ولم يستمع من جواب غير النعيب من سرب غربان تحوم كسلى من فوق شجرة يابسة على الهاوية، وتنظر دونها آمنة في فضائها، كأنما تسخر من ذلك الآدمي المسكين في حيرته ...!

ماذا تراه يصنع؟ إن الصباح يمضي وهو يتضور جوعًا، وتلعجه لوعة الحزن على كلبه وبندقيته، ويكربه لقاء زوجته المنتظر، ولكنه لا يقدر على البقاء حيث يهلك جوعًا في

مكانه، فهز رأسه وحمل بقايا بندقيته، وتحوَّل وهو مثقل الفؤاد بالغم والقلق إلى ناحية داره.

راح يقترب من القرية، فيلقى عندها طوائف من الناس لا يعرف منهم أحدًا، ويدهشه أن ينكرهم جميعًا، وهو يحسب أنه على معرفة تامة بكل فرد في أفراد المكان وما حوله، ويلاحظ أن ملابسهم تخالف الزي الذي يعلمه، وأنهم ينظرون إليه بدهشة كدهشته، ويتأملونه طويلًا ثم يحكون ذقونهم، فلمَّا مدَّ يمينه يصنع مثل صنيعهم، إذا بلحيته قد طالت نحو قبضتين أو تزيد!

وكان قد دنا من ظاهر القرية، فلحقت به زمرة من الصغار تُهلل في أعقابه وتشير إلى لحيته البيضاء، ونبحته الكلاب التي لم يكن كلب منها ينبحه من قبل، فنظر إليها فلم يعرف أحدًا منها. وتبدلت القرية كلها؛ فهي أكبر وأحفل بسكانها، ولا أثر فيها لمزاراته التي كان يألفها، وعلى الأبواب أسماء غريبة، وفي النوافذ وجوه غريبة، وكل شيء يراه غريبًا غريبًا!

خانه عقله، وداخلته الشكوك، ولاح له أنه يمشي مسحورًا في عالم مسحور! فلا ريب أنها قريته التي فارقها بالأمس، وهذه جبال كاتسكل، ما في ذلك ريب، وهناك نهر «الهدسون» المفضض على مسافته حيث كان، وهنالك كل هضبة ووهدة حيث كانت من قديم ...! فيا للشراب الخبيث! إنه قد بلبل رأسي أيما بلبال!

ولم يعرف طريق بيته إلا بعد لأي ... فجعل يمشي إليه متهيبًا متوجسًا، يترقب في كل لحظة أن يسمع صيحة امرأته مجلجلة في أذنيه، فإذا بالدار قد تداعت، والسقف قد تهدم، والنوافذ قد تهشمت، والأبواب قد تفككت من مفاصلها، ولديها كلب يحوم حولها يوشك أن يهلك من هزال الجوع، كأنه صاحبه «وولف» ... فناداه باسمه فكشر له عن أنيابه ... يا له من جحود: كلبي ينساني فيما بين ليلة ونهار؟!

ودخل المنزل، ولا نكران أن السيدة «فان ونكل» تدأب على تنظيمه وتنظيفه. فوجده خلاء خواء، يلوح عليه أنه مهجور ومتروك، وغلبت وحشته على خوفه، فنادى زوجته وأطفاله، فرنَّ صوته هنيهة في الحجرات الخالية، ثم ران عليها السكوت!

وهرول إلى الخان مزاره المعهود، ولكنه ذهب ... أما المكان فقد قام فيه في موضع الخان بناء من خشب متخاذل، مفغور النوافذ، مرقع الثغرات هناك بالقبعات والسراويل، وعلى بابه نقشة تقول: «فندق الاتحاد» لصاحبه «يوناتان ديلتل» ... وعاين — بدلًا من الشجرة الكبيرة التي تُظل الخان — عمودًا فوقه شيء كالقَلَنْسُوة الحمراء عليه خطوط ونجوم، كل ما هنالك غريب غريب!

وتعرف هنالك صورة الملك «جورج» التي دخن تحتها كم من بيبة مشتهاة، ولكنها — حتى هذه الأخرى — قد تبدلت، وحلَّت في محل الكسوة الحمراء أخرى زرقاء، وسيف في اليمين بدل الصولجان، وقبعة في مكان التاج، وتحت ذلك كله حروف تقول: «جنرال واشنطون»! وكان على الباب زحام، لكنه غير الزحام الذي ألفه «ريب» ... تغيرت منهم حتى حركاتهم وخلائقهم وعاداتهم، فحلت الجلبة محل السكينة التي تعودها في زمرة الحكيم «نقولا فدار».

وتطلع مليًّا عسى أن يرى الحكيم «نقولا فدار» بوجهه العريض، وذقنه المزدوجة، وبيبته الطويلة المليحة تلفظ الدخان بدلًا من سقط الكلام، ولكن على غير جدوى، أو عسى أن يرى الأستاذ «فان بوميل» ينثر ما احتوته إحدى الصحف القديمة ... أو سائر تلك الرفقة، ولا من حس لهم أو خبر، وإنما يشغل مكانهم مخلوق نحيل صفراوي، مفعم الجيوب بالإعلانات، يهدر بما يسميه حقوق المواطنين، والانتخابات، وأعضاء المؤتمر، والحرية، وتل بنكر، وأبطال سنة ست وسبعين، وما شابه ذلك من رطانة كأنها أخلاط برج بابل [ثم] سمع «فان ونكل» الحائر المشدوه ...!

ولم يلبث مطلع «ريب» بلحيته الطويلة البيضاء، وبندقيته الصدئة، وملابسه المشعثة، وفي ذيله جيش من النسوة والصبية، أن لفت أنظار ساسة الخان إليه، فتكوَّفوا حوله يرمقونه من رأسه إلى قدمه مستطلعين، وأسرع إليه الخطيب فانتحى به جانبًا يسأله: في أي جانب ينتخب؟ فحملق «ريب» وأتأر النظر إليه في غير فهم وبغير معنى! وجاءه شخص آخر قصير ملهوج فجذبه من ذراعه وسأله: اتحادي أنت أم ديمقراطي؟ فذهل «ريب» ماذا يعني هذا السائل؟! وإنه لفي ذهوله لمَّا يُفِق، إذا بشخص بادي الخطر، مزهر السمات، تنحرف قبعته المستقرة على رأسه، يدفع الجمع يمنة ويسرة، ويثني إحدى ذراعيه على خاصرته، ويستند بالأخرى إلى عصاه، وينظر إليه نظرة نافذة فاحصة عن دخيلة ضميره، ثم يسأله في جد وصرامة: كيف سولت له نفسه أن يحضر إلى مجتمع الانتخاب مسلحًا ببندقيته قائدًا وراءه ذلك الجيش من النسوة والصبية؟! أتراه ينوي أن يثير الشغب في القرية؟

قال «ريب»: معذرة يا حضرة السيد، إنني رجل هادئ فقير من أبناء الموطن، ومن رعايا الملك الموالين لجلالته ... حفظه الله وأسبغ بركاته عليه.

فانفجرت من الجمع صرخة عاتية وهتفوا به: محافظ، محافظ، جاسوس، هارب. اطردوه، اقذفوا به إلى بعيد ...

ولأيًا ما استطاع الرجل المزهو الخطير أن يعيد السكينة إلى المكان! واتخذ وجهه من سمات الجد والصرامة عشرة أضعاف ما كان عليه، وعاد يسأل المتهم: ما باله قد حضر إلى ذلك المكان، وعمَّنْ يبحث فيه؟ فأكد له المسكين أنه لا يضمر شرًّا، وأنه لم يقصد إلا السؤال عن بعض جيرانه من أصحاب الخان.

قال الرجل المزهو الخطير: حسنًا، مَنْ هم؟ أخبرنا عن أسمائهم؟

ففكر «ريب» لحظة، ثم قال متسائلًا: أين «نقولا فدار»؟

وأتبع سؤاله صمت وجيز، وارتفع صوت كصفير الغاب من قبل شيخ كبير مرددًا ما سمع: «نقولا فدار»! ... إنه مات منذ ثماني عشرة سنة، وهنالك في مقبرة الكنيسة شاهد على قبره ينبئ عنه، ولكنه كذلك قد فني منذ حين.

قال «ريب»: وأين «بروم» الهولندي؟

فأُجيب: إنه ذهب إلى الحرب عند نشوبها، وقيل: إنه مات في الهجمة على «أستوني بونيت»، وقيل غير ذلك: إنه غرق بجوار «أنتوني نوز»، ولا ندري فإنه لم يعد قط منذ رحل عن هذا المكان!

قال «ريب»: وأين الأستاذ «فان بوميل»؟

فأُجيب: إنه ذهب أيضًا إلى الحرب، وأصبح من قادتها الكبار، وهو الآن في المؤتمر «الكونجرس».

وانقبض قلب «ريب» وهو يستمع إلى أنباء هذه الغير والأحداث في موطنه وبين أصحابه، وبدا له أنه في الدنيا غريب منفرد، يحيره الجواب عن كل سؤال، كما يحيره التحدث عن تلك الفترات من الزمن، وتلك لا يفقه لها معنى: الحرب، المؤتمر، «أستوني بونيت». فلم يلقَ في نفسه الجرأة على المزيد من الأسئلة، وصاح يائسًا: أليس في هذا المكان أحد يعرف «ريب فان ونكل»؟

فأجابه اثنان أو ثلاثة: «ريب فان ونكل»؟ آه، إنه هناك مستند إلى تلك الشجر.

فالتفت «ريب» فلمح نسخة أخرى منه كما كان يوم أصعد في الجبل ... ورآه مثله في أسماله، وفيما يبدو عليه من الكسل ... فتمت دهشة المسكين، وشك في ذاته، ولم يدرِ أهو هو؟ أم ذاك إنسان سواه في جلده؟!

وإنه لفي هذا البُحْران؛ إذ سأله الرجل المزهو الخطير: مَنْ عسى أن تكون؟ وما اسمك؟

قال: يعلم الله أنني لست «أنا» ...! إنني كائن آخر! فهذا أنا هناك ...! كلا! بل ذلك إنسان آخر دخل في حذائي! ... وقد كنت أنا بعيني ليلة أمس، ثم أخذتني سِنَة فوق

الجبل، فغيروا بندقيتي، وتغير كل شيء ... وتغيرت أنا ... ولا أحسبني أعرف ما اسمي، ولا مَنْ أكون ...!

وتبادل الواقفون النظرات والغمزات والإشارات ذات المغزى، وراحوا يضربون جباههم بأصابعهم، ويفكرون في انتزاع البندقية من الرجل، والاحتماء من أذاه إن أراد شرًّا ... وتراجع الرجل المزهو الخطير على عجل، وتقدمت في تلك اللحظة الحرجة امرأة أنيقة تتأمل الرجل الأَشْيب، وكان على ذراعها طفل سمين راعه منظره فانطلق يبكي ... فصاحت به: صه. صه يا «ريب»، لا تكن أحمق، فإن الرجل الأشيب لن يمسَّك بأذًى.

وأعاد اسم الطفل وهيئة المرأة ونبرة صوتها طائفة من الذكريات إلى ذهنه، فسألها: ما اسمك أيتها المرأة المباركة؟

قالت: اسمي «جوديت جاردنير».

قال: واسم أبيك؟

قالت: آه! يا للمسكين ... كان اسمه «ريب فان ونكل»! ولكنه منذ عشرين سنة ترك البيت ببندقيته، ولم يُسمع عنه خبر، وعاد كلبه وحيدًا ... ولكننا لا نعلم هل بخع نفسه أو اختطفه الهنود؟ وإنما كنت طفلة صغيرة يومذاك.

لم يبقَ على لسان «ريب» غير سؤال واحد، سأله وهو مرتجف فقال: وأين أمك؟

فتنهدت وقالت: إنها ماتت بعده بقليل، وكانت تساوم بائعًا متجولًا من «نيوانجلاند» فأخذتها سَوْرة غضب، وانفجر لها شريان فقضى عليها ...

خبر فيه أخيرًا شيء من الراحة، فلم يطق الرجل أن يملك نفسه، بل راح يعانق بنته وطفلها، ويقول لها: أنا أبوك ... أنا الفتى «ريب» بالأمس، وأنا الشيخ «ريب» اليوم ... أليس ها هنا مَنْ يعرف «ريب فان ونكل» المسكين؟!

فوجموا جميعًا، ودرجت إليه عجوز من الزحام، فرفعت كفها إلى جبينها، ونظرت إليه من تحتها هنيهة، ثم صاحت: هو هو، لا ريب، بعينه. مرحبًا بك في جوارك عائدًا إليه بعد حين، أيها الجار الكريم، أين كنت طوال هذه السنين العشرين؟!

وعرفت قصة «ريب» على الأثر، فما كانت السنون العشرون لديه إلا كليلة واحدة، وفتح الجيران حماليقهم حين سمعوها، وجعل بعضهم يغمز لبعض، ويديرون ألسنتهم في أشداقهم، أما الرجل الخطير المزهو الذي عاد إلى المكان عقب هدوء الحال وانفثاء الروع، فقد زم فاه، وهز رأسه، وتبعه الجمع فهزوا رءوسهم مقتدين به.

وعولوا بعد على الرجوع إلى «بيتر فاندر دونك» الذي شوهد تلك الساعة مصعدًا في الشارع، وكان سليل المؤرخ المعروف بهذا الاسم، وأقدم سكان القرية، وله إلمام واف

بعجائبها ونوادر أنبائها ... عرف «ريب» لساعته، فأَوَّلَ لهم قصته على أحسن الوجوه، مؤكدًا لهم بالرواية عن سلف المؤرخ أن جبال كاتسكال كانت على الدوام مزار الغريب من الأطياف والأشباح، وإن «هنريك هدسون» العظيم أول مَنْ كشف النهر الذي سُمِّيَ باسمه، كان يغبها للحراسة كل عشرين سنة مع النواتية من سفينة الهلال، فتهيأت له الفرصة لغشيان ميدان مساعيه الأولى، وتعهد «النهر» الكبير برعايته، وإن والده قد بصر بتلك الأطياف في أكسيتهم الهولندية، يلعبون لعبتهم إلى جانب فجوة الجبل، وأنه هو نفسه قد سمع دوي كراتهم وهي كالرعد المجلجل من بعيد ...

والخلاصة الوجيزة أن الجمع قد انفض، وعاد إلى ما هو أجد وأجدى من شواغل الانتخاب، وأخذت بنت «ريب» أباها ليعيش معها في كِنِّها الأنيق حيث تقيم وزوجها الفلاح المرح القوي، وقد تذكره «ريب»؛ إذ كان واحدًا من أولئك الأطفال الذين عودهم أن يتسنموا ظهره. أما وريثه وابنه الذي شوهد مستندًا إلى الشجرة وكان نسخة منه، فقد كلفوه العمل في المزرعة، فجرى على دأب أبيه، وطفق يولي عنايته كل شيء إلا عمله ...

وقد عاد ريب إلى جولاته وعاداته، ولم يلبث أن عثر بطائفة من صحابته الأقدمين، إلا أنهم قد أبلاهم الزمن وجارت عليهم السن، فآثر صحبة الجيل الناشئ على صحبتهم، ولم ينقضِ غير قليل حتى ظفر بالحظوة بين أبناء هذا الجيل الجديد.

ولما كان خلوًّا من الشواغل في البيت، وكان قد بلغ السن التي تبيح لصاحبها أن يركن إلى الكسل غير ملوم، فقد اتخذ مكانه مرةً أخرى إلى جوار الخان، وأُحيط هنالك بالتوقير والإجلال على اعتباره شيخًا من شيوخ القرية الأجلاء، وسجلًّا لأخبارها قبل أيام الحرب، وظل برهة ريثما استطاع أن يتابع الأحاديث عن تلك الوقائع التي غبرت في سنوات رقاده! فعلم كيف ثارت البلاد على إنجلترا وخلعت نيرها، وكيف أنه أصبح مواطنًا حرًّا من أبناء الولايات المتحدة، ولم يعد رعية خاضعًا لصاحب الجلالة «جورج» الثالث.

وواقع الأمر أن «ريب» لم يكن من أهل السياسة، ولم يكن تبدُّل الدول والعروش مِمَّا يعنيه، وإنما كان هناك سلطان مطلق ظل يشكوه ويئنُّ من طغيانه عليه، وذلك هو سلطان المرأة، ولكنه قد نجا منه بحمد الله، وخلص عنقه من نير الحياة الزوجية، وأصبح قادرًا على الطواف حيث شاء، غير متهيب لسطوة السيدة «فان ونكل»! على أنه كان إذا سمع اسمها حرك رأسه، وهز كتفيه، وأرخى بصره، ولا يدري مَنْ يراه أذاك منه علامة استسلام لقدره، أو علامة اغتباط بخلاصه؟

وراح يروي قصته لكل طارئ على خان مستر «دولتل»، ولوحظ عليه أنه يتصرف في سرد بعض الأخبار كل مرة، لعله كان متأثرًا بقرب عهده بالسبات، ثم صقلها أخيرًا على

صيغة واحدة، هي هذه الصيغة التي نرويها، فلم يبقَ رجل أو امرأة أو طفل في الجيرة إلا وقد حفظها واستظهرها ... وكان منهم مَنْ يبدي شكوكه فيها ويحسب أن «ريب» مخامر في عقله، وأن هذه القصة إحدى فلتاته! إلا أن السكان الهولنديين الأقدمين كانوا مجمعين على تصديقها والثقة بصحتها، ولم يزالوا حتى اليوم كلما سمعوا قصف الرعود أصيل يوم من أيام الصيف على جبال كاتسكل قالوا: ذاك «هنريك هدسون ونواتيته» يلعبون لعبة الأوتاد التسعة ... ويتمنى منهم كل مبتلى بزوجة سليطة لو تُتاح له جرعة من باطية «فان ونكل»!

(٢) إدجار ألان بو ١٨٠٩–١٨٤٩

شاعر، ناقد، قاصٌّ.

يتفق النقاد على ملكاته الشعرية والنقدية والقصصية، ولكنهم يختلفون في ترتيب نصيبه منها، فيحسبه بعضهم شاعرًا قبل كل شيء، ويحسبه الآخرون ناقدًا قبل كل شيء، والأكثرون على أنه أستاذ في القصة القصيرة، وأن أثره فيها أكبر الآثار، والمعترفون له بهذه المزية معظمهم من الفرنسيين ذوي الشهرة العالمية.

ترجم «بودلير» نثره، وسمَّاه الرائد الأول في القارة الأوروبية، وترجم «مالرميه» شعره ونشر آراءه ومقاييسه في صناعة النقد وفي الأدب عامة، وقال «فاليري» عنه: إنه «خَلَّاق صور»، وعدَّد من الصورة الأدبية التي خلقها: صورة القصة البوليسية، وصورة القصة العلمية، وصورة الشعر الكوني الحديث، يعني بذلك ملحمته التي نظمها بعنوان «وجدتها».

ومن خصائص فنه حب الغريب أو حب الأغراب، ومن ذلك ولعه بالشرق، واختياره العناوين الإسلامية لقصائده، كعنوان إسرافيل والأعراف، ونظمه في سيرة تيمور لنك، ولهجه بالصوفية الشرقية على الإجمال.

وإلى جانب الولع بالإغراب، ولع بالمزعجات والنوافر، وإلحاح على نوازع النقمة أو الانتقام ... ويلاحظ في قصتيه المترجمتين هنا أن النقمة هي المحور المهم الذي تدوران عليه دون الإشارة إلى الإساءة أو التِّرَة التي أوجبتها، كأنها تعبر عن شعور ناقم بمعزل عن الحوادث والجرائر، ويظن أن مرجع هذا الشعور فيه إلى نشأته المضطربة، ومعيشته السيئة، وعثرات الجد التي لازمته من طفولته، وأضاف إليها هو جناياته على نفسه بالإدمان والمقامرة وقلة الانتظام في عمل من الأعمال!

كان مولده في بوسطون (١٩ من يناير سنة ١٨٠٩) من أبوين ممثلين، يعملان في فرقة جوالة، وماتت أمه وهو في الثانية، ومات أبوه وهو لم يبلغ الرابعة، فتبناه رجل عقيم على حظ من اليسار والطيبة، يُسَمَّى «جون ألان» وباسمه تَسَمَّى بقية حياته.

وانتقل ألان — ومعه الطفل — إلى إنجلترا، فأحسن تعليمه بالمدرسة الابتدائية، ثم عاد إلى أمريكا فأدخله مدرسة راقية في ريشموند، ثم دخل جامعة فرجينيا وبلغ سن الفتوة، فتجسمت الفوارق بين مزاجه الفني الخيالي ومزاج وليِّ أمره العملي الواقعي، وزاد الفجوةَ بينهما أن وليَّ أمره قرَّر حرمانه من تركته، ورفض تسديد دينه في القمار … وبعد فترة من الجفاء والوفاق بينه وبين وليِّ أمره لحق بالجيش، وتقدم فيه، ثم تعمد سوء السلوك لِيُفْصل منه، فتقرَّر فصله، وتزوج قريبة له في نحو الرابعة عشرة، فلم تعمر طويلًا، ورثاها بقصيدة من خيرة شعره.

وقد ظهرت له دواوين شعرية وقصص منظومة ومنثورة وهو في نحو العشرين، وعمل في الصحافة فلم ينجح، ولم تحسن العلاقة بينه وبين شركائه فيها، ولكنه أحرز بعض الجوائز في الصحف السيارة وشاعت له شهرة ملحوظة جاوزت حدود الإقليم.

وخليق بهذه الحياة القلقة أن تطوي النفس على النقمة والمرارة، ولكن الاحتراس واجب من أقوال مترجميه الذين جمعوا ترجمته من أوراقه، وبخاصة ترجمة «ريونس جريسولد» الذي أفرط في الإنحاء عليه، وثبت من تعقيب الكاتب الإنجليزي «إنجرام» أنه افترى عليه في مزاعم كثيرة تَبَيَّن بطلانها بالدليل القاطع.

توفي ولم يكد يجاوز الأربعين، نزيلًا بأحد المستشفيات، في السابع من شهر أكتوبر سنة ١٨٤٩.

وَمِمَّا لا خلاف عليه أنه رسم للقصة الصغيرة خطوطًا مميزة عُرفت بها طريقته في اللغة الإنجليزية وسائر اللغات الغربية، وامتاز باستقلاله في هذه الطريقة، وعلى وفرة اطلاعه ومحصوله من القراءة في الآداب العالمية، ولا شك أنه استفاد من ديكنز وبروننج، كما استفاد من «هوفمان» الألماني، ولكن صبغته في كتابة القصة القصيرة لا تلتبس بصبغة أخرى.

أَمَّا قصتاه المترجمتان هنا فهما مِمَّا نُشِرَ في المجاميع المختارة، وقد نُشرت قصة باطية النبيذ وهو في الخامسة والثلاثين، ونُشرت قصة الخطاب المفقود قبل ذلك بسنة، فهما من فنه الناضج الذي ارتضاه وفقًا لشرطه في القصة وفي الكتابة الأدبية.

الخطاب المفقود لإدجار ألان بو

ما من معرفة أهون من أن تعرف.

سنيكا

في باريس غب مساء مظلم عاصف من خريف عام ١٨، كنت أنا وصديقي س. «أوجست دوبان» ننعم براحة مزدوجة من التأمل والتدخين في مكتبته الصغيرة، أو صومعة كتبه، على الدور الثالث من المنزل ٣٣ بحي سان جرمان، وقد خيم علينا الصمت زهاء ساعة، وكان يخيل للناظر إلينا أننا منصرفان بكل تفكيرنا إلى سحائب الدخان التي تحلق في أنحاء الحجرة، على أنني كنت أعمل التفكير في مسألة خاصة كانت مدار أخذ ورد بيني وبين صديقي أول المساء: تلك هي الحادث الذي وقع في شارع مورج، وما أحاط قضية مقتل «ماري روجيه» من الغموض ... وكان غالب الظن عندي أن هذا الحادث إنما وقع عرضًا ... فإننا لكذلك إذا بالباب قد فُتح على مصراعيه دفعة واحدة! ودخل منه صديقنا مسيو ج. رئيس الشرطة بباريس ... رحبنا بمقدمه كل الترحيب، إذ كان في الرجل من دواعي الترحيب بمقدار ما فيه من دواعي الازدراء. وقد مضى على آخر عهدنا به سنوات كنا نجلس في الظلام، فهمَّ «دوبان» أن يوقد المصباح، ولكنه عاد فجلس مكانه حين ابتدره ج. بأنه إنما قدم ليستشيرنا أو ليأخذ رأي صديقي على الأقل في مسألة من أعمال الإدارة جرَّتْ إلى كثير من المتاعب!

قال دوبان وقد عدل عن إيقاد المصباح: إذا كان هناك أمر يحتاج إلى إعمال الرويَّة فيحسن أن نبحثه في الظلماء.

قال رئيس الشرطة: وتلك إحدى بدواتك.

وكان يدعو كل شيء لا يدركه بدوة أو نزوة؛ حتى عاش وهو محوط بعالم من البدوات والنزوات.

قال دوبان: هذا صحيح!

وقدم لصاحبه «بيبة»،[٢] ودفع إليه كرسيًّا، وسألت: وما هي الصعوبة التي بقيت أمامكم الآن؟ إن طريقة القتل كما أظن لم يبقَ فيها خفاء.

[٢] البيبة: هي القصبة التي تستخدم للتدخين، ونحن نفضل تعريبها بلفظها.

قال: كلا! لا شيء من هذا، إن الأمر جد بسيط.

ولم يخامرني الشك في أننا نستطيع أن نتدبره بأنفسنا بِما يكفي، ولكني قلت: قد يكون دوبان يريد أن يسمع تفاصيل الموضوع، لأنها من الأسرار العجيبة في بابها.

قال «دوبان»: إنها بسيطة وعجيبة حقًّا!

والسبب الذي لا سبب غيره، ومدار حيرتنا أن المسألة على ما بها من البساطة قد حيرتنا جميعًا!

قال صديقي: إن بساطة الأمر هي التي تقودك إلى الخطأ.

وقال رئيس الشرطة وهو يغرق في الضحك: ما هذا اللغو الذي تقوله؟ يا إله السموات! مَنْ سمع في حياته مثل هذا الرأي!

– هذا أمر بسيط لا يحتاج إلى برهان!

وقهقه زائرنا من أعماق قلبه وقال: ها ها ها، إنك موشك أن تخنقني بحذلقتك هذه!

قلت: وعلى هذا ما هي جلية الأمر؟

وأجاب رئيس الشرطة، وهو يضحك ضحكة طويلة في هدوء وتفكير بعد أن جلس على كرسيه: سأخبرك في كلمات وجيزة، ولكن قبل أن أبدأ حديثي ينبغي أن أنبهكم إلى إحاطة كل ما يقال بالكتمان … إن وظيفتي لعلى خطر إذا اتضح أنني أفضيت بهذا الأمر إلى إنسان كائنًا مَنْ كان!

قلت: إذن هات ما لديك؟

وقال «دوبان»: أوَ لا تقول ما لديك؟

– إذن أقول: «إنني قد تلقيت أنباء خاصة من جهة عليا بأن وثيقة خطيرة الشأن قد اختلست من القصور الملكية، والرجل الذي اختلسها معروف ما في ذلك شك، وقد شوهد وهو يأخذها، ومعروف كذلك أنها لا تزال في حوزته!»

قال «دوبان» مسائلًا: وكيف عُرِف ذلك؟

أجاب رئيس الشرطة: لقد استبان ذلك بوضوح من مزية الوثيقة، وأنها لو خرجت من يد السارق لظهرت لذلك نتائج مقدرة، أو استبان ذلك من استخدامه إياها فيما قصد إليه باختلاسها.

قلت: زدنا إيضاحًا؟

– إنني أستطيع أن أقرر أن تلك الوثيقة تخول حاملها نفوذًا لدى جهة معينة، للنفوذ عليها منافع جليلة.

وكان دأب صاحبنا أن يصطنع شيئًا من اللباقة في حديثه!

قال «دوبان»: إنني إلى الآن لم أفهم حق الفهم.

– كلا! إن إفشاء أمر هذه الوثيقة إلى شخص ثالث لسنا في حل من ذكره يعرض للشبهات سمعة ذات سامية، ومن شأن هذا أن يمكن حامل الوثيقة من السيطرة على الذات السامية التي يهدد سلامتها وشرفها.

وقلت مقاطعًا: ولكن هذا النفوذ لا بد أن يعتمد على شيء، وهو أن يعرف سارق الوثيقة أن المسروق يعلم مَنْ هو.

قال ج: إن اللص هو الوزير د. الذي يقدم على ما يليق وما لا يليق، وقد كان في طريقة اختلاسه نصيب من الجرأة لا يقل عن نصيبها من البراعة، والوثيقة التي نبحث عنها صراحة هي خطاب وصل إلى «الذات» السامية، وهي وحدها في الجناح الملكي، وقد فوجئت إذ كانت تتصفحه بدخول مَنْ تود إخفاءه عنه، وبعد أن حاولت عبثًا في عجلة وارتباك أن تلقي به في الصوان، اضْطُرت أن تضعه أمامها على المائدة، وكان العنوان ظاهرًا عليه، فلم يلتفت إلى الخطاب لخفاء ما كان ينطوي في داخله، خلال ذلك دخل الوزير د. والتقطت عيناه الثاقبتان تلك الورقة توًّا، وأدركنا الخط المكتوب على عنوان الخطاب، كما أدركنا ارتباك الذات المُوَجَّه إليها العنوان، وبادر الوزير يؤدي بعض الأعمال وكأنه في حالة طبيعية، ثم أخرج خطابًا مماثلًا وفَضَّ غلافه، واصطنع قراءته، ووضعه محاذيًا أحدهما الآخر، وأخذ يتحدث في الشئون العامة هنيهة، فلما أراد أن ينصرف التقط الخطاب من فوق المائدة دون اكتراث، وقد رأت صاحبة الخطاب ذلك، ولم تستطع بالطبع أن تبدي أي اهتمام في حضرة الشخص الثالث الذي ظل تحت مرفقها، وذهب الوزير وقد ترك خطابه الذي لا خطر له على المائدة!

وهنا قال «دوبان» وهذا ما تفهم منه كيف تتم السيطرة، وهو علم المختلس بأن فاقد الخطاب يعرف مَنْ هو!

قال رئيس الشرطة: أجل، وإن هذا النفوذ الذي اكتسب منذ بضعة أشهر قد استغل استغلالًا سياسيًّا غير مأمون، وكانت الذات المسروقة تزداد يقينًا كل يوم بوجوب استخلاص ذلك الخطاب، وليس ذلك بميسور علانية، ومن ثَمَّ ساقها اليأس إلى مكاشفتي بالأمر.

قال «دوبان» وهو محاط بدوامة من الدخان: إنك خير مَنْ يُعتمد عليه في مثل هذا الأمر!

قال رئيس الشرطة: إنك لتتملقني! ربما خطر على البال شيء من هذا القبيل.

وقلت: من الواضح — كما ترى — أن الخطاب لا يزال في حوزة الوزير، وهذا ما يخوله النفوذ، وليس استخدام الخطاب، فإذا استُخدم تقلص ذلك النفوذ بمجرد استخدامه!

قال ج: أجل، وقد سرت وأنا مقتنع بهذا الرأي، وكان أول همي أن أبحث في الفندق الذي يقيم فيه الوزير، وكان موضع الحيرة في هذا الشأن هو أن البحث لا بد أن يحدث دون أن يصل إلى علمه، ولقد حذرت من النتائج السيئة التي تقع إذا فتحنا أمامه ثغرة للشك في حسن قصدنا.

قلت: ولكنك تسير على غرار غيرك في مباحثك ... إن الشحنة الباريسية طالما سارت على هذا الأسلوب.

– أجل، ومن أجل هذا لم أيأس، وقد ساعدني ما اعتاده الوزير من التخلف طوال الليل، وأن خدمه الكثيرين ينامون على بعد من مخدعه، وكثيرًا ما يدركهم النعاس وهم ثملون، شأن أمثالهم من أبناء وطنهم، وإن لدي كما تعلم مفاتيح لا عدد لها، وأستطيع معها أن أفتح أي حجرة أو مكان في أنحاء باريس، ولقد سلخت في البحث والتقصي ثلاثة أشهر، لم تمضِ منها ليلة واحدة لم أقتفِ فيها أثره، وإن اهتمامي الخاص بهذا الأمر يتعلق بكرامتي، ويتصل بِسِرٍّ كبير لا أخفيه عنكم، وهو أن المكافأة جزيلة، ولن أدع البحث حتى أومن يقينًا بأنه أحصف مني وأدرى، وإنني لأحسبني فتشت كل ركن يرد على الخاطر أنه يحتوي هذا الخطاب!

وأشرت قائلًا: إن الخطاب ولا شك في حوزة الوزير، ولكن أَلَا يكون قد أخفاه في مكان غير مسكنه؟

وهنا قال دوبان: إن ذلك غير بعيد، وليس مستغربًا من خلائقِ مكرِه ودسائسه المعهودة، فإنه ليحرص على سهولة تقديم الخطاب حرصه على حيازته.

قلت: لعلك تعني احتمال الحصول عليه؟

قال دوبان: أعني احتمال البطش بحامله لانتزاعه.

قلت: هذا صحيح، ومن الواضح أن الورقة لا تعدو أن تكون في مسكنه، أمَّا أن الوزير نفسه يحملها فاحتمال يجب أن نخرجه من حسابنا!

قال رئيس الشرطة: لقد ترصدنا له مرتين، وتربصنا كما يتربص قُطاع الطرق، وقد فتشناه شخصًا، وكان تفتيشه دقيقًا، وألحفنا غاية الإلحاف في تقليب جيوبه وملابسه.

قال دوبان: لعلك تجشمت كل هذه المتاعب على غير جدوى! إن مَكْرَه ليس بالهين الساذج كما أعتقد، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يتوقع هذا، كأنه أمر واقع لا محالة.

قال ج: إنه لم يكن أحمق ألبتة، لكنه شاعر، وهذه مرحلة قريبة من الحماقة.

قال دوبان وقد تناول نفسًا طويلًا من «بيبته»: أجل وأنا نفسي قد شُغلت زمنًا بنظم مقطوعات متواضعة من الشعر!

قلت: فكر في أن تقص علينا تفاصيل بحثك.

– إننا في الواقع قد صرفنا وقتنا وبحثنا في كل منطقة، وقد فتشت البناء حجرة حجرة! وخصصت لكل حجرة أسبوعًا كاملًا ... بحثت أثاث كل شقة، وفتحت كل صوان، ولعلكم تعرفون كيف يتم ذلك على يد رجل خبير مثلي، ولقد يخطر على بال أحد أننا يتعذر علينا أن نفتح خزانة سرية، إن مَنْ يخطر بباله مثل هذا الخاطر لا يفقه شيئًا؛ إذ الأمر سهل، ولدينا عدد كبير من المفاتيح لشتى الأماكن، ولنا طرق دقيقة في البحث حتى لا يعدونا جزء من خمسين ممَّا يعرض علينا، أو يفلت من أيدينا، وبعد أن أتممنا البحث في الخزائن تناولنا الكراسي والوسائد نتفحصها بالإبرة الطويلة التي رأيتموني أستعملها أمامكم ورفعنا أغطية الموائد ...

– لماذا؟

– إن مَنْ يريد أن يخفي شيئًا قد يرفع أغطية الموائد وما شاكلها من الأثاث ليخفي تحتها ما يريد، فتثقب رجل المائدة، ويوضع الشيء الذي يراد إخفاؤه داخل الثقب، ثم يوضع الجزء الأعلى فوقه، وكذلك الشأن في أعمدة الأسرة.

قلت مسائلًا: ألا يمكن أن تعرف الثقوب برنين الصوت؟

– إن ذلك لا يمكن إذا حُشي جوفها قطنًا، وفي حالتنا هذه كان علينا أن نخرج كل شيء ولا نحدث صوتًا.

– ولكنك لم تصل إلى شيء ببحثك، فأنت لا تستطيع أن تمزق كل قطعة من الأثاث!

– كلا، لا شك، ولكننا عملنا خيرًا من هذا، لقد فحصنا أرجل الكراسي التي بالفندق جميعها، والقطع التي تتصل بها بمجهر قوي، فإذا ظهرت لنا إشارات تدل على تغيرات حادثة، لم نعجز عن إدراكها في الحال، وإن مقدار ذرة ممَّا يترك على الثقوب ليبدو في حجم التفاحة، أعني أن أية ثغرة غير طبيعية كافية لاكتشاف ما وراءها.

– أظنك بحثت وراء المرايا والألواح والأطباق، وبحثت وراء الأسرة والحشايا وسائر البسط؟

– بطبيعة الحال، ولما انتهينا من فحص كل قطعة من الأثاث على هذا النحو، فتشنا المنزل نفسه وقسمنا سقفه إلى أجزاء، ووضعنا له أرقامًا حتى لا تعدونا واحدة منها، ثم بحثنا قيد كل أنملة في سائر المساكن بالمجهر، ومنها المنزلان الملاصقان كما قدمت.

قلت مسائلًا: المنزلان الملاصقان؟! لا بد أنك عانيت كثيرًا في بحثك؟

– أجل عانينا، ولكن الجزاء جزيل على هذا العناء.

– وهل اشتمل بحثك الأرض التي حول المنازل؟

– إن تلك الأرض جميعها مرصوفة بالحجارة، وقد كان العناء فيها أشد وأصعب، وتناول البحث كل ما حولها حتى الطحلب الذي يكمن بين الحجارة، ووجدنا أنها لم تمس.

– وبطبيعة الحال فتشت أوراق درسه، والكتب التي تحويها مكتبته؟

– لا شك في ذلك، لقد بحثنا كل مجموعة وكل رسالة منها، ولم نكتفِ بفحص كل كتاب، بل قلبنا كل صفحة من كل جزء ولم نقصر بحثنا على بعض الأجزاء، كما يفعل بعض أناس من رجال الشرطة، وكذلك قسمنا سمك كل غلاف من أغلفة الكتب بكل دقة، وفحصنا كل ما فيها بالمجهر فحصًا دقيقًا، ولم يكن يعزب عن ملاحظتنا أثر المساس بغلاف منها أو كعب لو حصل شيء من ذلك، وكان مِمَّا تناولناه خمسة كتب أو ستة كانت واردة حديثًا من عند مجلد الكتب، ففحصنا أطرافها بالإبرة بعناية فائقة.

– هل بحثت وراء البلاط الذي تحت البسط؟

– بلا شك، لقد رفعنا كل بساط وفحصنا كل لوح بالمجهر.

– والأوراق الموضوعة على الجدران؟

– أجل!

قلت: إذن لقد أخطأت في بحثك، وليس الخطاب في المسكن كما تظن!

قال رئيس الشرطة: أخشى أن تكون على صواب في قولك، والآن بماذا تنصحني؟

– أن تبحث المساكن بحثًا كاملًا.

قال ج: هذا أمر لا حاجة إليه على الإطلاق، إنني لا أثق بأنني حي أتنسم أنفاس الحياة قدر ثقتي بأن الخطاب لا وجود له بالفندق!

قال دوبان: ليس لدي نصيحة خيرًا ممَّا قدمت، إن لديك ولا شك وصفًا دقيقًا للخطاب!

قال: أجل!

وهنا أخرج رئيس الشرطة مفكرة، وأخذ يقرأ بصوت مرتفع وصفًا دقيقًا للخطاب المفقود، ومظهره الخارجي بصفة خاصة، ثم انصرف عنا وهو مكتئب على نحو لم أعهده في هذا الرجل البشوش من قبل!

وبعد شهر على التقريب من هذه الزيارة، جاءنا مرة أخرى، ووجدَنا على مثل حالنا من قبل، وأخذ بيديه كرسيًّا، ودخل معنا في حديث مألوف.

قلت: ولكن ماذا تم في شأن الخطاب المسروق يا ج. أظنك اهتديت أخيرًا إلى أن الوزير لا يحمله.

– لعنة الله عليه ... لقد أعدت البحث كما أشار «دوبان» وعبثًا كما توقعت!

وسأل «دوبان»: وما مقدار المكافأة المخصصة لهذا العمل؟

– وكيف؟ إنها مكافأة جزيلة، ولا أريد أن أذكر كم هي، ولكن أمرًا لا حرج من ذكره، وهو أنني لا أبالي أن أسلم تحويلًا من عندي بمبلغ ٥٠ ألف فرنك لِمَنْ يقدم هذا الخطاب، إن الأمر تزداد أهميته يومًا عن يوم، وقد تضاعفت المكافأة أخيرًا، ولو بلغت ثلاثة أضعافها فما أنا بقادر عل غير ما فعلت.

قال «دوبان» وهو ينفخ دخان بيبته: إنني أعتقد حقًّا أنك لم تبذل كل ما لديك من جهد، وإنك لفي وسعك أن تبذل مزيدًا من جهدك.

– وكيف ذلك؟ وبأي وسيلة؟

– كيف ذلك وبأي وسيلة؟

– اتخذ لك مستشارًا! أتذكر القصة التي يروونها عن «إبرنش»؟

– كلا! لا كان هذا «الإبرنش»!

– نعم، لا كان، ولكن كان ذات مرة أن رجلًا بخيلًا من الأثرياء أراد أن يستخلص رأيًا طبيًّا من «إبرنش» وأعد لهذا الغرض حديثًا من الأحاديث المألوفة في بعض مجالسه، وعرض حاله على الطبيب كأنه يروي قصة ويتخيلها.

قال البخيل: لنفرض أن الأعراض التي تنتابه كانت كذا وكذا، ماذا نصف لعلاجه؟

قال «إبرنش»: يستشير طبيبًا ولا شك!

قال رئيس الشرطة في شيء من الحيرة: إنني لراغب كل الرغبة في الاستشارة وأجزيها أوفى جزاء، وإنني لأعطي خمسين ألف فرنك لِمَنْ يساعدني في هذه المهمة، وأجاب «دوبان» وهو يفتح صوانًا ويخرج منه دفتره: إذن يمكنك أن تكتب تحويلًا بالمبلغ الذي تشير إليه، وسأسلمك الخطاب على أثر توقيعك على التحويل!

وتملكني العجب، أما رئيس الشرطة فقد صعق تمامًا! وظل صامتًا لا يتحرك وهو ينظر إلى صاحبي مستريبًا، وقد فغر فاه وحملق فيه بعينين كأنما تريدان أن تشبا من محاجرهما، فلما تمالك نفسه قليلًا أمسك بالقلم وتردد، ثم كتب التحويل ووقعه

بخمسين ألف فرنك، وناوله من فوق المائدة إلى «دوبان»، وتفحص الأخير التحويل جيدًا، ثم وضعه في محفظته، وفتح خزانته وأخرج منها خطابًا وأسلمه إلى رئيس الشرطة، فأخذ هذا يفحصه بسرور بالغ، وفتحه ويداه ترتجفان، ثم ألقى نظرة سريعة على فحواه، وانسل إلى الباب، واندفع أخيرًا من الحجرة ومن المنزل، غير عابئ بما ينبغي من واجب التحية والتوديع، ولم يفه بكلمة واحدة منذ طلب إليه «دوبان» أن يوقع التحويل؛ وإذ غادرنا أخذ دوبان يشرح لي بعض التفسيرات.

قال: إن رجال الشحنة الباريسيين لهم براعتهم فيما يتبعون من الطرق والأساليب، وإن لهم فطنة في الملاحظة واحتيالًا على معالجة الأمور، ولهم العبقرية والبراعة التي يستلزمها هذا العمل.

فلما شرح لنا ج. طريقته في التنقيب وراء د. أيقنت تمامًا أنه استوفى البحث في حدود ما يفهمه ويقدره.

قلت: في حدود ما يفهمه ويقدره؟

قال «دوبان»: أجل إن الإجراءات التي اتُّبِعت لم تكن فذة في نوعها فحسب، بل لقد بلغت غاية الكمال، فإذا كان الخطاب مدسوسًا في الحيز الذي يجري فيه تنقيبهم فإنهم لا شك واجدوه.

وقابلت ذلك القول بالابتسام، إلا أنه ظهر لي أنه جاد فيما يقول واستمر قائلًا: إذن كانت الإجراءات قيمة في بابها، وقد عني بتنفيذها أشد عناية، أما العيب فإنما يأتي من إغفال طبيعة الرجل وإغفال دخائل هذه الحالة بصفة خاصة؛ إن التدابير التي يتبعها رئيس الشرطة تجري مجراها المرسوم بغير اختلاف، وإنما يعروه الخطأ لفرط تعمقه واستقصائه، مما يسلم منه تلميذ مبتدئ لا يلجأ في تفكيره إلى مثل هذا التعمق، وقد عرفت طفلًا في الثامنة من عمره نجح نجاحًا أعجب الملأ في لعبة «الزوج والفرد»! وأنت تعلم أنها لعبة ساذجة تدور على أن يخفي اللاعب كرات صغيرة، ويسأل الآخر: زوج أو فرد؟ فإذا كان الحدس صحيحًا فإن صاحبه يربح، وإذا كان خطأ فإنه يفقد واحدة، أما الصبي الذي نال إعجابي فقد ربح جميع الكرات من تلاميذ المدرسة قاطبة؛ إن هذا الطفل يبني حدسه على مبدأ مقرر يرجع إلى قوة الملاحظة، وتقدير ما لدى خصمه من الذكاء، فإذا كان نده مثلًا غريرًا أبله يرفع يده ويسأل: «زوج أو فرد»؟ ويجيب صاحبنا التلميذ «فرد» ويخسر واحدة، ولكنه يربح في الدورة الثانية؛ لأنه يقول في نفسه إن خصمه الغرير قد جعل العدد زوجًا، وكسب في المرة الأولى، وحسبه من الحيلة على قدر ذكائه أن

يجعل العدد فردًا في المرة التالية، فيقول في نفسه إذن أجيبه «بفرد». يقول ذلك ويربح، فإذا صادفه آخر أذكى من الأول وزن المسألة بهذا الميزان: إن هذا اللاعب سيجد أنني في المرة الأولى أجبته بـ «فرد»، فيقول في نفسه متأثرًا بالمرة الأولى: تغيير بسيط بين الزوج والفرد، كما قدر الغرير الأول، ولكن سيعاوده تفكير آخر وهو أن هذا التغيير جد ساذج، وينتهي عزمه أخيرًا إلى جعلها «زوجًا» كالمرة الأولى، فيهجس في نفسه أن يقول «زوج» ويقول ذلك ويربح، فهذه الطريقة التي يتبعها التلميذ يسميها رفقاؤه حظًّا على ما فيها من التحليل، فهل هي كذلك؟!

قلت: إنها ولا شك دليل على امتياز صاحب هذه التقديرات على زملائه!

– أجل هي كذلك، وقد سألت الصبي: كيف استطاع أن يكشف أسرار هذه الشخصيات بهذه الطريقة التي أدت إلى نجاحه؟ فكان جوابه: إنني حينما أريد أن أزن ما يحوي إنسان من الذكاء أو الغباء، أو الخير أو الشر، أو أعرف ما يجول بخاطره في اللحظة التي أختبره فيها، أجعل تعابير وجهي مماثلة بقدر الإمكان لما يرتسم على وجهه، ثم أنتظر لأرى ما يجول بخلدي من الأفكار والعواطف التي تتفق وتتجاوب مع هذه التعابير!

هذا الجواب الذي ألقاه التلميذ يكمن في أعماق ذلك الدهاء الذي اشتهر به «روشفكول، وبوجيف، ومكيافيلي، وكابا نيللا»!

قلت: وهذه المحاولة من امرئ يريد أن يضع نفسه في موضع خصمه في تسلسل تفكيره، تتوقف — إن صح ما فهمت منك — على صدق قياس التفكير عند ذلك الخصم.

وأجاب «دوبان»: إنها تتوقف في قيمتها العملية على ذلك، وإن رئيس الشرطة ورجاله كثيرًا ما يخفقون؛ لأنهم أول الأمر يغفلون عن هذا القياس، ويفرضون أن الناس جميعًا على غرارهم، وأنهم يحتالون على مثال حيلتهم، إنهم في ذلك على كثير من الحق، فإن ذكاءهم يصف لهم ذكاء العامة وصفًا صادقًا، ولكنهم إذا اختلف تفكير المجرم وتفكيرهم؛ أحبط المجرم عملهم بطبيعة الحال. يحدث هذا إذا ارتفع التفكير عن تفكيرهم، وإذا هبط عن طبقته في كثير من الأحوال، وليس لديهم تصرف في طرق البحث التي يقومون بها، وإنهم ليبذلون كل ما لديهم من جهد عند الضرورة، وحيث تغريهم المكافأة الجزيلة، فيتمادون في اتباع طرقهم البالية، ولن يحيدوا قيد شعرة عن مبادئهم الراسخة. ماذا فعلوا في موضوع د. مثلًا مما يغاير تلك المبادئ؟! ما كل هذا التنقيب، والتعقيب، والاستماع، والبحث بالمجهر، وتقسيم سقف السطح إلى مربعات، وقراريط؟! ماذا في هذا إلا المبالغة

في اتباع مبادئ مرسومة تُطبق على كل فكرة مما تعوده رئيس الشرطة في اضطلاعه زمنًا طويلًا بهذه الشئون، ألا ترى أنه قد اعتقد أن سائر الناس لا يعمدون إلى ثقب الكرسي يخفون به الخطاب فحسب، ولكن على الأقل يتبعون هذه الطريقة في أي جهة أو أي ركن آخر مدفوعين بالفكرة نفسها؟ كذلك إن هذه الطرق في التنقيب عن الأشياء المختفية، إنما هي منطبقة على الحوادث المألوفة من عامة الناس.

إن سائر أحوال الإخفاء يحتمل اكتشافها بهذه الطريقة، ولا يُعتمد في اكتشافها على الذكاء ألبتة، ولكن على العناية والصبر وعزيمة الباحثين، وحيث يكون الأمر له خطر عند رجال السياسة، أو يكون الجزاء عنه جزيلًا، فإن طريقة البحث لن تتغير في جوهرها، وستعرف الآن ما أقصد. حين أقول إن الخطاب المفقود إذا كان قد أُخفي في أي مكان على نمط رئيس الشرطة، فإن اكتشافه أمر لا شك فيه، إن صاحبنا رئيس الشرطة قد ضُلل، وكان أساس تضليله اعتقاده أن الوزير رجل أبله لشهرته بنظم الشعر، وهو يعتقد أن سائر الشعراء مجانين، وإنه في حكمه على الشعراء جميعًا بالجنون لآثم إلى حد الإجرام!

وسألت: ولكن أصحيح أن هذا هو الشاعر؟ إنني أعرف أن هناك أخوين، وكلاهما له شهرة بالأدب، وأعتقد أن الوزير كتب عن علم في نظرية «حساب التكامل» فهو رجل رياضي وليس شاعرًا!

– أنت مخطئ في ظنك، وإنني أعرفه حق المعرفة، إنه يجمع بين الملكتين، فهو شاعر ورياضي معًا، ويستطيع أن يزن الأمور، وإذا اقتصر أمره على أنه رجل رياضي، فلن يستطيع أن يزن الأمر بتاتًا، ومن ثَمَّ يقع في براثن رئيس الشرطة!

قلت: إنك تدهشني بهذه الآراء التي يناقضها كل مَنْ في هذا العالم! إنك لا تنظر بعين الاعتبار إلى الآراء التي هُضمت مدى القرون، ولطالما كان الميزان الرياضي هو الميزان المُرجح في سائر الأحوال منذ آماد بعيدة.

وأجاب دوبان متمثلًا قول شنفور: إنني أراهن على أن كل فكرة عامة يتوارثها الناس ما هي إلا خرافة لاتفاق الناس جميعًا!

– إنني أعتقد أن الرياضيين قد صنعوا غاية ما في الوسع لإذاعة هذا الخطأ ولا يقلل من خطئه والإجماع على صوابه. وأنهم قد أقحموا كلمة التحليل على مصطلحات علم الجبر، وكان الفرنسيون مصدر هذا التضليل، ولكن إذا كان للتعبير شأن يذكر

— أعني إذا كانت الكلمات تستمد قيمتها من مجرد الاستعمال — فالتحليل الذي يوصلنا إليه الجبر أشبه ما يكون بقولنا: إن كلمة الجبر تشمل معنى الإجبار.[٣]

وإن كلمة الرياضة تشمل معنى الصلاة ومعنى اللعب، من قولنا: رياضة الروح ورياضة العدو والسباحة!

قلت: لا شك أن بينك وبين رجال الجبر في باريس ضغينة، ولكن أَتممْ حديثك!

– إنني أنبذ القضايا العقلية التي تبنى على غير المنطق المجرد، ولا أحسب لها أية قيمة، وأعارض النتائج العقلية التي تأتي عن طريق الدراسة الرياضية؛ إن الرياضيات هي علم الشكل والعدد، والتفكير الرياضي ما هو إلا تطبيق للمنطق في حدود الأشكال والأعداد، والخطأ الكبير هو اعتقادنا أن الحقائق التي يسمونها «الجبر المجرد» هي حقائق مطلقة، أو منفصلة عن المحسوسات، وإنه لخطأ فاحش يدهشني أن يشيع هذا الشيوع مع فرض وضوحه. إن المقررات الرياضية ليست حقائق مطلقة، وما صح من وجهة العلاقة بين الشكل والعدد قد يكون باطلًا غاية البطلان من وجهة الأخلاق، ففي هذا العلم — علم الأخلاق — لا يصدق على الحقيقة دائمًا أن يكون الكل مجموع الأجزاء، وكذلك علم الكيميا، لا تصدق هذه القاعدة عليه، فلا يلزم من وجود قيمة مفردة أن تجتمع هذه القيم عند الامتزاج والاتصال، وكم من حقائق رياضية لا تحسب من الحقائق إلا بالنسبة إلى موضوع أو مقدار، ولكن الرياضيين يبنون تفكيرهم على حقائقهم المكتسبة بحكم العادة.

إن بريان يذكر فيما سماه بالأساطير أنواعًا مماثلة لهذا الخطأ حين يقول: إن أساطير الوثنية غير مقبولة، ولكننا مع هذا ننسى هذه الحقيقة ونستخرج منها نتائجها كأنها حقائق قائمة. وهؤلاء علماء الجبر في وثنيتهم العقلية يعتقدون أن الخرافات مقبولة ومصدقة، ولا يستخرجون النتائج سهوًا من الذاكرة، بل عجزًا في التفكير، وأوجز فأقول: إنني ما صادفت الرياضي الصميم الذي يمكن أن يعول عليه في غير الجذور والأشكال.[٤]

وقال دوبان متممًا حديثه: وأنا لا أزيد على أن أضحك من ملاحظاته. إنني أعني أن الوزير لو كان رياضيًّا فحسب لما كان برئيس الشرطة من حاجة إلى أن يمنحني هذه

---

[٣] هذه الكلمات في الأصل ترجع إلى المشابهة بين مادتها في اللاتينية ومادتها في الإنجليزية، وقد غيرناها بما يشابه هذه العلاقة بين المصطلحات العربية.

[٤] هنا معادلة جبرية حذفناها من المتن، ونثبتها هنا للمراجعة: س^{٢} + ١س = ع.

المكافأة. إنني عرفته رياضيًّا وشاعرًا، وكانت أقيستي تلائم مقدرته والظروف التي تحيط به، لقد عرفته رجلًا من رجال البلاط، رجل أحابيل قوي الشكيمة، ومثل هذا الرجل لا يفوته الحذر من أساليب رجال الشحنة ولا يغفل عن الشِّباك التي كانت تُنصب له، وقد برهنت الوقائع على ذلك، ولا شك أنه أدخل في حسابه هذا التنقيب الذي أُجري وقاموا به في مسكنه، وإن غيابه من الفندق الذي أَعدَّه الضابط عونًا له للوصول لغايته، إن هو إلا خدعة كي يدع الفرصة سانحة لرجال الشرطة ليفتشوا ما شاءوا، ويقتنعوا بأن الخطاب ليس هنالك كما اقتنع رئيس الشرطة، ولقد شعرت كذلك بأن سلسلة التفكير التي تعودها الشرطة لا بد قد وردت جميعها على خاطر الوزير، وإنها بلا شك ستقوده إلى نبذ كل طريقة مألوفة للإخفاء والروغان.

ورأيت أنه قمين أن يلجأ إلى البساطة مضطرًا، إن لم يلجأ إليها عفو الخاطر باختياره، وإنك لتذكر كيف أغرب رئيس الشرطة ضاحكًا حينما قلت في مستهل حديثنا: إنه عانى كثيرًا من المتاعب لاكتشاف هذا اللغز الغامض! وما كان قد غمض عليه إلا لأنه واضح غاية الوضوح!

قلت: أجل، وإنني لأعرف كفايته تمامًا، وقد أدركت أنه وقع في حيرة وارتباك!

وواصل دوبان حديثه فقال: إن المحسوسات تفيض بما يشابه غير المحسوسات، ومن هنا كان هنالك مسحة من الحق في تلك القضية الخطابية التي تزعم أن الأمثلة والمجازات ضرورية لتمكين الحجج العقلية وتعزيزها، كضرورتها في تجميل الأوصاف وزخرفتها، ومبدأ القصور الذاتي مثلًا يبدو متشابهًا في عالم الطبيعة وما وراء الطبيعة، وليس هذا المبدأ في الطبيعيات بأصدق منه حين نطبقه على قولنا: إن الجسم الكبير يحتاج لتحريكه إلى جهد أكبر من الجهد الذي يحرك الجرم الصغير، وإنه أصعب دفعًا وتحريكًا من ذاك، ويسري هذا الحكم على حركة العقول الكبيرة والعقول الصغيرة، فإن العقل الكبير على قوته حين يتحرك؛ ليصعب في مبدأ الأمر دفعه إلى الحركة، ألم تلاحظ أي اللافتات أرعى للنظر؟

قلت: إنني لم ألتفت إلى هذا من قبل!

قال: هناك لعبة محيرة تُلعب على الخرائط، وفحواها أن يذكر فريقٌ من اللاعبين كلمة أو اسمًا يقترح الاهتداء إليه ... فالحاذق من اللاعبين يختار أبرز الكلمات والأسماء التي يتخطاها الباحث الجاهل ظنًّا منه أن البحث يستلزم لا محالة أن ينظر في الخفايا والمجهولات!

وكذلك الكلمات الكبيرة المنقوشة على اللافتات، فإنها مما تتخطاه النظرة الأولى إلى ما هو أخفى منها وأحوج إلى الانتباه، وتتشابه في هذا الأمر نظرة البصر ونظرة البصيرة.

وهذا أمر يعلو على متناول رئيس الشرطة كما يظهر، فلم يفكر قط في احتمال وضع الوزير للخطاب معرضًا لأول نظرة.[٥]

فلما اختمرت هذه الأفكار في رأسي تزودت بمنظار أخضر، وتوجهت صباح يوم مشرق إلى الفندق الذي يقيم فيه الوزير، ووجدت د. بمقره يتأفف ويتكاسل ويتباطأ كعادته، ويصطنع أنه في غاية الإعياء، وربما كان أنشط إنسان على وجه الأرض حين ينفرد بنفسه.

ولكي أكون معه على سواء، شكوت ضعف عيني وضرورة وضع منظار عليها، وتحت ستارها تفحصت سائر أنحاء الحجرة، بينما كنت أُظْهِر أنني لا أهتم إلا بحديث مضيفي.

ولقد وجهت انتباهي خاصة إلى مكتب كبير كان يجلس على مقربة منه، وكانت عليه خطابات وأوراق مختلفة موضوعة بطريقة مشوشة مع آلات موسيقية، وكُتبٍ شتى، ولم أجد هنالك ما يلفت النظر.

ثم وقعت عيناي أخيرًا — وهما تتفحصان الحجرة — على صندوق من الورق المُقَوَّى، مِمَّا يُستعمل في وضع البطاقات، يتدلى من خيط أزرق مُعَلَّق في أكرة نحاسية فوق الموقد، ويتألف هذا الصندوق من ثلاث عيون أو أربع، وبداخله خمس بطاقات أو ست، بينها خطاب منعزل … كان هذا الخطاب قذرًا ويعلوه الغبار، ممزقًا من وسطه، كأنما أراد صاحبه أن يمزقه ثم عدل عن ذلك، وكان عليه خاتم كبير أسود يحمل علامة باسم د. ظاهرة لكل مَنْ يراه، وعنوانه مكتوب بخط نسائي دقيق موجه إلى د. الوزير نفسه، ملقى بغير عناية في متناول اليد، ويبدو مهملًا فوق الصندوق.

وأدركت أنه هو الخطاب الذي أبحث عنه عندما ألقيت نظري عليه، ولا ريب أنه كان يبدو في مظاهره مختلفًا تمام الاختلاف عن الخطاب الذي تلا علينا رئيس الشرطة وصفًا دقيقًا له، فهنا الخاتم كبير أسود عليه علامة د. وهذه العلامة كما وصفها حمراء، وعليها السلاحان الملكيان يمثلان أسرة س. وهنا العنوان موجه للوزير بخط نسائي دقيق، بينما

[٥] هنا سطور قد استطرد فيها الكاتب إلى الشرح والتكرار مما يغني عنه ما تقدم في هذا المعنى.

هو في الثاني موجه إلى شخصية ملكية بصورة واضحة المعالم، إلا أنه كان منطبقًا تمام الانطباق من ناحية الحجم فحسب، ولكن هذا الاختلاف الشديد، وهذه القذارة التي لا توافق دأب الوزير في عامة أحواله تشعر بأنه تعمد أن يصرف نظر الباحث عن الاهتمام بهذه الورقة.

وقد أطلت زيارتي عنده وأنا مستغرق في بحث جلل بيني وبين الوزير حول مسألة أعرف أنها لا بد تثير اهتمامه وتهيج خواطره، وكان كل انتباهي في الحقيقة منصبًّا على الخطاب، وقد وضعت في ذاكرتي منظره من الخارج وموضعه من الصندوق، ودفعت عن نفسي آخر الأمر سائر الشكوك والهنات التي ربما كانت تعترض تفكيري في هذا الشأن، وتأملت أطراف الورقة فوجدتها مهلهلة بغير داع، وكأنها من سقط المتاع، وقد طُويت مرة ثم ضُغطت وأُعيد طيها وضغطها من الناحية الأخرى فوق الحروف والخطوط التي طُويت عليها أول مرة … كان هذا الاكتشاف كافيًا! وقد تبيَّنَ لي أن الخطاب قد قُلب من الداخل كما يُقلب القفاز، وأُعيدت تسويته، وخُتم من جديد، وهنا حييت الوزير وانصرفت في الحال، وتركت على المائدة علبة سعوط ذهبية.

وفي صباح اليوم التالي عدت لأطلب العلبة، فاستعدنا الحديث كما بدأناه بالأمس في حرارة واهتمام، وبينما نحن مشغولان على هذا النحو سُمع طلق ناري ينبعث من الخارج تحت نافذة الفندق مباشرة، تلته صرخات فزع متوالية وصيحات من الغوغاء، واندفع د. إلى شرفة ففتحها على مصراعيها ونظر خارج الفندق، وتقدمت إلى صندوق الخطابات وأخذت منه الخطاب ودسسته في جيبي، ووضعت مكانه خطابًا مماثلًا له في مظهره الخارجي، وكنت قد أعددته في مسكني بدقة وعناية، وأحكمت تقليد الخاتم الذي وضعه د. بخاتم مصنوع من الخبز …!

كان الهياج الذي وقع في الشارع قد أثاره رجل مقنع أطلق مقذوفًا ناريًّا بين جمع من النساء والأطفال، ووثب يعدو كأنه مجنون أو سكران، وكان المسدس في الحقيقة لا يحمل رصاصًا، فلما ذهب عاد د. من النافذة التي تَبِعْتُه إليها، ثم أسرعت فودعته، وكان المجنون المزعوم مطلق القذيفة رجلًا من أتباعي.

قلت: وما هو الغرض الذي من أجله وضعت خطابًا مماثلًا للخطاب الأول؟ ألم يكن من المستحسن أن تأخذ الخطاب عنوة عند الزيارة الأولى ثم تنصرف؟

أجاب دوبان: إن د. رجل يائس عصبي المزاج، والفندق الذي ينزل فيه لا يخلو من الخدم يأتمرون بأمره … فإذا هجمت على الخطاب تلك الهجمة التي تقترحها فلا أبرح

حضرة الوزير وأنا بقيد الحياة، واختفى اسمي من ذلك اليوم، فلا يذكره أحد من أفاضل سكان باريس …

إلا أن لي عَدَا هذا وجهة غير الوجهة التي تهم رئيس الشرطة من هذا الخطاب، فإنك تعرف مبادئي السياسية، وإني في هذا الأمر إنما أعمل كرجل مشايع للحزب الذي يناصر تلك السيدة، وإن الوزير قد وضعها تحت سيطرته ثمانية عشر شهرًا ووضعته الآن تحت إمرتها، وإنه ليستمر في سلطانه وعنفه وهو يعتقد أن الخطاب لم يخرج من حوزته إلى الآن، ومن هنا يقيم نفسه بمدرجة الهلاك، ولن يُعد سقوطه متى سقط هوجًا، بل سخفًا وخرقًا. ويحسن هنا أن أردد قول مَنْ قال: «ما أسهل السقوط على مَنْ سقط!» وكما يقول كتلاني في الغناء: «إن الصعود أسهل كثيرًا من الهبوط.» ولست الآن أعطف عليه، أو على الأقل لست أشفق عليه، فهو مثل للعبقري الذي لا يتحرج ولا يتأثم، ولوددت الآن أن أنفذ إلى سريرته لأرى كيف يدور تفكيره حين تتحداه السيدة صاحبة الخطاب، فينكفئ راجعًا إلى موضعه المُخَبَّأ فيه ويعلم أنه قد ضاع!

– وكيف ذلك؟! هل أودعت ذلك الخطاب كلامًا موجهًا إليه؟!

– وكيف لا؟! فلم يكن من اللائق أن أترك داخل الخطاب فارغًا، فهذه إهانة.

لقد أساء إليَّ د. يومًا في فِينَّا، وقلت له كأنني أمزح: سأذكرها لك، وأحسبه سيتشوف إلى العلم بحقيقة الغريم الذي غلبه ذكاء وحيلة، فلم أشأ أن أحرمه من دليل يهديه إلى مفتاح السر؛ فكتبت في وسط الورقة البيضاء هذه الكلمة: «إنه لمصير مشئوم إذا لم يكن جديرًا بأثريوس فهو جدير بثيست.» وهي كلمات قرأتها في رواية كريبييون.[٦]

باطية النبيذ الشريشي «الأمنتيلادو»[٧] لإدجار ألان بو Edgar Allan Poe

صبرت جهد الطاقة على شتى الإساءات من فورشناتو، ولكنه حين اجترأ على إهانتي آليت لأنتقمن منه. إن مَنْ يعرف خلائقي يعرف أنني لا أجهر بتهديدي، ولكنني أدرك ثأري

[٦] كريبييون شاعر فرنسي من مخضرمي القرنين السابع عشر والثامن عشر، أَلَّفَ رواية عن قصة أثريوس وثيست، وهما أخوان من أبطال الأساطير اليونانية، أغرى أحدهما وهو ثيست امرأة أخيه؛ فانتقم هذا بذبح ولده وإطعامه لحمه.

[٧] هو نبيذ خفيف عطري ذهبي اللون، يُصنع بمدينة شريش بجنوب الأندلس، ويوجد منه نوعان: مر وذو غضاضة Amontillado.

آخر الأمر، وهذا أمر مفروغ منه، وإنني لن أقنع بعقاب خصمي، بل أمعن في العقاب، وليس من بلوغ الثأر أن يتعرض صاحبه لأذى وهو ينتقم لنفسه، وليس من بلوغه كذلك أن يجهل غريمه من أين أُصيب.

إنني كما أحب أن يفهم، لم أقل ولم أعمل عملًا يدعو فورشناتو إلى إساءة الظن بمقصدي.

فكنت أَهشُّ في وجهه على عادتي، ولم يكن ليستبين من وراء ابتسامتي أنها تخفي عزيمة القضاء عليه!

كانت في فورشناتو ناحية من نواحي الضعف، وإن كان رجلًا يُبجل ويُخشى بأسه في سائر النواحي الأخرى. وكان يزهى بمعرفته بالنبيذ، وقليل بين الإيطاليين من يتذوق روح الفن الحقة، وإن كان همهم على الدوام أن يتحينوا الفرصة للاحتيال على أصحاب الملايين من الإنجليز والنمسويين.

كان فورشناتو دجالًا في فن التصوير كأبناء وطنه، وإن كان ثقة في فن الأنبذة، وإنني لعلى غراره في هذا الصنف؛ إذ كنت على خبرة بالأنبذة، وكنت أبتاع مقادير كبيرة منها كلما استطعت.

صحبت صديقي هذا مساء ليلة من ليالي «المساخر» الصاخبة، ولاقاني بحرارة بالغة؛ إذ كان مغرقًا في شرابه، وكانت عليه ملابس مختلفة الألوان؛ يلبس حلة مشدودة على جسمه، وعليها شارات الجماعة التي ينتسب إليها، ويضع على رأسه قبعة تتدلى منها جلاجل صغيرة … فهششت للقائه وكدت لا أنتهي من مصافحته أبدًا!

قلت له: إنني جد سعيد بلقائك يا صديقي فورشناتو، إنك تبدو اليوم غاية في حسن الطلعة والأناقة، لقد وقعت يدي على باطية من النبيذ الذي يبيعونه باسم «الأمنتيلادو» وإنني ليخامرني الشك في جودته وأصالته!

قال: وأنَّى لك ذلك؟! باطية من الأمنتيلادو! هذا مستحيل، وفي أيام المساخر أيضًا!

قلت له: إن لي شكوكي، وإنني لغفلتي دفعت فيها ثمنًا باهظًا دون أن أستشيرك، ولكن لم أجدك، وخفت أن تضيع مني الصفقة.

– أمنتيلادو …!

– سأدعك في شغلك هنا وأذهب إلى «لوشيزي» فهو الرجل الوحيد الذي له خبرة بهذا النوع.

– إن لوشيزي لا يميز بين نبيذي شريش[٨] حلوه ومره، وإن كان بعض ذوي الغفلة يظنون أنه يجاريك في المعرفة.

– هلم نذهب ...

– إلى أين؟

– إلى مخابئك.

– كلا يا صديقي، إنني لا أريد أن أثقل عليك، وأنت مرتبط بلقاء لوشيزي.

– لست مرتبطًا بأحد. هلم!

– كلا يا صديقي، ليس الأمر أنك مرتبط بموعد، ولكن هذا البرد الشديد يضايقك، وإن للمخابئ رطوبة لا تُحتمل، وأرضها تنز بالأملاح!

– فلنذهب على أية حال، إن البرد لا يهمني. أمنتيلادو! لقد غُششت فيه، أما لوشيزي فهو لا يميز بين نبيذي شريش!

وأخذ فورشناتو بذراعي وانصرفنا، وكنت أضع على وجهي قناعًا من الحرير الأسود، وأتدثر بمعطف مشدود على جسمي، وسمحت لفورشناتو أن يسرع بي نحو داري.

كان منزلي خاليًا من الخدم، فقد تسللوا إلى أفراح المساخر بالمدينة يسهمون فيها، وقد أخبرتهم بأنني لا أعود قبل الصباح، وإن كنت قد أعطيت أمري بألَّا يتحركوا من المنزل، وإنها لأوامر كافية كما أعلم، إلا أنني أعلم كذلك أنهم سيختفون ساعة أوليهم ظهري!

وأخرجت من أدراجهم مصباحين — شمعدانين — وأعطيت أحدهما لفورشناتو، وقُدْتُه من حجرة إلى أخرى، حتى وصلْنا إلى المدخل الذي يفضي إلى المخابئ، وانحدرت من سلم حلزوني طويل، ودعوته أن ينزل منه بحذر وهو يتبعني، حتى انتهينا إلى آخر الدرج، ووقفنا معًا على الأرض أمام مقابر مونتريزر التي أشبعتها الرطوبة.

وكانت قامة صاحبي تترنح، والجلاجل التي على قبعته تصلصل كلما تحرك.

قال: أين الباطية؟

قلت: ستصل إليها بعد قليل، ولكن عليك أن تحترس من تلك الأنسجة البيضاء التي تلمع من جدران هذه الكهوف!

[٨] نبيذ عطري يُصنع في جنوب إسبانيا وهو من نوعين: Manzanillo, Amontillado الأول حلو، والثاني خفيف فيه غضاضة، وتختلف قوة الكحول به بين ١٧–٢١ درجة.

ثم اتجه نحوي وحملق بعينيه، وحدقتاه تنضحان سكرًا!

وسألني أخيرًا: أهذه أرض ذات أملاح؟!

قلت: أجل، إنها أرض سبخة ذات أملاح، متى نالك هذا السعال؟

وراح يسعل ويسعل، ثم توقف صديقي المسكين، وهو لا يقوى على الإجابة.

ثم قال: لا شيء!

قلت: هلم، وأظهرت العزم على العودة، وقلت: سوف نعود من حيث أتينا. إن صحتك ثمينة، أنت رجل غنيٌّ مبجل محبوب وسعيد، كما كنت أنا يومًا من الأيام، وإنك لتُفتقد إذا ما غبت، أما أنا فلا يؤبه بي. لِنعد أدراجنا، إنك قمين أن تصاب بمرض، وإني غير مسئول إذا ما أصابك شيء من جراء هذا، ثم أمامنا موعدك مع لوشيزي.

قال: كفى، إني لا يهمني السعال أبدًا، سوف لا أموت من السعال.

وأجبته: هذا صحيح! صحيح، والحق أنني لا أريد أن أزعجك بغير جدوى، إلا أنك خليق أن تحذر كما ينبغي، إن جرعة من هذا العقار تقينا رطوبة هذا المكان.

وتناولت زجاجة من الزجاجات الكثيرة المصطفة على الرف وضربت رأسها، ثم قدمت إليه النبيذ وقلت: احتسِ.

ورفعها إلى شفتيه وهو ينظر إليَّ بألفة ومودة، ثم التفت وأشار برأسه والجلاجل تصلصل من فوقها: إنني أشرب في حب هؤلاء الموتى الراقدين من حولنا.

– وأنا أشرب في حياتك الطويلة.

ثم عاد فأخذ بذراعي وانطلقنا.

– إن هذه الكهوف ممتدة إلى بعيد.

وأجبت: إن أسرة مونتريزر كانت كبيرة كثيرة العدد.

– لقد نسيت ذراعيك!

– هذه قدم كبيرة مُذَهَّبة في حقل من اللازورد، تسحق بقايا أفعى تغرس أنيابها في عقبها، تلك شارة القوم.

– وماذا يقول الشعار؟

– كل امرئ يُجزى بما فعلت يداه.

– أجل.

وكان النبيذ يلتمع في عينيه، والجلاجل تصلصل على رأسه، وقد أذكى النبيذ خيالي، وسرنا وسط جدران من العظام المختلطة بالبواطي في كهوف المقابر، ثم وقفت واجترأت، فطويت مرفقه تحت ذراعي!

قلت: انظر، ها هي ذي الأملاح تتراكم وتطفو على الأقبية كأنها الطحلب، ونحن الآن تحت قاع النهر، وقطرات الندى تتساقط على العظام. هلمَّ لنعد قبل أن يفوت الميعاد، ويفتك بك السعال!

قال: كلا، ليس بي شيء، لنستمر في طريقنا، ولكن ناولني قدحًا من الشراب قبل كل شيء.

ففتحت له قنينة من نبيذ الجراف أفرغها في جوفه جرعةً واحدة، وكانت عيناه تشعان بريقًا وحشيًّا، وقهقه وقذف بالزجاجة وهو يشير إشارة لم أفهمها.

نظرت إليه دهشًا، ثم أعاد الحركة مرة ثانية.

قال: ألم تفطن لإشارتي؟!

قلت: كلا!

– إذن لست من الإخوة!

– وكيف ذلك؟!

– لست من البنائين الأحرار!

قلت: بلى، بلى.

قال: أنت؟ كلا، مستحيل!

وأجبت: بل أنا ماسوني.

قال: إذن أبرز العلامة!

قلت: هاك، وأخرجت المسطار من وراء معطفي!

قال: أنت تسخر بي؟

وتراجع خطوات وهو يقول: فلنذهب إلى الباطية.

قلت: ليكن.

وأعدت المسطار تحت عباءتي، وأعدت إليه ذراعي، واستند عليها بقضه وقضيضه، وواصلنا سعينا نبحث عن الأمنتيلادو بين أقباء هابطة، حتى وصلنا إلى سرداب عميق كان فساد الهواء فيه يكاد يطفئ المصباح!

وقد ظهر في نهاية السرداب طريق ضيق، كانت جدرانه محاطة برفات الأجسام البشرية طبقة فوق طبقة إلى السقف على مثال مقابر باريس الكبرى … وكذلك كانت الجوانب الثلاثة من قبو السرداب، أما الجانب الرابع فقد تهافتت عظامه على الأرض، ووجدنا داخل الحائط بمعزل عن العظام مدخلًا آخر عمقه أربع أقدام، وعرضه ثلاث،

وارتفاعه من ست إلى سبع أقدام، وكأن بُناته أعجلوا دون تمامه لأمر من الأمور، ولكنه أُقيم ليصل بين سقفي المقابر، ومن ورائه جدار يحيط به من الحجر الصوان.

لم يستطع فورشناتو أن يرفع نور شعلته لينظر إلى عمق هذا السرداب، ولم يمكنه على ضوئه الضئيل أن يستبين مداه.

وتقدمت منه قائلًا: ها هو ذا الأمنتيلادو، ولا تَقُلْ لصاحبنا لوشيزي.

فقاطعني وهو يترنح في غير اتزان إلى داخل الحفرة، وقال: إن صاحبي لفَدْم جاهل!

وتبعته على الأثر، فبلغ نهاية السرداب في لحظة، ثم وقف عند صخرة وتملكته الدهشة، وفي لحظة أخرى كنت قد قيَّدْتُه بذلك الحجر الصوان، وكانت على سطحه حلقتان بين الواحدة والأخرى قدمان مستويتان في إحداهما سلسلة قصيرة وبالأخرى قفل. لم أستغرق في تطويق خصره بالسلسة بضع ثوان، وهو في ذهول شله عن الحركة، ثم أدرت المفتاح وعدت أدراجي من السرداب.

ناديته: تلمس بيديك الجدران، وإنك لن تنجو من رطوبتها، وإنها لشديدة الرطوبة حقًّا. فدعني أتوسل إليك مرة أخرى أن تعود … ماذا؟ ألا تريد؟! إذن يجب أن أتركك حيث أنت، وسأبذل إليك ما في وسعي من صنوف الرعاية وإنها لقليلة!

وصاح صاحبي، ولما يفق من دهشته: الأمنتيلادو؟!

وأجبت: حقًّا. الأمنتيلادو!

قلت هذا وأنا منصرف إلى العظام أبعدها، وتكشفت عن شيءٍ من الطين وحجر البناء، وبهذه المواد والمسطار الذي معي اندفعت أقيم جدارًا على باب السرداب، وما كدت أضع أول حجر حتى أخذ يفيق من السكر. وكانت بوادر ذلك صوت أنين ينبعث من داخل السرداب، لم يكن صوت رجل تملكه الخمار، وران على المكان صمت طويل، فوضعت الحجر الثاني والثالث والرابع.

وهنا سمعت السلسلة تضطرب اضطرابًا عنيفًا أصغيت إليه بضع دقائق راضيًا قرير العين، ثم انتهيت من عملي، وجلست فوق العظام، فلما سكتت صلصلة الجلاجل والقيود، استعدت المسطار، ووضعت الحجرين الخامس والسادس دون مقاطعة، ووقفت ورفعت الشعلة على رأس البناء، وقد ألقت بصيصًا من الضوء على الهيكل الذي بداخله، وراحت الصرخات تتوالى عارمة هوجاء من فم الرجل المُكبَّل، كأنها تجتذبني من ورائي، فترددت لحظة، ثم استولت عليَّ هزة عنيفة، وجردت سيفي أتحسس به طريق السرداب، فعاودتني الطمأنينة بعد تفكير هنيهة، ووضعت راحتي على جدار البناء المتحجر مستريح الفؤاد!

عدت إلى الحائط، وأنا أحكي صياح ذلك الدفين بصياح مثله، وأردد صداه، بل أساعده على المزيد وأفوقه في شدته، وكدت أنتهي من عملي؛ إذ وضعت الحجر الثامن والتاسع والعاشر، فإذا بقهقهة تنبعث من السرداب منخفضة النبرات، وقف لها شعر رأسي، وتبعها صوت حزين تبينت بجهد جهيد أنه صوت فورشناتو النبيل، كان يقول: ها، ها، ها. إنها لفكاهة طريفة حقًّا، لعبة ناجحة، سنضحك منها كثيرًا عند عودتنا إلى الملهى على مائدة النبيذ ... ها ها، ها ها!

قلت: والأمنتيلادو؟

– هي، هي، هي ... نعم الأمنتيلادو! ولكن ألسنا تأخرنا الآن، أليسوا في انتظارنا في ذلك الحي: السيد فورشناتو، وباقي الجمع، فلنذهب الآن.

– بحق الله، يا مونتريزر!

قلت: أجل، بحق الله!

وأهبت أناديه، وأجيب عن هذه الكلمات، ولكن دون جدوى.

ثم صحت بصوتٍ عالٍ: فورشناتو!

ولم أسمع جوابًا.

– فورشناتو؟!

ولم أظفر بجواب، وقذفت بشعلتي من الكوة الباقية، فلم يجبني غير صليل الجلاجل والقيود، وانقبض صدري من رطوبة المكان، فأسرعت إلى عملي أنجز البقية الباقية منه، ووضعت الحجر الأخير في مكانه، وألقيت عليه وعلى البناء الجديد سورًا من العظام التي بقيت ثمة نصف قرن من الزمان، دون أن تزعجها يد الإنسان.

(٣) مارك توين ١٨٣٥–١٩١٠

كانت رسالة الأدب الأمريكي في القرن التاسع عشر — كما أسلفنا — أن يكشف العالم القديم، وأن يعطي أمريكا أدبها الخاص، وكان مارك توين أحد الأعلام الذين قاموا بأداء هذه الرسالة، فأصبحوا — في مدى حياتهم — من الكُتَّاب القوميين والكُتَّاب العالميين في وقتٍ واحد.

وُلد بالولايات الوسطى، وانتقل مع أبيه إلى الغرب، فعرَف في صباه كثيرًا من أقاليم بلاده، وكان أبوه من أصحاب الخطط و«المشروعات» في طلب الغنى، ولكنه مات فقيرًا وابنه في الثانية عشرة من عمره، فعمل مع أخيه أوريون في صحيفته صفَّافًا ومحررًا

مساعدًا، ثم خرج في طلب الرزق، فعمل في الملاحة وعاهد أمه — ويده على الكتاب المقدس — ألا يمسك بورقة لعب ولا يشربن قطرة خمر. ولما نشبت الحرب الأهلية اشترك فيها، ثم تخلى عنها، ولم يزل يتنقل بين الأقاليم ويزاول العمل بعد العمل حتى انقطع للصحافة والأدب، وساح في البلاد الأوروبية وغيرها، فمارس حياة العصر، عامَّها وخاصَّها، بالمعاينة والتجربة العملية، وحصَّلَ فلسفته لنفسه بالمشاهدة والنظر القريب قبل البحث والاطلاع، ولم يكن نصيبه من البحث والاطلاع مع هذا بالقليل.

وعرفت الجامعات فضله، فوجهت إليه جامعة ييل Yale في سنة ١٨٨٨ لقب أستاذ في الفنون، ثم وجهت إليه جامعة ميسوري لقب دكتور في الآداب، ثم دعته جامعة أكسفورد سنة ١٩٠٧ للاحتفال بمنحه لقب دكتور، فكان احتفالها به مناسبة صالحة لإبراز مكانته العالمية التي لم يُرزقها من أدباء عصره غير أفراد معدودين.

وقد نحيط بشيء من اتساع هذه الشهرة إذا علمنا أن كتابه عن رحلته الخارجية طبع منه مائة ألف نسخة في سنواته الثلاث الأولى، وكان ثمن النسخة منه ثلاثة ريالات ونصف ريال، وأن موسوليني كان أحد أعضاء الجماعة العالمية التي تألَّفت باسمه لدراسة كتبه وترجمتها إلى اللغات الأوروبية!

وقد استقل مارك توين بأسلوبه ومنهجه في التعبير، وساعده على مزج الأسلوب الدارج بالأسلوب الفصيح أنه يكتب للصحافة ويتخلل كتابته بالدعابة، وقد اطلع على طائفة من الكتب المختارة قديمها وحديثها، ولكنه لم يتبع أحدًا من الأقدمين أو المعاصرين اتباع محاكاة وتقليد، وربما اقتبس قليلًا من طريقة دكنز واستفاد كثيرًا من توجيه برت هارت Bert Harte الذي قال عنه إنه: «جعلني أحسن تركيب الجملة وتقسيم الموضوع.» ولكنه قد احتفظ بوحي الطبع والبديهة بعد كل اقتباس وكل توجيه.

وإذا استعرنا لفلسفة مارك توين وصفًا من مصطلحات الرياضة البدنية، جاز أن نقول: «إنه فيلسوف من وزن الريشة.» لأنه يتناول فلسفة الأخلاق، ويعالج مختلف الآراء، بالخفة والسرعة، ولا يثقل على قرائه بالتعمق والاستقصاء، ومجمل فلسفته أنه يَسْخر من الحذلقة حيث كانت، ويهزأ بالنفاق في كل صورة، وهو مع فكاهته وخفته يؤمن بالقداسة والجد، ويعطيهما كل حقهما من الرعاية، كما يُرى من كتابه في سيرة جان دارك، وكتابه عن الفساد الاقتصادي باسم «الرجل الذي أفسد هدلبرج». فليست فكاهته هزلًا «بغير روح» كما يقولون، ولكنها أسلوب من أساليبه في التعبير عن نقائض الحياة.

قال كبلنج عنه ما فحواه: إنه احتجاج على سخافة العصر ونفاقه، وقال عنه هويل Howell إنه «لنكولن الأدب» وهو يعني بذلك أنه مثال «العظيم البسيط» في الثقافة الأمريكية.

اسمه الأصيل صمويل كليمنس، واشتهر باسم «مارك توين» من مصطلحات الملاحة، بمعنى العلامة الثانية، وقصته في هذه المجموعة «الضفدعة النطاطة» هي القصة التي أذاعت شهرته في بلاده، وفيها تصوير لهوس المراهنة الذي لا يستغرب بين قوم يواجهون الغيب، ويقتحمون المجهول، ويودون تجربة الحظ واستطلاع المصير!

وقد وُجدت بين مفكراته المحفوظة في كاليفورنيا ورقة كُتبت عليها هذه الإشارات: «كولمان وضفدعته النطاطة، راهن رجلًا غريبًا على خمسين ريالًا، الرجل الغريب لم تكن له ضفدعة، فأحضر كولمان له واحدة، في أثناء ذلك حشا الرجل الغريب جوف ضفدعة كولمان بالرش، فعجزت عن النط، ربحت ضفدعة الغريب!»

وإلى جانب هذه المفكرة كلمات يقول فيها: «كتب هذه القصة لناشره المغفل، سلمها إلى ستر داي برس ...»

وهذا «التخطيط» عن قصته الصغيرة يدل على عنايته برسم موضوعه، خلافًا لما يظن من إرساله عفو الخاطر بغير روية، وأسلوبه فيها نموذج لطريقته في تشويق قارئه، فقد يشوقه بتزهيده فيما سيقرؤه، فيكون هذا التزهيد أول حافز على التشويق. وقد كانت هذه القصة مع بعض التعليقات أول كتاب ظهر لمارك توين في عالم المطبوعات.

الضفدعة النطاطة المشهورة

تلبية لرغبة صديقي الذي كتب إليَّ من الشرق، ذهبت إلى الرجل الطيب الثرثار الشيخ سيمون هويلر واستقصيت عن صديق صديقي ليونيدا. و. سميلي، كما طلب مني، وهأنذا أروي خلاصة ما علمت: كان يقع في حدسي أن ليونيدا. و. سميلي أسطورة، وأن صديقي لم يعرف قط شخصًا كهذا، وأنه ظن أنني حين أسأل الشيخ هويلر عنه يتذكر هذا فضيحة جيم سميلي، ويشمر عن ساعده ليضجرني ببعض ذكرياته الجهنمية التي فيها من الملالة لي، بمقدار ما فيها من قلة العائدة عليَّ.

لئن كان هذا قصده لقد نجح أيما نجاح!

ألفيت سيمون هويلر يهوم في ارتياح إلى جانب المدفأة في حجرة البار من الخان العتيق: خان محلة التعدين في آنجل، ولحظت أنه بدين أصلع تلوح عليه سِيما الطيبة

الجذابة والبساطة ... فنهض قائمًا وحياني فتمنى لي نهارًا سعيدًا، وأنبأته أن صديقًا لي أوفدني في مهمة السؤال عن بعض الأمور التي لها علاقة برفيق صباه المدعو ليونيداس. و. سميلي ... الأب ليونيداس. و. سميلي، القس الشاب الذي سمع عنه أنه كان يومًا ما مقيمًا بمحلة آنجل.

وأضفت قائلًا: إنه إذا استطاع أن يخبرني بشيء عنه كنت مدينًا له بأكثر من دين.

فقادني سيمون هوبلر إلى زاوية حصرني فيها بكرسيه، وبعد أن أجلسني فرط شريط هذه القصة الرتيبة التي تعقب هذه العبارة؛ لم يبتسم قط، ولم يعبس قط، ولم يغير قط نبرة صوته من اللهجة التي استهل بها كلامه، ولم يشعرني قط بمسحة من العطف والحماسة، وإنما كانت تسري خلال قصته المتصلة نغمة من الجد والإخلاص تبينت منها أنه لا يحسب أنه كان يروي مهزلة مضحكة، وكان يعتقد أنها شيء مهم، وأن بطليها عبقريان سماويان من عباقرة الكياسة.

أما أنا فإن منظر إنسان يستطرد في رواية تلك القصة العجيبة دون أن يبتسم كان في عرفي غاية السخف والمناقضة. وقد أسلفت أنني سألته أن يقص عليَّ خبر الأب ليونيداس. و. سميلي، فأجابني بما يلي، وتركته يمضي على نسقه، ولم أقاطعه قط أثناء روايته.

قال: كان هنا شخص يُسَمَّى جيم سميلي [في] شتاء سنة تسع وأربعين، وربما كان في ربيع سنة خمسين، لا أدري على التحقيق، ولكن الذي جعلني أذكر أنه جاء في هذا الموعد أو ذاك أن القناة الكبيرة لم تكن تمت يوم قدم إلى المحلة، وقد كان على أية حال أعجب مَنْ رأيت، يراهن على كل مسألة، ويحتال جهده كي يجد مَنْ يراهنه على الخلاف، فإن لم يجده غَيَّر موقفه وراهن على الطرف الآخر، وكان كل ما يوافق الطرف الآخر يوافقه ولا تهمه إلا المراهنة على أية صورة، ولا يزال في كل أولئك موفَّقًا ناجحًا سعيد الحظ في جميع مراهناته، فقلَّما يخسر في رهان.

كان على الدوام متربصًا لرهان، فلا يسمع بشيء كائنًا ما كان إلا اتخذ منه موضوعًا للتحدي والمناقضة، واختار أي الطرفين يصادفه في تحدياته ومناقضاته، كما أنبأتك آنفًا.

فإن كان ثمة سباق خَيْلٍ أَلْفيتَه مشرقًا متهللًا، أو رأيته قابعًا في رأس الحلبة، وإن كان ثمة هراش كلاب فهو مشترك فيه، وإن كان ثمة قتال قطط أو نقار ديكة، بل إن كان ثمة عصفوران على فرع يتناقران، فهو مراهنك أيهما يبدأ بالفرار! وإن كان في المحلة اجتماع ينعقد فهو مواظب على حضوره، مراهن على القس ووكر الذي يقول عنه: إنه أبلغ الوعاظ، وإنه لكذاك، وإنه لرجل صالح فوق ذاك!

وربما لمح حشرة تدب، فلا يلبث أن يراهنك إلى أين تسير وأين تقف بعد المسير، ولو أنك طاوعته لتتبع تلك الحشرة وذلك الرهان إلى بلاد المكسيك، ليعلم ما مقصدها وأين طريقها وكيف يكون مقامها وترحالها!

وكثير من الفتية هنا رأوا سميلي وفي وسعهم أن يخبروك بخبره. إنه — كان الله له — يتحدى كل أحد ويراهن على كل أمر. واتفق مرة أن قرينةَ القسِّ ووكر مرضتْ ولم يظهر من مرضها أنه مؤذن بشفاء، ولكنه أتى يومًا وسأله سميلي عنها، فقال: إنها تحسنت تحسنًا ظاهرًا، والحمد لله على رحمته وكرمه، وإنه ليرجو ببركة الله أن تتماثل وتعود إلى صحتها، فإذا بسميلي يقول دون تفكير: على أني أراهن بكذا وكذا أنها لن تشفى ...!

وكانت لسميلي فرس، يطلق عليها الفتيان لقب «سيسي ربع ساعة» ولكنهم يمزحون لأنها — ولا ريب — كانت أسرع من ذلك، إلا أنه تعود أن يكسب من مراهناته على تلك الفرس؛ لأنها كانت تتلكأ أو تصاب باللهاث أو الحران أو النزلة الصدرية أو أي مصاب من هذا القبيل، وكان من عاداتهم أن يسمحوا لها بفرق مائتي ذراع ثم يجاوزوها في الطريق، فإذا هي في النهاية تقبل مستميتة وترمي بسيقانها هنا وهناك على جنب منحرف أو في الهواء ... ترفس وتثير الغبار وتسعل وتعطس وتأتي على مدى الرقبة بأية حال!

وكان له كلب، تنظر إليه فتقول إنه لا يساوي سحتوتًا، ولا يحسن إلا أن يتسكع على غير هدى لعله يتمكن من اختطاف ما يتفق، ولكنه لا يلبث أن تضرب عليه مراهنة من المراهنات بمقدار من المال حتى يتبدل كلبًا غير الكلب، وتبرز أنيابه من فكه، ويلمع كاللهب، وربما داعبته بعض الكلاب ومرغته وعضته وألقت به إلى الأرض مرة بعد مرة، ولكن أندرو جاكسون — وهذا اسمه — لا ينشط إلا على هواه، ويرتفع مبلغ الرهان في هذه الأثناء ويتضاعف مصعدًا حتى لا مزيد، فإذا به فجأة يقبض على مفصل الساق الخلفية من الكلب الآخر ويجمد على ذلك، ولا يخطرن ببالك أنه يعمل أظافره، بل كل ما هنالك أن يقبض عليه ويتشبث به إلى أن يشهد الحكم بالغلبة ولو بعد سنة!

ولبث سميلي يخرج رابحًا من المراهنة على هذا الكلب حتى جيء له بكلب مبتور الرجلين قطعتا بمنشار، فلما بلغ الهراش أمده وارتفع مبلغ الرهان إلى أَوْجه، وعمد أندرو جاكسون إلى حيلته المعهودة خاب حسابه، وعرف مكيدتهم له، فلاح عليه الدهش والانكسار، ونظر إلى سميلي نظرة عاتبة كأنما يقول له: إن الذنب ذنبه لأنه أتى له بكلب ليست له رجلان، ثم ترك الرهان يأسًا من الظفر. وما زال يهزل ويبلى حتى نَفَق، وما كان أعجبه من كلب أندرو جاكسون هذا! لقد كان جديرًا بالصيت الواسع لو أنه عاش؛

فقد كانت له همة، وكانت فيه عبقرية، وعرفت ذلك بالنظر إليه وإن لم ينطق بكلمة، فما ينبغي لنا أن نرى حيوانًا أبكم فنجرده من ملكات العبقرية لأنه لا يتكلم، وما زلت حزينًا يعاودني الحزن كلما ذكرت موقفه الأخير من الرهان وكيف انقلب عليه.

على أن سميلي كانت له كلاب أخرى، وكانت له ديكة وسنانير، وكانت كلها من الطراز الذي لا يُجارى ولا يتركك في راحة أن تعرض عن رهانه.

وذات يوم صاد ضفدعًا وأخذه إلى بيته، وقال: إنه سيدربه، فلم يكن له عمل خلال ثلاثة أشهر غير أن يجلس في فناء داره ويعلم الضفدع كيف يقفز، وتالله لقد نجح وعلَّمه! وما كان ليزيد على أن يغمزه في مؤخره فلا تنقضي لحظة حتى تراه واثبًا في الهواء كأنه شظية بقلاوة، ثم يهبط مستويًا على أقدامه كأنه قط هابط، وعلمه كذلك صيد الذباب فبلغ من مهارته في الصيد أنه يتناول الذبابة على مد النظر. وكان «سميلي» يقول: ما بالضفدع من حاجة في رياضة من الرياضات إلا أن يتدرب عليها فلا يعيبه شيء! وقد صدقته، وكيف لا أصدقه، وإني قد رأيت بعيني دانيال وبستر، نعم «دانيال وبستر» اسم الضفدع الذي نتحدث عنه؛ رأيته بعيني يطرحه على الأرض ويغني له: الذباب يا دانيال! الذباب! وقبل أن يرتد إليك طرفك تراه قد وثب في الهواء وعاد إلى الأرض كأنه قطعة من الطين، وجعل يحك رأسه بقدمه كأنه لم يأتِ بعجب من العجاب لا يأتي به ضفدع من بني جنسه! ولن تبصر بضفدع في مثل هذا الحياء ومثل هذه الاستقامة، فهو لا جرم ضفدع موهوب، وما من ضفدع قط يجاريه حين يدخل السباق على الحلبة الممهدة، فقد كان «سميلي» يراهن عليه بأكبر مقدار في حسابه، وما كان أعظم فخره بضفدعه! فإن أصحابنا الذين ساحوا وأكثروا من السياحة وشهدوا العجائب في سياحاتهم قد سلَّموا معترفين للضفدع بأنه فرد بغير نظير!

وحفظ سميلي الضفدع في صندوق مشبك، ثم تعود أن يحمله إلى المدينة حيث يراهن عليه، واتفق يومًا أن زائرًا طارئًا على المحلة لقيه ومعه صندوقه، فسأله: ما عسى أن يكون في هذا الصندوق؟!

فقال «سميلي»: لعله ببغاء، لعله عصفور كنار، لكنه لا هذا ولا ذاك، إنه ضفدع.

فأخذ الرجل الصندوق وقلبه ونظر فيه، ثم قال: وما نفع هذا الضفدع؟!

قال «سميلي» في غير اكتراث: نفعه شيء واحد؛ إنه يستطيع أن يسبق كل ضفدع في هذا الإقليم: إقليم «كالفيرا»!

فعاد الرجل يتأمل الضفدع، وقال بعد أن أطال النظر إليه: ما أرى في هذا الضفدع مزية على غيره من الضفادع في كل مكان.

قال «سميلي»: ربما، وربما كنت أنت خبيرًا بالضفادع، وربما كنت غير خبير، وقد تكون من الهواة في هذه الصناعة، أما أنا فعلى رأيي لا أتحول عنه، وهذه أربعون ريالًا أراهن بها على أنه يسبق لا محالة كل ضفدع في الإقليم.

وتريث الزائر الطارئ برهة يعيد فيها التأمل ويتدبر في أمره، ثم قال: إنني غريب هنا وليس عندي ضفدع من ضفادع الإقليم، ولكنني إذا اقتنيت ضفدعًا فسوف أراهنك عليه.

عندئذٍ قال «سميلي»: حسن ما تقول، حسن. دَعْ هذا الصندوق معك وسأمضي وآتيك بضفدع.

وعلى هذا أخذ الزائر الصندوق وأعطى سميلي الأربعين ريالًا وقعد ينتظر.

وبعد هنيهة قضاها في الانتظار والتفكير، مد يده إلى الضفدع فأخرجه، وفتح فمه وحشاه برش الصيد، حشاه حتى الذقن، وأرسله على الأرض. ومضى «سميلي» إلى المستنقع يدور حول الوحل برهة، حتى قبض على أحد الضفادع، وقفل به إلى الزائر الغريب فأسلمه إياه قائلًا: دونك هذا الضفدع إن كنت على وعدك، وضعه مع دانيال على سواء، وسأنادي: واحد، اثنين … ثلاثة، اجرِ، ويبدأ التسابق.

ولقد كان، وغمز كلاهما ضفدعه، فقفز الضفدع الجديد، وأما «دانيال» فجثم في مكانه وهز كتفيه، مثل الفرنسي الذي لا يعنيه ما يُدعى إليه، وضاع النداء على غير جدوى؛ فقد جثم «دانيال» كأنه سنديان راسخ في موضعه، فدهش «سميلي» وتأفف مشمئزًا، ولكنه لم يدرِ ما الخبر ولا جرم!

وقبض الزائر الريالات وانطلق لسبيله، ثم وقف عند الباب ولمس دانيال بإبهامه، وردد ما قال آنفًا: لعمري لا أرى في هذا الضفدع مزية على سائر الضفادع في كل مكان!

أما «سميلي» فقد لبث يحك رأسه وينظر إلى دانيال، ثم قال أخيرًا: تالله لا أعلم ماذا أصابه، وأحسبه قد انتفخ على غير ما أعهد، ثم أمسك به من عنقه ورفعه وهو يقول: ويحي، لعن الله سنانيري جميعًا إن لم يزن بهذه الحالة خمسة أرطال، وقلبه ظهرًا لبطن، فسقط منه ملء كفين من رش الصيد، فعلم دخيلة الأمر، وجنَّ جنونه، وأرسل الضفدع من يده، وعدا وراء الزائر الغريب يريد اللحاق به، فإذا هو قد اختفى بين الأرض والسماء.

وسمع «سيمون هويلر» اسمه يُنادى عليه من الفناء الخارجي، فنهض مستجيبًا والتفت عند الباب إلى مَنْ يقول: مكانك أيها الضيف، إنني لن أغيب.

إلا أنني أرجوك المعذرة، فما كان لي أن أترقب من بقية أخبار ذلك المتشرد المخاطر «جيم سميلي» بيانًا نافعًا عن سيرة الأب المُوَقَّر «ليونيداس. و. سميلي» ... ونهضت للمسير.

فلما التقيت «بهويلر» الودود الحفي عائدًا، إذا به يحذبني من عروتي ويستأنف قصته قائلًا: ولقد كان لسميلي بقرة صفراء عوراء بتراء ضئيلة كأنها القزم ...

فقلت في رفق وهوادة: لعنة الله على «سميلي وبقرته» المُشَوَّهة، وحييت الشيخ تحية الوداع، وعدت أدراجي.

التابعون

(١) توماس بايلي ألدريخ Thomas Bailey Aldrich ١٨٣٦–١٩٠٧

وُلد في بورتسموث، وقال عن نفسه: إنه وإن لم يكن «بوستنيًّا» أصيلًا فهو «بوستني مصفح أو بوستني مطليٌّ.»

مات والده وهو في السادسة عشرة، فحال ذلك دون انتظامه في سلك التعليم العالي، واضطر إلى عمل كتابي في بعض معاهد الأعمال بنيويورك، وأصدر ديوانه الأول وهو دون العشرين، ونضج حين توفر على كتابة القصص الصغيرة، فكانت قصته التالية من ثمرات فنه الناضج وهو في السابعة والثلاثين. وقد كان يراسل صحيفة نيويورك تريبيون من الميدان في الحرب الأهلية، فذاعت شهرته في ميدان الصحافة، ولكنه ثاب إلى مسقط رأسه بوسطون حنينًا إلى ذلك المنشأ الذي كان لا ينساه، وعكف على تحرير مجلتها الأسبوعية المُسَمَّاة «كل سبت» فارتفع شأنها بفضله بين صحافة الأقاليم، وربح من عمله الصحفي وعمله الأدبي قدرًا من المال يَسَّرَ له تحقيق أمنيته من الطواف بالقارة الأوروبية، وقد كتب في بعض فصوله يقول: إن الناس يأخذون الكاتب بأسلوب قصصه وفصوله، فينتظرون منه حديثًا في مجالسه كالأحاديث التي يرويها على قرطاسه، ولكنهم يظلمونه، ولا يحق لهم أن يحاسبوه بهذا المعيار في مجالسه بين صحبه وعشرائه، على أنه لم يكن في الواقع من الكُتَّاب الذين تتفاوت قدرتهم على الكتابة وقدرتهم على الحديث، بل كانت تلازمه في مجالسه هذه اللباقة التي يراها القارئ في القصة التالية التي تدور على خلق شيء من لا شيء، أو خلق قصة بغير حوادث وبغير أبطال، ولهذا استحب صحبته كثير من كبار أدباء عصره، ومنهم مارك توين ولونجفلو ولويل وغيرهم من هذه الزمرة، ولا تخلو قصة له من هذه اللباقة وهذه البراعة «الشخصية الفنية» وإن لم يكن على نصيب كبير من العمق

والاستيفاء. ونزعته العامة في فنه وآرائه العامة أقرب إلى المحافظة، مع السماحة في النظر إلى سائر الآراء.

(١-١) مارجوري داو

بقلم: توماس بايلي ألدريخ Thomas Bailey Aldrich

١

من الدكتور ديلون إلى إدوارد دلاني عند الصنوبرات بجوار راي، همبشير الجديدة:

٨ من أغسطس سنة ١٨٧٠

يسعدني يا سيدي أن أؤكد لك أن القلق الذي يخامرك لا يقوم على أساس. إن «فلمنج» سيلازم السرير ثلاثة أسابيع أو أربعة، وعليه أن يحترس أول الأمر في تحريك قدمه، فإن صدعًا من هذا القبيل لمتعبٌ على كل حال، ولحسن الحظ كان الجَرَّاح الذي وُجد في الصيدلية عند نقل «فلمنج» إليها قد أحكم تجبير العظم وأعاده إلى موضعه، فلست أخشى من تخلف أثر دائم لهذه السقطة، إن بنية «فلمنج» تحتمل الصدمة أحسن احتمال، ولكن الحالة النفسية السيئة التي يعانيها تزعجني، وإنه لآخر إنسان بين الناس يطيق أن تُفقد ساقه، وإنك لتعلم خلقه واندفاعه ونشاطه إلى الحركة ... وإنه لا يستريح ولا يهدأ إلى أن يهجم إلى غرضه، كالثور الذي يُلَوَّح له بالشال الأحمر. ولا يفارقه مع ذلك لطفه، أما الآن فهذا اللطف قد فارقه والتهب مزاجه. وقد جاءت «السيدة فلمنج» من «نيويورك» حيث تقيم الأسرة للمصيف، كي تمرضه وتشرف على راحته، ولكنه طردها في اليوم التالي، باكية منكسرة، وقد أتينا له بمجموعة كاملة من قصص بلزاك سبعة وعشرين مجلدًا على مقربة من سريره، يقذف بها واتكنز ذلك الرجل الوديع الخدوم، كلما أقبل إليه بطعامه، وقد حملت إليه بالأمس — خالي الذهن — سلة من الليمون، وقد كانت قشرة ليمون كما تعلم هي التي أزلقت قدمه فكسرت ساقه، فما هو إلا أن لمح الليمون حتى ثار ثورة لا أدرك كيف أصفها! وما هذه إلا واحدة من ثورات كثيرة، ولعلها أهونها وأخفها! ويحدث في غير هذه الحالة أن يجلس مطرقًا فيطيل النظر إلى ساقه

المكسورة في صمت وحسرة وقنوط، فإذا استولت عليه هذه النوبة — وقد يمر عليه اليوم وهو مأخوذ بها — فلا شيء قط يسري عنه حزنه وانقباضه، فيعاف الطعام، ويعرض عن قراءة الصحف، ولا يشوقه الكتاب إلا أن يكون قذيفة يرمي بها واتكنز؛ فحالته في الواقع مما يستدر الإشفاق.

على أنه لو كان فقيرًا، وكانت أسرته تعوِّل على عمله اليومي، لكان هذا الهياج وهذا القنوط معقولين منه طبيعيين، ولكنهما شنيعان من فتى في الرابعة والعشرين، موفور الثراء، لا يضطلع بهمٍّ من هموم العيش … فإن ظل هكذا مستسلمًا لثورات غضبه فقد يتعرض لالتهاب المفصل الذي كسره. وقد بلغت حيرتي غايتها في علاج أمره، فإني أعرف العقاقير التي تُنيم وتُذهب الألم، ولا أعرف عقارًا يروض مَنْ يتناوله على التعقل وحسن الإدراك، وإن هذه «الوصفة» لفوق طاقتي، فلعلها ليست فوق طاقتك؛ إذ أنت صديقه الحميم وموضع سره، فاكتبْ إليه، اكتب إليه بلا انقطاع، وأدخل إلى قلبه السرور، واحمه أن يصبح فريسة دائمة لآفة السوداء، ولا يبعد أن يكون في نيته بعض الخطط التي عاقتها هذه الصدمة، فإن كان ثمة خطة كهذه فإنك لخليق أن تعلمها، وتعلم كيف تسدي إليه النصح في هذه المحنة، وأحسب أن أباك يرى من الخير ما حدث من تغيير، وإنني يا سيدي مع احترامي وتحياتي … إلخ. إلخ.

٢

من إدوارد دلاني إلى جون فلمنج وست شارع ٣٨ نيويورك:

٩ من أغسطس

عزيزي جاك

وصلت إليَّ هذا الصباح بضعة سطور من ديلون، وسرني أن إصابتك لم تكن من الخطر بحيث توهمت من الخبر، وإنك لست كبعضهم على ما تصبغ به صورتك من سواد، وسيردك ديلون كما كنت خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع إذا اعتصمت بالصبر واتبعت وصاياه، هل وصلت إليك كلمتي يوم الأربعاء الماضي؟ لقد أزعجني كثيرًا سماعي بالحادث الأليم!

وإنني لا أستطيع أن أتخيلك في سكينتك وقد اشتد وثاقك في الجبائر والضمادات، وإنه لفساد ذوق أن يحدث هذا ونحن نمني نفسينا بشهر ممتع على الشاطئ، ولكن علينا أن نتلقاه بما يستطاع من احتمال، وإنه لمن عثرات الحظ مع هذا أن تسوء حالة أبي فيتعذر عليَّ أن أفارقه على هذه الحالة، وأحسب أنه قد تقدم كثيرًا لأن هواء البحر يوافق تكوينه، ولكنه لا يزال بحاجة إلى ذراعي يعتمد عليها، وإلى إنسان يُعنى به فوق عناية الخدم، فليس في وسعي أن أخفَّ إليك أيها العزيز، إلا أنني في سعة من الوقت للكتابة إليك، وفي ميسوري أن أواليك بمكتب بريد كامل إن كان في ذلك ما يسري عنك ويسليك.

والله يعلم أنني لا أجد هنا ما يستحق أن يُكتب عنه، فليس الأمر هنا كما تعهد في مساكن الشاطئ، فكنت أكتب لك عن أنماط من الشخصيات وألوان من الناس، وأفعم خيالك بطوائف من ربات البحر ذوات الغدائر السود أو المذهبات، رفافات على الظهور والأكتاف، وأريك «أفروديت» نفسها في كسوة الصباح، وفي حلة المساء أو لباس الحمام، إلا أننا بعيدون — جد بعيدين — من هذه المناظر وأشباهها، وكل ما لدينا حجرات في بيت من بيوت الريف على مفترق الطرق، وعلى بعد ميلين من الفندق، نعيش على أتم هدوء وفراغ.

وليتني كنت من كُتَّاب القصص؛ إذن لكان لدينا مجال لكتابة قصة صيفية في هذا المأوى العتيق بأرضه الرملية، ووزره العالي، ونوافذه الضيقة مشرفة على وشائج الصنوبر التي تحيل أغصانها كلما هبت الريح أوتارًا تعزف عليها، ومن حقها أن تكون قصة تعطرها أنفاس الغاب ونسمات الأمواج، من حقها أن تكون قصة من قصص ذلك الروسي، وما اسمه على فكرة؟ تارجنيف، تويرجنيف، تيرجنيف؟ مَنْ يدري كيف يتهجون حروفه؟!

وأثوب إلى نفسي فأقول: ترى هل يستطيع أحد وإن كان ليزا أو ألكسندرا باولوفا أن يشجي قلب رجل تَنْكَؤه وخزات ساقه هنيهة بعد أخرى؟! هل تستطيع فتاة من فتياتنا على أحسن نماذجهن من الخيلاء والرشاقة أن تسليك فيما أنت فيه من شجن وأسى؟! لو أمكن هذا لبادرت إلى الفندق واصطدت واحدة منهن أو عثرت عليها هنا أو هناك!

مَثِّل لنفسك بيتًا كبيرًا مواجهًا لكوخنا على مفترق الطريق، واعلم أنه ليس بالبيت لأنه أحق أن يُسَمَّى القصر أو الإيوان، قد شُيِّدَ على ما أظن في حقبة

من حقب الاستعمار، فاتسعت رحابه، وارتفعت سقوفه، وأحاطت به الأفاريز الفساح من جهات ثلاث: بناء فخور معتد بذاته يضرب بأنفه في السماء، وينتحي جانبًا من الطريق، وتحف به أشجار الدردار والبلوط والصفصاف … ويحدث أحيانًا في الصباح وأكثر من ذلك في المساء، عند انحسار الشمس عن ذلك الجانب من القصر، أن تخرج إلى الإفريز امرأة فتية، بيدها نسيج تعمل فيه أو كتاب، وهنالك أرجوحة من أغصان الأناناس نبصرها من هنا، وإن الأرجوحة لجد لائقة بالفتاة في الثامنة عشرة، وبالغدائر الذهبية والعيون السود والثياب الهفهافة الزمردية، من طراز الحسان المصورات على خزف درسدن، كأنهن حسان عصر لويس الرابع عشر، وكل هذه الملاحة تذهب إلى الأرجوحة، وتترنح جيئةً وذهابًا، كأنها ريحانة الأصيل ترف على الغدير … وتطل النافذة على ذلك الإفريز، وأطل أنا كذلك!

وبعد، فكفى هذا الهراء الذي لا يجمل بشاب من زمرة رجال القانون يصاحب أباه الشيخ المريض في إجازة الصيف، أرسل إليَّ سطرًا أيها العزيز جاك، وقُلْ لي كيف أنت … صِفْ لي ما تعانيه، وأسهب في هدوء، وحذار أن تسب أو تثور، فأستعدي عليك القانون!

٣

من جون فلمنج إلى إدوارد دلاني:

١١ من أغسطس

كان خطابك يا عزيزي «نيد» نجدة سماوية، وتصور حِلْس فراش مثلي لم يعرف «يوم مرض» قط منذ وُلد! إن ساقي اليسرى لتزن ثلاثة أطنان، وإنها لملفوفة بالكتان والتوابل كأنها الموميا، ولا قِبَل لي بالحركة، فما تحركت منذ خمسة آلاف سنة، من زمان الموميات على أيام فرعون!

إنني أرقد من الصباح إلى المساء على كرسي طويل أحملق في الشارع الساخن، وكل أحد ما عداي خارج من داره يروح عن نفسه، ويخيل إليَّ أن البيوت التي تلقاني بوجهها الحجري الداكن من جانب الشارع الآخر توابيت أضرحة مرصوصة أمامي، ويسفو التراب على الألوح التي نُقشت عليها أسماء

المنتقلين إلى رحمة الله، وتنسج العناكب الساخرة خيوطها على ثقوب الأقفال، وكل ما تراه صمت وتراب وخراب. وأقطع الحديث الآن لأحيي واتكنز بالجزء الثاني من «قيصر بيروتو»؛ أخطأته، وإخال أنني أستطيع أن أصيبه بنسخة من سان بيف أو القاموس العام لو وجدته، فهذه الكتيبات من قلم بلزاك لا تناسب كفي، ولكنني مستهدفه مهما يكن من الأمر.

ويخطر لي أن واتكنز يداعب مخزن الشيخ بما فيه من ودائع الخمور … إن نوتة الشتاء تحتل المنظر أمامي، وإن خوفو الفتى في الدور الأعلى مشتمل بقماطه، وإن واتكنز لينتقل إلى حجرتي بسحنته الشاحبة المنافقة، مسحوبة كمنفاخ «الأكرديون»! وإنني لأعرف أنه يبتسم طول الطريق على السلالم مسرورًا بانكسار ساقي. ألم يكن كوكب نحسي في أوجه ساعة هرولت إلى المدينة لأحضر العشاء في مطعم دلمنيكو؟ إنني لم آت المدينة لهذا، وما كان لي مأرب إلا أن أشتري فرس لفنستون الكميت، وهأنذا مقيد دون الوثوب على السرج شهرين، وسأرسل إليك الفرس بعنوان الصنوبرات، أليس هذا هو اسم المكان؟!

إن الشيخ ديلون يخال بي مسًّا من الجنون، وهو الذي يجنني بليمونه، وتصور مصابًا بعقله يعالج بالليمون!

هذيان! وما بي إلا القلق — قلق الشيطان — في هذه القيود والقماقم! وما كان هذا مما تعودت يومًا من الأيام، وما ظنك بإنسان لم يعرف صداعًا ولا وجعًا في سن مدى حياته، يلفى نفسه مغروسًا في حجرة بالمدينة أسابيع، وهو يستقبل لفحات الهواء الحار؟! أتظنك تراه مبتسمًا متنعمًا سعيدًا كما يرام؟! خرافة لا تعقل، وما أنا بمطيق أن ألوذ بالسكِينة والاطمئنان!

إن خطابك أول شيء فيه عزاء وجدته منذ نَكْبتي قبل عشرة أيام، لقد استنهضني إلى السرور نحو نصف ساعة، أرسل إليَّ رقعة كلما استطعت، وكل شيء يغني إن كنت تحبني، وزدني من أخبار الفتاة في الأرجوحة، فقد كان كل أولئك ظريفًا منك حقًّا: كان ظريفًا تشبيهك لخزف درسدن وريحانة الغدير، ولعل التشبيه مختلط بعض الاختلاط إلا أنه طريف، ولا أظن لديك أثاث «فنان عاطفي» في الدور الثاني، وذلك يدل على أن المرء قد يألف حجرة الاستقبال في دار صاحبه سنوات، ولا يدري ما تحت سقفه الأعلى، وإخال أن علوك مشحون

بالأوراق القضائية الجافة، وأسانيد الرهون والإقرارات، وتتلقف ثمة رزمة من المخطوطات ... فماذا ترى؟ ترى ثمة قصائد وأغاني وموشحات، وإنك حقًّا لصاحب ملكة فنية قادرة على الوصف يا إدوارد دلاني ... و«أتهمك» أنت بتأليف تلك القصص الغرامية التي تنشرها المجلات بغير إمضاء ...!

سأستوحش كالدب إلى أن أتلقى منك خبرًا آخر، فأخبرني عن صويحبتك المجهولة على عرض الطريق؛ ما اسمها؟ مَنْ هي؟ مَنْ أبوها؟ أين أمها، مَنْ عشيقها؟ إنك لا تستطيع أن تتخيل كم أجد في هذا وأشباهه من تزجية فراغ، وكلما زادت تفاهته زاد حسنه! وإن اعتقالي قد أوهن ذهني فأحسست أن ملكاتك الكتابية ذات بال، وأنني لأنمو إلى طفولتي الثانية، ولن يمر بي أسبوع أو أسبوعان حتى أُشْغل بخواتم المطاط ولعب المرجان ... ولتكونن كأس من الفضة عليها نقش مناسب تحفة لطيفة من عنايتك، واكتب مع هذا قبل كل شيء.

٤

١٢ من أغسطس

سوف يتسلى الباشا المريض، باسم الله، إنه يأمر بهذا، فإذا أسرف القصاص في الثرثرة المملة، فغِرارة وحبل ونوبيان ورمية إلى البحر تجعله طعامًا للأسماك، لكن الحق يا جاك أن مهمتي عسيرة، وليس لدي هنا شيء إلا حكاية تلك الفتاة على عرض الطريق، إنها تترنح في الأرجوحة هذه اللحظة، وإنه ليعوضني عن كثير من خسائر الحياة أن أراها حينًا بعد حين قد لبست حذاءها الذي يلائم قدميها ملاءمة القفاز للكفين، ثم تنطلق لشأنها، مَنْ هي؟ وما اسمها؟ إن اسمها داو، وهي البنت الوحيدة للمستر ريشارد، وداو الضابط السابق والمصرفي الآن، أمها ميتة، لها أخ بجامعة هارفارد، وأخ أكبر منها قُتل بمعركة «فير أوكس» منذ تسع سنين، وأن الداوين هؤلاء قوم أغنياء، وهذه هي الدار التي يقضي فيها الأب وبنته ثمانية شهور من الاثنى عشر، وأما بقية السنة فتُقضى في بلتيمور وواشنطون ... وشتاء نيوإنجلاند كثير على الشيخ الكبير! وتُسَمَّى الفتاة مارجوري، مارجوري داو؛ اسم يرن في الأذن غريبًا لأول وهلة،

أليس كذلك؟! لكنك بعد أن تكرره بين شدقيك ست مرات أو نحوها تألفه وتحبه، ففيه رقة لذيذة، فيه شيء من الأناقة ونفحة بنفسجية، ولا بد أن تكون فتاة ظريفة كي تُدعى مارجوري داو!

لقد كان مضيفنا في الصنوبرات شاهد القفص أمام محكمتي الليلة الماضية، ومنه سمعت هذه الشهادة، إنه كان وكيلًا على حديقة الخضر التي يملكها مستر داو، وله علم بشئون الأسرة كافة خلال هذه السنين الثلاثين، وغنيٌّ عن القول أنني سأتعرف إلى جيراني خلال بضعة أيام، فلعله يقارب المستحيل قليلًا ألَّا ألتقي بمستر داو والآنسة داو في بعض منازهي ورياضاتي، والفتاة تتخذ لها ممرًّا مختارًا إلى الشاطئ، وسأعترضها يومًا وألمس لها قبعتي، فتحييني الأميرة تلك اللحظة برأسها الجميل تحية دهشة لا تخلو من ترفع! وستصدمني في الواقع، وكل هذا من أجلك يا عزيزي الباشا. فما أعجب ما تحدث الأمور! قبل عشر دقائق دعيت إلى الردهة، ولا تجهل أنت الردهات في منازل الريف على الشاطئ، فإنها على نوع ما بحرية برية، إن صح هذا التعبير، وفيها الصدف موضع المدفأة، وأغصان «التنوب» موضع المدخنة، وثمة وجدت أبي ومستر داو يتبادلان إيماءة التحية والمجاملة على النهج القديم، لقد جاء يقدم احترامه إلى جيرانه، وهو رجل طوال نحيف يناهز الخامسة والخمسين بوجه أزهر، وشارب مبيض كالثلج، وعوارض على الخدين، ويشبه مستر دومبي، أو يشبه مستر دومبي لو أن هذا قضى سنوات في الجيش البريطاني، لقد كان مستر داو ضابطًا برتبة العقيد في الحرب الأخيرة، يقود الكتيبة التي كان فيها ابنه برتبة ملازم. يا له من فتى شجاع في شيخوخته! كأنما نُحتت فقاره من صخرة همبشير الجديدة، وقد أنهى إلينا قبل مبارحته أمرًا كالأمر العسكري بالحضور في الساعة المعينة لتناول الشاي، وسيحضر الدعوة معنا طائفة من أصدقاء الآنسة داو نحو الساعة الرابعة ليلعبوا الكروكي على الساحة، ويشربوا الشاي «البارد» على الإفريز، أترى أن نشرفهم بحضورنا؟ إن أبي يعتذر بالمرض، وابن أبي ينحني بما في وسعه من حركات التحية والعرف ويتقبل الدعوة!

وفي خطابي التالي فرصة للإفاضة في الحديث؛ إذ أكون قد لاقيت الجميلة الصغيرة وجهًا لوجه، إن قلبي يحدثني سلفًا يا جاك، وأزعم أن هذه الداو طير نادر يا صاح، ادخر نشاطك يا بني حتى يأتيك خطابي التالي، واكتب لي بإسهاب عن ساقك أيها العزيز.

٥

من إدوارد دلاني إلى جون فلمنج:

١٣ من أغسطس

لقد كانت الصحبة على أتم ما يكون من الكآبة؛ ملازم من البحرية وقسيس من الكنيسة الرسولية في ستيل واتر، وجلس مجتمع من ناهانت، ويلوح الملازم كأنه قد ابتلع زوجًا من أزراره وأحس بعسر الهضم بعد ابتلاعها، وقسيس الكنيسة فتى متأمل مفكر من زمرة المتوقرين، وجلس المجتمع أهزل من موجة الجزر الضعيف! أما النساء فأحسن كثيرًا من ذاك: الآنستان كنجزبري من فلادلفيا نازلتان بفندق الشاطئ، وهما فتاتان جذابتان، ولكن ما القول في الآنسة داو يا ترى؟

لقد انفض الرهط على الأثر عقيب تناول الشاي، وبقيتُ لأدخِّن سيجارًا مع العقيد على الإفريز، وكان نظري للآنسة كأنما أنظر إلى صورة متحركة، وهي تحوم حول الجندي العتيق وتؤدي له مئات من التوافه الجميلة! جاءت بالسيجار وأشعلته بأصابعها اللطاف، بأسلوب غاية في الأناقة والرقة الساحرة، وكانت تذهب وتعود في نور الشفق الصيفي، كأنها في ثيابها البيض وشعرها الذهبي طيف تولد من لفائف الدخان، ولو أنها تبخرت هواء كما يقال عن تمثال غلاطية في المسرحية، لكان في هذا ما يُحزن، ولم يكن فيه ما يُستغرب.

ومن اليسير أن نلحظ من النظر إليهما أن أباها الشيخ يعبدها، وأنها هي تعبد أباها الشيخ، ويخيل إليَّ أن الصلة بين أب متقدم في السن وفتاة تزدهر في مطلع الأنوثة أجمل ما يكون من الصلات، لأنها تنطوي على عاطفة خفية لا تُحس في صلة الأم بالبنت أو صلة الابن بالأم ... لكننا نغوص الآن في العميق!

بقيت مع الداوين إلى منتصف الحادية عشرة، وشهدت القمر يطلع على الأمواج، وإذا بالمحيط الذي يمتد في ظلامه الهادئ حيال الأفق كأنما تحول بسحر ساحر إلى ميدان متألق من الثلوج المتكسرة، تتخلله خلجان فضية باهرة، وعلى البعد جزائر شول تتبلج كأنها التلال الثلجية مقبلة علينا، مناظر القطب في منتصف الطريق! يا له من جمال يفوق وصف الواصفين!

فيمَ ترانا نتكلم؟ نتكلم عن الجو … وأنت ماذا لديك؟ لقد كان الجو على غير المرام في الأيام الأخيرة، وكذلك كان الجو عندكم، وهأنذا منزلق من حديث إلى حديث بغير كلفة، وقد أخبرت أصحابنا بحادثتك، وأخبرتهم كيف أنها نكثت غَزْلَنا للصيف كله، وماذا كان من ذلك الغَزْل المأمول، وعزفت على المفصل نشيدًا أحاديًّا يروق ويشوق، ثم وصفتك أو على الأصح لم أصفك، بل تكلمت عن ظرفك، وعن صبرك وطول أناتك، وعن شكرك الأخاذ للدكتور ديلون كلما ألطفك بهداياه من الفواكه والثمار، وتكلمت عن حنانك مع أختك «فاني» التي لم تسمح لها بالبقاء معك في المدينة لتمريضك، وكيف أعدتها — ببطولة — إلى نيوبورت، وآثرت المقام مع ماري الطاهية وواتكنز خادمك الأمين. ذلك الواتكنز الذي تعطف عليه وتواليه! ولو أنك كنت معنا إذ تكلمنا عنك يا جاك لما عُرف عَمَّنْ نتكلم، ولعلني كنت أفلح في المحاماة عن الجناة لو لم يتجه بي الاختيار إلى فرع آخر من فروع القانون.

وسألتْ الآنسة مارجوري ألوانًا من الأسئلة «الرئيسية» عنك وعن أحوالك، ولم أفهم تلك الساعة كما فهمت بعدُ أنها كانت معنية بالحديث، فلما عدت إلى حجرتي تذكرت كيف كانت تقبل مهتمة متطلعة بجيدها الناصع في ضوء القمر مصغية لما أقول، ويبدو لي أنني قد جعلتها تميل إليك!

إن الآنسة داو بنت تعجبك كثيرًا، ولا أكتمك القول: جمال بغير تكلف، وخلق رفيع حنون إذا كانت الأرواح تُقرأ من صفحات الوجوه … وكذلك يبدو على العقيد الشيخ أنه إنسان نبيل.

وإنني لمغتبط أن أجد الداوين بهذا اللطف والدماثة، فإن الصنوبرات مكان موحش، وذخيرتي جد قليلة، وقد كان يوشك أن أَمِلَّ المقام هنا بغير صحبة غير صحبة السيد الوالد الجليل، وصحيح أنني كنت خليقًا أن أتخذ من الشيخ المريض الأعزل … ولكنني لا أهوى المدفعية كما تعلم … أنا؟ حاشاي!

٦

من جون فلمنج إلى إدوارد دلاني:

١٧ من أغسطس

كثير على رجل لا يهوى المدفعية مثلك أن يحتفظ بهذه النار التي يصميني بها من الداخل، لكن تقدم ... إن التهكم الساخر درع نحاسية صغيرة قد تتصدع وتتشظى وتقتل المدفعي الذي يحتمي بها!

ولك أن تنحي عليَّ كما تشتهي، وليس لي أن أشكو؛ إذ لا أعلم ماذا كنت صانعًا لولا رسائلك، إنها تداويني، ولم يحدث منذ الأحد الماضي أنني قذفت واتكنز بكتاب واحد: من جهة لأنني تقدمت في اللطافة والمسامحة بفضل تعليماتك، ومن جهة أخرى لأن واتكنز قد استولى على ذخيرتي ذات ليلة، وأعادها إلى المكتبة، وإنه ليتناسى على عجل تلك العادة التي تعودها؛ إذ يقفز جانبًا كلما رفعت يدي إلى أذني، أو حركت ذراعي اليمنى أقل حركة! غير أنه لا يزال يوحي إلى الناظر علاقته بمخزن القوارير ... ولك أن تحطم واتكنز أو تمزقه، إلا أنك لن تفقد من حول شظاياه رائحة الشراب!

ند ...! إن الآنسة داو تلك — لا بد — شخصية ساحرة، وأود لو أنني أعجب بها، وقد أحسست بشيء يجذبني إليها؛ إذ قرأت كلامك عن الأرجوحة في رسالتك السابقة، ولست مستطيعًا أن أعلل ذلك أي تعليل، وجاءت أحاديثك عنها بعد ذلك فزادت عندي ذلك الإحساس، وتوهمت أنك تكلمني عن امرأة رأيتها في حياة سابقة، وأؤكد لك أنك لو بعثت إليَّ بصورتها الشمسية لميزتها بلمحة واحدة، فعاداتها في الكلام والحركة، وهيئتها وهي مقبلة بجيدها، وشمائلها على الإجمال — كما تنم عليها أحاديثك — كل أولئك من المألوفات لدي، أسألتْ كثيرًا كما تقول؟ أتتشوفُ إلى أخباري؟ إن هذا لعجيب!

وإنك لتضحك في كمك أيها المتهكم الساخر الخبيث، تضحك في كمك؛ إذ تسمع أنني أطوي الليل يقظان وقد أصبح نور مصباحي كوميض النجم البعيد، مفكرًا في الصنوبرات والإيوان على عرض الطريق! ما أبرد النسيم هنالك فيما أتخيل، وما أشوقني إلى نفحة الملح في الهواء!

أصور لنفسي العقيد الشيخ يدخن سيجاره في الإفريز، وأبعث بك وبالآنسة داو معك في جولات على الشاطئ، وأدعك أحيانًا تدلف معها في القمراء تحت

الشجر، فإنكما الآن لصديقان حميمان ولا شك تتلاقيان كل يوم! وهل أجهل أساليبك ووحائدك؟!

ثم أرتد إلى غاشية من غواشي القلق فأود أن أبطش بأحد من الخلق، وأن أسألك: أشعرت بأحد قط يحوم حول الحمى؟! أيكثر ذلك الملازم البحري أو ذلك القسيس من زيارة الدار؟ لا أسأل هذا لأنني أذوب شوقًا إلى خبرٍ عنهما، وإنما الخبر عنها على ما أرى مِمَّا ينتظم في هذا السياق.

وأعجب لك أنك لم تتعلق بهوى الآنسة يا ند، وأما أنا فقد نضجت عندي الرغبة في غرامها، وقد أشرت آنفًا إلى الصور الشمسية، فهلا استطعت أن تحتال على اختلاس بطاقة من مجموعتها؟ لا شك أنها تحتفظ بمجموعة صور، وإنني لواعدك أن أعيد الصورة إليك قبل أن تفطن لغيابها.

هل وصلت الفرس سليمة آمنة؟ لتكونن في الموسم المقبل علمًا من أعلام سنترال بارك!

آه يا ساقي ...! لقد نسيت ساقي ...! إنها الآن أحسن ولا تزال تتحسن.

٧

من إدوارد دلاني إلى جون فلمنج:

٢٠ من أغسطس

أنت على صواب في تخميناتك، فإني وجيراني لعلى أحسن صلات المودة، والعقيد وأبي يدخنان سجارَيْهما عندنا أو في الإفريز المقابل لنا، وأنا أقضي ساعة أو ساعتين كل يوم في صحبة الفتاة، وتزيدني الأيام تقديرًا لجمالها ووداعتها وذكائها!

وتسألني ما بالي لم أتعلق بغرامها؟! وسأصارحك يا جاك دون مواربة، فقد فكرت فيما سألتني عنه، وإنها لشابة وغنية ومهذبة، ولها من الشمائل العقلية والشخصية ما لست أذكر له نظيرًا في جميع مَنْ عرفت من الفتيات، إلا أنها تعوزها تلك الخصلة التي لا بد منها عندي لاستثارة ذلك الضرب من الشعور في نفسي، وكل مَنْ أَعْوزَتْها تلك الخصلةُ المجهولة، لن يكون في وسع الجميلة أو الغنية أو الفتية أن تُسْلِمني إلى هواها!

إلا الآنسة داو، فلو أن سفينة جنحت بنا معًا إلى جزيرة خالية ولتكن من جزائر خط الاستواء التي لا تزدان شواطئها بالصور والمناظر؛ لبنيت لها خصًّا من ألفاف الشجر، وقطفت لها الغذاء من الجوز والفاكهة، وشويت لها الثمر الشهي، واستغويت السلحفاة الأريبة فطبخت لها حساء منها … ولكنني لا أعشقها ولا أكاشفها بأناشيد الغزل والهيام، ولو مضى علينا عام ونصف عام، ويشوقني أن أتخذ منها أختًا أحميها، وأبذل لها النصح والمشورة، وأنفق نصف دخلي على أثمان الأنسجة من المخرمات ووبر الجمال، ولكننا الآن لا نزال على بعد من تلك الجزيرة عند خط الاستواء!

ولو لم يكن هذا شعوري لكان هناك عائق آخر دون غرامي بالآنسة داو، فلا مصيبة في رأيي أعظم من مصيبة العاشق الذي يهواها، وسأكشف لك يا فلمنج عن أمر يدهشك إذ تعلمه! وقد أكون على خطأ في مقدماتي، وعلى خطأ في نتائجي، ولك أنت أن تحكم على هذا وذاك.

إنني ليلة عدت إلى حجرتي بعد الانتهاء من لعبة الكروكي عندهم، واستعدت في ذاكرتي ما كان من انتباه الآنسة لحديثي وأنا أتكلم عنك، «وأظنني ذكرت ذلك.» في صباح تلك الليلة لدن ذهابي إلى مكتب البريد، لقيت الآنسة داو في الطريق وصحِبْتُها ذهابًا وجيئة نحو ساعة، فدار الحديث عنك مرة أخرى، وعدت مرة أخرى ألمح ذلك الانتباه على وجهها، وتكرر لقاؤنا عشر مرات، فكت أرى أنني لا أسترعي منها انتباهًا إذا لم يكن حديثنا عنك أو عن أختك أو عن شأن من شئونك، وإنها كانت تشرد بفكرها بعيدًا من حديثي إليها، وتلعب بصفحات الكتاب في يدها على نحو يقنعني بانصرافها عن الإصغاء إليَّ … وجربت في هذه الأحوال غير مرة أن أغير موضوع الحديث وأومئ إلى صديقي فلمنج، فإذا بالعينين الزرقاوين تقبلان عليَّ توًّا، وإذا هي مقبلة على الإصغاء!

فالآن ألا ترى ذلك من أعجب الأمور؟ كلا إنه ليس بالأعجب، فإن وصفك لما سرى إلى نفسك لمجرد الإشارة إلى فتاة غريبة تجلس في أرجوحة لا يقل عجبًا عن ذاك، ولك أن تخمن كيف كان إجفالي حين عبرت في خطابك يوم الجمعة تلك الفقرة، فهل من الممكن أن يفترق اثنان على مدى مئات الأميال ثم يكون لكليهما من الإيحاء المغناطيسي إلى الآخر مثل هذا الأثر؟! لقد قرأت عن أشباه هذه الظواهر النفسية، ولكنني لم أصدقها، وإني لتارك لك حل هذه المشكلة،

أما أنا فمن المستحيل عليَّ — وإن توافرت كل الظروف الأخرى — أن أحب فتاة لا تصغي إلى حديثي إلا إذا دار هذا الحديث على صديقي.

ولم ألاحظ أن أحدًا يبدي اهتمامًا خاصًّا بجارتنا المليحة، فملازم البحرية — وهو مقيم في ريفرموث — يأتي مساء بعد مساء، والقسيس يأتي أحيانًا، ولكن زيارات الملازم أكثر، وقد كان هناك بالأمس، ولا يدهشني أن تكون له عين على الفتاة الوارثة، إلا أنه غير خطر، ومن عادة الآنسة أن تصوب سهام سخرية من حين إلى حين، ومن السهل على الملازم كما يظهر أن يتدرع لتلك السهام!

وأقول مرةً أخرى: إنه ليس بالخطر، وإن كنت قد عرفت امرأة تسخر من رجل بضع سنوات ثم تنتهي بالسخرية إلى الزواج! ومن المحقق أن القسيس الكئيب ليس بذي خطر، وإن كنت أعود فأقول أيضًا: إن البعيد قريب، وإن القريب بعيد في هذه الأمور.

أما الصورة الشمسية، ففي حجرة الاستقبال عند المدفئة صورة صغيرة، يلاحظ اختفاؤها بنظرة واحدة لو أخذتها، وسأعمل كل ما هو معقول من أجلك، ولكنني لا أحب أن أمْثُل بين يدي المحقق هنا متهمًا بالسرقة!

استدراك؛ مع هذا زهرات من الخُزَامَى أرسلها إليك، وأنصح لك بالرفق في تناولها، لقد عدنا إلى الحديث عنك أمس على حسب العادة، وقد أوشك هذا أن يملني بعض الإملال.

٨

من إدوارد دلاني إلى جون فلمنج:

٢٢ من أغسطس

شغلني جوابك طول الصباح، ولست أدري ماذا أفهم؟! فهل تعني أنك جاد حين تقول إنك تكاد تعشق الفتاة التي لم تبصرها مرة من قبل؟! أتعني أنك مغرم بظل أو بخيال؟! وإلا فماذا تكون الآنسة داو بالنسبة إليك غير هذا أو ذاك؟!

لست أفهمك أنت ولست أفهمها هي ... كلاكما كائن أثيري يحوم في جو ألطف وأشف من هذا الجو الذي تطيقه رئتاي الدارجتان، ومثل هذا اللطف الشفاف قد أعجب به، ولكنني لا أفهمه، وإنني لفي حيرة، فنحن جميعًا أرضيون من الأرض، ولكن أراني بينكما أعيش في عالم الأرواح، وأخشى عليكما أن أصدمكما بكثافتي الخرقاء! إنني الفدم كليبان بين الأطياف.[١]

وإذا تأملت خطابك لم أجد من الحكمة أن أثابر على هذه المكاتبة ... لكن لا يا جاك، فإنه لمن الخطأ أن أستريب بالجانب المعقول منك في هذه القصة، إنك شغلت اهتمامك بالآنسة داو، وتحس أنها إنسانة قد تعجب بها كثيرًا إذا رأيتها، ثم تظن مع هذا أنك على احتمال عشرة إلى خمسة قد تراها دون ما تصورت بكثير، ولا تكترث لها بعد ذلك أقل اكتراث، فانظر إلى المسألة بهذه العين، ولن تراني أخفي عنك أمرًا من الأمور.

ركبنا أصيل أمس أنا ووالدي مع الداوين إلى ريفرموث، وكان المطر الغزير في الصباح قد لطَّف الهواء ووطأ ثائرة التراب، والطريق إلى ريفرموث قرابة ثمانية أميال تتلوى وتحف بها الأعشاب والشجيرات من جانبيها، وما وقعت عيني قط على منظر أبهر من هذه الشجيرات واخضرار ورقها مع احمرار التوت عليها، ونضرة ألوانها نقية مطلولة بعد مطر الصباح، وكان العقيد يسوق المركبة، وإلى جانبه أبي، وكنت والآنسة داو على المقعد الخلفي، واعتزمت ألا أذكر اسمك في الأميال الخمسة الأولى، وسلاني أن أتعقب محاولاتها اللبقة لإغرائي بالحديث المعتاد، ثم صمتت، ثم عادت فجأة تطرب وتمزح، ولم توفق في توجيه هذه اللباقة إليَّ توفيقها حين توجهها إلى العقيد الشيخ، وإن الآنسة داو لحلوة المزاج، ولكنها تستطيع أحيانًا أَلَّا تروق وتُرضِي، وهي كالفتاة التي يُقال عنها في الأغنية: «إنها طيبة طيبة طيبة حين تكون طيبة، وإنها لمزعجة حين لا تكون ...»

وأصررت على عزيمتي، ثم لنت بعض الشيء في العودة، وبدأت الحديث عن فرسك، وهي تهم بتجربة سرج جديد عليها، وهذه الفرس خفيفة بالنسبة إلى وزني، وعلى فكرة: إن الآنسة داو جلست للتصوير أمس في ريفرموث، فإذا

[١] يشير إلى كليبان في رواية العاصفة لشكسبير.

جاءت الصورة حسنة أخذت منها، ونصل من ثَمَّ إلى المقصود بغير حاجة إلى جريمة، ووددت لو تسنى لي أن أرسل إليك صورتها بحجرة الاستقبال، فإنها جميلة التلوين تريك مثال شعرها وعينيها، مما لا يظهر في الصورة الشمسية!

لا يا جاك، الخزامى ليست مني، ورجل في الثامنة والعشرين لا يودع رسائله إلى رجال آخر هدية من الزهرات، ولكن لا تبالغ في تفسير مدلولها، فهي تهدي الخزامى إلى الملازم، وتهديها إلى القسيس، واتفق يومًا أنها أهدت وردة من صدرها إلى عبدك، فمن سجاياها المرحة أنها توزع الزهر كالربيع.

إذا لاحظت على رسائلي بعض التفكيك والاقتضاب، فاعلم أنني لا أكتبها في جلسة واحدة، وإنما أكتبها الفينة بعد الفينة كلما تهيأ المزاج.

والمزاج الآن لا يريد أن يتهيأ.

٩

من إدوارد دلاني إلى جون فلمنج:

٢٣ من أغسطس

عدت اللحظة بعد أعجب محادثة مع مارجوري، كادت تعترف لي بشغلانها بأمرك، ولكن بأي حياء وأي وقار؟!

إن كلماتها تروغ من قلمي إذ أحاول أن أسطرها على الورق، والحق أن أسلوب القول — لا الكلمات المقولة — هو الذي يسترعي السمع والنظر، وليس في مقدوري تسطير ذلك الأسلوب!

وربما جرى هذا الكلام مجرى القصة كلها من الغرابة، فتبوح الفتاة تلويحًا — لا تصريحًا — لإنسان ثالث بحب الإنسان الذي لم تره قط قبل الآن!

غير أنني فقدت — بفضل معونتك — ملكة الاستغراب، ولا أنظر إلى الأمور إلا كما ينظر الناس إلى ما يشاهدونه في الأحلام! أما وقد رجعت الساعة إلى حجرتي فالمسألة تعاودني كالوهم البعيد! وهذه الظلال الوارفة واليراعات الرفافة ترقص حول أشجار التوت، وهذه مارجوري جالسة في الأرجوحة؛ أوهام في أوهام!

جاوزت الساعة منتصف الليل، ويغالبني النوم فلا أطيق الاسترسال في الكتابة.

صباح الخميس

سنح لوالدي فجأة أن يقضي أيامًا على البحيرات، وسيمضي وقت قبل أن يصل إليك خبر مني، أرى مارجوري تتمشى في الحديقة مع أبيها، ووددت لو كلمتها على انفراد، وربما فاتتني الفرصة قبل الرحيل.

١٠

من إدوارد دلاني إلى جون فلمنج:

٢٨ من أغسطس

كنت تنمو إلى طفولتك الثانية، ألم تكن؟

إن ذهنك قد هزل حتى أكبرت من قدر ملكاتي الكتابية! ألم يهزل كما تقول؟!

لقد علوت فوق مرتفع السخرية الذي رفعتني إليه برسالتك التي أنعمت بها في الحادي عشر من الشهر؛ علوت هذا العلو حين لاحظت مبلغ الحزن الذي أوقعك فيه انقطاعي عن الكتابة إليك خمسة أيام.

عدنا هذا الصباح من أبلدور تلك الجزيرة الساحرة، واليوم فيها بأربعة ريالات.

وجدت على مكتبي ثلاث رسائل منك، ولا ريب أنك لا تدع منك بقية من الشك في سروري بالكتابة إليك وتلقي الكتب منك!

ليس على تلك الرسائل تواريخ، وآخرها فيما أحسب يحتوي عبارتين جديرتين بالتوقف لديهما، ولا تؤاخذني يا عزيزي فلمنج إذا قلت لك: إن رأسك يضعف كلما قويت ساقك، وأنت تسألني النصيحة في أمر معلوم، فاسمع مني هذه النصيحة، واعلم أنك لن تقدم على أمر أحمق من الكتابة إلى الآنسة بالشكر على أزهارها، فإنك لتجرح رقتها جرحًا لا غفران بعده ولا مسامحة، وهي لا

تعرفك إلا من طريقي، فأنت لديها فكرة أو حلم في منام! حلم يوقظها منه أخف رجة، ومن المحقق أنك إذا أودعت رسالتك أي كلمة إليها فإني مبلغها بلا وناء، ولكنني لا أشير عليك هذه المشورة.

تقول: إنك تقدر الآن على التوكؤ بين جدران حجرتك، وإنك تنوي أن تحضر إلى الصنوبرات ساعة ينبئك ديلون بالقدرة على وعثاء السفر، مرة أخرى أنصحك أَلَّا تفعل. أَلَا ترى أن كل ساعة من ساعات البعد تضاعف شوق مارجوري وتضيف إلى سلطانك عليها؟ إنك ستعصف بكل شيء بهذه العجلة، فانتظر حتى تشفى تمامًا، ولا تحضر على أية حال دون أن تخبرني قبلها، فإنني لأخشى على حسب الظروف عاقبة المفاجأة.

وظاهر لي أن الآنسة سرت بعودتنا، فإنها بسطت إليَّ كلتا يديها في أصرح صراحة، ووقفت بالمركبة بعد الظهر هنيهة عند باب الكوخ، وكانت قد ذهبت إلى ريفرموث من أجل الصورة التي أفسدها المصور لسوء الحظ بقطرة من الحمض تركها على الزجاج، فاضطرت أن تجلس له جلسة أخرى.

تنبئني فراستي أن هاجسًا يشغلها ويقلقها، وتلوح عليها لمحة شاردة ليست من طباعها، ولعلها هاجسة وهم عندي أنا لا عندها.

وأختم هذه الرسالة قبل أن أودعها الكثير مما أردت الإفضاء به إليك، وسأصحب أبي في جولة من تلك الجولات التي صارت اليوم دواءه الوحيد … ودوائي.

١١

من إدوارد دلاني إلى جون فلمنج:

٢٩ من أغسطس

أكتب إليك على عجل لأبلغك ما جرى هنا منذ كتبت إليك خطابي الليلة الماضية. إنني لفي أشد الارتباك! وأمر واحد واضح أمامي، وهو أَلَّا تحلم بالحضور إلى الصنوبرات، فقد أخبرت مارجوري أباها بكل شيء، وقد لقيتها هنيهة منذ ساعة في الحديقة، وغاية ما أستجمعه من عباراتها الملتبسة أن الحاصل هو ما يأتي:

أوَّلًا: إن الملازم برادلي — وهو اسم الضابط البحري — كان منذ حين يغازل الآنسة ويخطب ودها، ولكن حظوته عند أبيها أكبر من حظوته عندها؛ إذ كان هذا صديقًا قديمًا لوالد الشاب، وبالأمس لمحتُ الوجوم على وجه مارجوري ساعة وقفتْ عند بابنا، وكان الشيخ قد فاتح مارجوري في خطبة برادلي وزكاها، كما استخلصت من مجمل الحال.

وثانيًا: قد صرحت مارجوري بنفورها من الملازم بصراحتها المطبوعة، ثم كاشفت أباها بما في نفسها، ولا أدري ماذا كشفت، ولعله كان كافيًا لإيقاع الشيخ في حيرة منها وإثارة سخطه وغضبه! وأظن أنني مشتبك في المسألة، وأن الشيخ ناقم مني، ولست أعلم لماذا، وما سعيت برسالة بينك وبين مارجوري، ولا كان في مسلكي مأخذ، ولا نسيت الحيطة والحذر ... ولست أرى أن أحدًا ما صنع في هذه المسألة شيئًا ما ... اللهم إلا الشيخ العقيد دون سواه ...

ويحتمل أن تنقطع العلاقة بين البيتين.

وإنك لقائل: إلى الشيطان بالبيتين معًا! فانتظر مني أخبارًا عن كل ما يجرى لدينا، وسنبقى هنا إلى الأسبوع الثاني من شهر سبتمبر، فاقعد حيث أنت قاعد، أو لا تحلم على الأقل بالقدوم إلينا ... ها هو ذا العقيد الشيخ قاعد في الإفريز يلوح عليه الشر ... ولم ألقَ مارجوري منذ فارقتها في الحديقة!

١٢

من إدوارد دلاني إلى توماس ديلون بميدان ماديسون، نيويورك:

٣٠ من أغسطس

عزيزي الطبيب: إن كان لك أقل سلطان على فلمنج، فأرجو أن تستخدم جهدك في كفه عن الحضور إلى هذا المكان في الوقت الحاضر، وسأشرح لك الظروف التي دعتني إلى هذا الطلب قبل انقضاء زمن طويل، وكلها مما يوجب عليه أن يجتنب هذا المكان!

إن ظهوره هنا يضره وينكبه!

وإنك لتسدي إليه، كما تسدي إليَّ يدًا مشكورة إذا أقنعته بالبقاء في نيويورك أو الذهاب إلى مصطاف داخلي، وغنيٌّ عن القول أنك لا تُعَرِّفه بطلبي هذا ولا تذكر له اسمي، وإنك لتعرفني يا عزيزي الطبيب معرفة تؤكد لك أن رجائي هذا والتماسي منك المعاونة السرية يرجعان إلى أسباب تقرها كل الإقرار يوم تطلع عليها، وسنعود إلى المدينة في الخامس عشر من الشهر القادم، وسيكون عملي الأول أن أسعى إلى مستشفاك وأُطْلعك على ما يقنعك إن كنت قد آثرت في نفسك حب الاستطلاع.

لقد تماثل والدي إلى العافية، فلا يُحسب اليوم في عداد المرضى، ومع التحية والإجلال تقبلوا ... إلخ ... إلخ.

١٣

من إدوارد دلاني إل جون فلمنج:

٣١ من أغسطس

تسلمت الآن خطابك معلنًا فيه عزيمتك الجنونية التي لا تنثني دون الحضور، وأتوسل إليك أن تتدبر وتفكر، فهذه الخطوة ضارة بمصالحك ومصالحها، وستزود الشيخ بسبب مشروع للسخط عليها! وإنه على لطفه وحنانه عليها لخليق أن ينبعث إلى أقصى المدى عند المعارضة والعناد، ولن يرضيك ولا شك أن تجني عليها سوء المعاملة بفعلك ... ذلك ما تُعرِّضها له لا محالة بحضورك إلى الصنوبرات، وإنه ليؤسفني أن أضطر إلى تفصيل هذا كله لك؛ فإنها لفي موقف دقيق، وثق يا جاك، أن أهون خطأ ليفسدن اللعبة كلها. ثق قليلًا بحصافتي وحسن تقديري، وانتظر وانظر ما يكون!

وبعد فإنني أفهم من ديلون أن حالتك لا تسمح برحلة طويلة، وأنه يرى أن هواء الشاطئ أسوأ ما تتعرض له الآن، وأنك تحسن صنعًا بالذهاب إلى الداخل إن كان لا بد من ذهاب، وتقبل نصيحتي وتقبل نصيحة ديلون.

١٤

أول سبتمبر

إلى إدوارد دلاني

تسلمت خطابك، لعنة الله على ديلون، لا بد من حضوري إلى المكان.

إلى جون فلمنج

اقعد حيث أنت … إن حضورك لا يجدي إلا أن يربك الموقف، فلا تتحرك قبل أن أعلمك.

إلى إدوارد دلاني

سيكون حضوري سِرًّا، ولا مناص من رؤيتها.

إلى جون فلمنج

لا تفكر في ذلك … فلا جدوى، إن الشيخ قد حبس م في حجرتها، ولن تستطيع محادثتها!

إلى إدوارد دلاني

حبسها في حجرتها! يا لله …! تقرَّر موقفي، وإني مسافر بقطار الثانية عشرة والدقيقة خمس عشرة …!

الوصول

في الثاني من سبتمبر سنة ١٨٧، عندما برح القطار محطة همبتون، شوهد فتى يتوكأ على كتف تابع له يناديه باسم واتكنز، خرج من الرصيف واستقل مركبة وطلب من السائق أن يذهب به إلى الصنوبرات، فلما وصل إلى الكوخ على بضعة أميال من المحطة ترجل بمشقة، وألقى بنظرة عجلى على الطريق وعليه دلائل الاهتمام الشديد بشيء معين يتفقده هناك، وعاد يتوكأ على كتف مَنْ يسميه واتكنز، ويمشي إلى الكوخ المتواضع ويسأل عن السيد إدوارد دلاني، فأجابه الشيخ الذي فتح له الباب: إن السيد دلاني قد ذهب إلى بوستون أمس، وإن جوناس دلاني هو الموجود. ويظهر أن هذا الخبر لم يكن فيه ما يسره، وسأل: ألم يترك السيد إدوارد دلاني رسالة باسم جون فلمنج؟ … فقيل له: نعم،

هناك رسالة باسم السيد فلمنج، يتسلمها إن كان هو صاحب العنوان، ثم غاب الشيخ لمحة وعاد برسالة:

من إدوارد دلاني إلى جون فلمنج:

أول سبتمبر

إنني لمضطرب لما صنعت، فإنني يوم أن بدأت هذه الرسائل لم يكن لي من همٍّ غير التسرية عنك في مرضك، وقد طلب إليَّ ديلون أن أحاول تسليتك فحاولت، وأحسبك قد نفذت ببصرك إلى جلية المسألة، ولم يخطر لي قط أنك تعير المسألة كل هذا الاهتمام «وتأخذها جدًّا» كما فعلت!

ماذا عسى أن أقول؟! إنني مجنون، إنني منبوذ، إنني طريد كالكلب المسعور، حاولت أن أخلق قصة تسليك، واجتهدت في الصقل والتحلية فنجحت، ويلي! وبالغت في النجاح!

إن أبي لا يعلم حرفًا من القصة كلها، فلا تزعج الرجل، وقد فررت بنفسي من الصاعقة التي تنقض عليَّ بمحضرك. فيا عزيزي جاك حنانيك، لا عقيد هناك ولا إيوان على عرض الطريق، ولا إفريز ولا أرجوحة، ولا مارجوري! داو ...!

(٢) جورج آد George Ade ١٨٦٦–١٩٤٤

أديب اللغة العامية، والأمثال أو العظات في قالب النوادر والحكايات، وله أمثال وعظات كثيرة يُعنى فيها برسم الشخصيات الريفية، وشخصيات الطلبة والطالبات، ويتناول فيها مسائل النقد الاجتماعي بأسلوب الفكاهة والتصوير الهزلي، ومن ثَمَّ يُعنى بوضع المسرحيات المضحكة الملحنة إلى جانب العناية بتصوير حياة الريف وحياة التلمذة، وأشهر هذه المسرحيات «سلطان سولو» و«أرملة الجامعة».

ولد في «إنديانا» وتعلم في مدارسها، وكادت قصصه تكون ترجمة لحياته في سلك الدراسة، وقد اشتغل بالصحافة والكتابة للنقابات ونظم الشعر، وكتب في النقد على طريقته التي تغلب عليها الفكاهة والمداورة بين الجد والتسلية.

(٢-١) إيفي هويتلسي لجورج آد

قامت مسز ولاس فساعدت زوجها على خلع معطفه، ووضعت راحتيها الدافئتين على وجنتيه المسفوعتين من مصافحة الرياح.

وقالت: إن لدي أخبارًا سارة!

– لعلها صفقة رابحة!

– «أوه، كلا، خادم جديدة، وإني لأحسبها جوهرة ليست بالصغيرة ولا بالجميلة، وقد سألتها: هل تريد أن تبيت بضع ليالٍ خارج الدار، فقالت إنها لا تخرج مساء مهما تكن الأسباب ... ماذا تظن في ذلك؟»

– شيء لا يكاد يصدق!

– هو كذلك، ولكن انتظر حتى تراها، لقد أتت إلى هنا من مكتب التخديم حوالي الساعة الثانية، وقالت إنها تريد أن تدخل المطهى حال وصولها، وأنت لا تدري كيف كانت حال المطبخ ... لقد مسحتْه ونظفتْه حتى عاد أنقى من الدبوس!

– ومن أي بلاد؟

– ليست من بلاد ما، إنما هي محصول وطني؛ إنها من الريف ... وخضراء! ولكنها طيبة، وقد اطمأننت إليها ساعة أن وقع نظري عليها.

– حسن، أرجو أن يتحقق ظنك، وإذا كان هذا أمرها، فَلِمَ لا نعطيها ما تشاء من أجر، ونضع لها الستائر في حجرتها، ونشترك لها [في] كل ما في السوق من مجلات القصص.

– حسبك، حسبك، إنني ما إخالها ستقرؤها، إنني كلما ألقيت نظري إلى المطهى وجدتها تكدح، كأنها لا تكل ولا تفتأ تغني مواويل الريف!

– آه ... أهي تغني؟ إذن قد تخيب رجاءنا وقتًا ما!

– هون عليك، نحن نستطيع أن نغلق الأبواب.

وكانت مائدة الطعام مُهَيَّأة مغرية بفرط نظافتها، وقد طافت السيدة ولاس بنظرة على الأكواب والآنية الفضية وأومأت برأسها راضية قريرة، ثم لمست الجرس، ودخلت الخادم على الأثر ... كانت امرأة طوالًا، قد ودعت سن الصبا الباكرة ... وحدثت مفاجأة: فإن مستر ولاس، أخذ يحملق في الخادم الجديدة، وينظر إليها كالمشدوه! وصاح: «يالله!»

واقتربت الفتاة كثيرًا من المائدة، حينما وقع ناظرها عليه، فمال الإناء في يديها، وابتسمت مأخوذة، وألقت الإناء على المائدة في عجل ...!

ولم تطل حيرة مستر ولاس؛ إنه عاد في هذه اللحظة بتفكيره إلى الماضي، فقد نشأ في بيئة ديمقراطية صغيرة، ترفرف عليها روح المساواة!

قال: أليست هذه إيفي هويتلسي؟!

فأجابته بمثل صيحته: يا «للسماء» وكانت صيحتها بمثابة التأمين.

– أَلَا تعرفينني؟!

– ألستَ «ولاس»؟!

وإذا بالسيدة ولاس تتراجع على كرسيها وتردد بصرها بين الخادم وبين زوجها، وتحاول عبثًا أن تفهم ما تسمع.

فما هي إلا لحظة حتى رأت مستر ولاس يندفع على المائدة ويصافح الخادم الجديدة، فتمالكت صوتها، واستطاعت أن تهتف: ماذا أرى؟!

أدركتْ مستر ولاس الحيرةُ، وأعجزته الحيلة، فقد كان مترددًا بين المسلك الذي يوحيه إليه العرف في مقام السيد، وبين واجب الرعاية لصديقة قديمة، وقال: هذه إيفي هويتلسي من برينرد، وكنت أزاملها في المدرسة! وكانت تزور منزلنا أحيانًا، وإني لم أرها منذ زمن.

ثم التفت إلى إيفي وقال: إنني لم أعلم من قبل أنك في شيكاجو.

قالت إيفي — وهي ما زالت حائرة، وعلى بعد خطوات من المائدة: أجل يا إد ولاس. إنني لا أحتمل الساعة هفة ريشة، ولم أكن أظن أنك أنت المقصود حينما سمعت اسم ولاس أول الأمر، وإن كنت أعرف أنك ههنا، ولكن عرفت ذلك حينما وقع نظري عليك أول لحظة.

قال ولاس وقد تريث قليلًا: كنت أظن أنكِ ما زلت في برينرد.

– لقد تركتها في شهر نوفمبر منذ عام، وحضرت لزيارة أسرة مورث، ولعلك تعرف أن مورث يشتغل الآن بوظيفة في شركة السيارات، وهو يزاول عمله على أحسن حال، ولم أشأ أن أكون حملًا عليه، فاتخذت طريقي وجعلت حملي على كاهلي، ولم أجد فائدة في عودتي إلى برينرد لأشتغل بريالين في الأسبوع!

لقد وجدت عملًا طيبًا لدى مستر ساندرز موظف السكة الحديدية في أقصى الشمال، لكني تركته لأنهم يريدون مني أن أقوم بتقديم الشراب، وإني لأوثر أن أقدم ضفدعة ولا أقدم زجاجة من الجعة. إن الشراب كان السبب في الخراب الذي حَلَّ بجسي ... لقد ضاع سدًى، وارتحل مع فرقة البهلوانات حيثما ارتحلوا منذ سنين ...

قال مستر ولاس متسائلًا: إذن تشتتت الأسرة؟

– لقد ذهبوا مع الرياح الأربع منذ ماتت أمك، ولا بد أنك تعلم أن لورا تزوجت من أوهنت توماس، وتعيش في حي ميرفي القديم، وأنهم يفعلون ما في وسعهم للبقاء في صحبة هنفورث مع كسله وإهماله ...!

– أهكذا؟ حسن!

أتراه لقاء صديقين غائبين، أهو عشاء هادئ في بيت أسرة؟! إن الحساء لينتظر ...

وأدركتْهما السيدة ولاس قائلة: حسبنا هذا الآن يا إيفي!

فصاحت إيفي: «آه ...» وتسربت إلى المطبخ.

قال مستر ولاس: معنى هذا أننا كنا أطفالًا نمرح معًا، وكنا نعمل الفطائر من الطين معًا في بركة واحدة، ونجلس جنبًا إلى جنب في مدرسة برينرد، وهي من أسرة هويتلسي وكل مَنْ في برينرد يعرف هذه الأسرة، إنها أسرة كبيرة، ولكنهم أفقر من جرذان الكنيسة، وإن فيهم لدماثة وطيبة.

– إيفي ... إيفي! وهي تقول: إد، إد! ما هذا؟!

– اسمعي يا عزيزتي، ليست هناك ألقاب في برينرد، وكيف لا تدعوني بإد، وما سمعت أحدًا يناديني بغير هذا النداء!

– عليها أن تناديك هنا بغيره، قُلْ لها ذلك.

– الآن. لا تسأليني أن أتكلف في خطاب أحد من أسرة هويتلسي، فإنهم يعرفونني منذ زمن بعيد، وطالما رأتني إيفي في المدرسة في موقف السخرية، ولما زارت منزلنا كأنها فرد من أفراد الأسرة حين كانت والدتي تشكو وتحتاج إلى مَنْ يُعنى بها، وإذا لم تخني الذاكرة، لقد كنت أصحبها إلى معاهد الغناء والحفلات، وإنني لا أستطيع أن أتعالى عليها، إنني لا أستطيع ذلك بحالٍ من الأحوال! وأكره أن تعود إلى برينرد وتقول إنها قابلتني هنا في شيكاجو، وإنني بلغ مني السخف أن أنسى أيامنا فيما مضى، وأنتِ يا عزيزتي لا تعرفين تلك القرى!

– كلا لم يكن لي هذه الحظوة!

– أجل إنها لحظوة من بعض الوجوه، ولكنها تقترن بعقوباتها أيضًا، فليست مجالًا صالحًا لتعليم مَنْ يريد أن يتخرج فيها ظريفًا من ظرفاء المجتمع!

– ليس من الظرف المصطنع أن تُنبِّه إلى الخطأ خادمة تناديك باسمك الأول إد، أوه، كيف هذا؟! إنني ما اجترأت قط أن أدعوك بهذا الاسم.

– لأنكِ لم تقيمي قط في برينرد.

– وأنت تقول إنك كنت تصحبها إلى معاهد الغناء؟!

– أجل يا سيدتي منذ عشرين سنة في برينرد، أيدهشك ذلك؟ إنك قد عرفت حينما تزوجت بي أنني من أبناء الريف ومن الذين شقوا طريقهم، وجاءوا إلى المدينة في ثياب

مجهزة، وإني لأعلم أن ماضيَّ لا يرشحني لأن أكون من النخبة المختارة أو من أعضاء دار الندوة، وإنه لحدث عظيم لو زججت بنفسي في ميدان السياسة!

– إنني لا أنكر أن يكون لك ماضٍ، وإنما أقول لنفسي: ترى ما أظرف الموقف إذا أقمنا هنا سهرة عشاء وجاءتك تدعوك باسم إد ...!

فضرب مستر ولاس على المائدة، وانطلق ضاحكًا.

قالت السيدة ولاس: أظنك لا تكترث بهذا؟!

قال: إن إيفي لا تخل بواجب المقام هنا، ونحن في برينرد قد نخالف التقاليد، ولكننا قد نتعلمها ... هذا [في] حينها!

ولمست السيدة ولاس الجرس فأقبلت إيفي.

وإنها لتقدم الصحفة التالية إذ بمستر ولاس يتعمد تشجيعها بابتسامة وديَّة، وهي تسأله: هل ترد إليك صحف برينرد؟

– أجل، كل أسبوع.

– لقد كانت هنالك أمراض كثيرة، هذا الشتاء، وكتبت إليَّ لورا أن عمك جو كان معتلًّا.

– أظن أنه قد تماثل وعاد إلى عمله.

– خير! خير!

وقفلت عائدة إلى المطبخ.

ثم رجعت تغير الآنية لإحضار الحلوى وقالت: إن مورث كان يبحث عنك البارحة، وقال إنه لم يرك منذ أمد، إن لك هنا منزلًا جميلًا!

وما كاد العشاء ينتهي حتى كانت مسز ولاس قد عقدت عزمها على أن إيفي لا بد أن ترحل، وشعر مستر ولاس بما وراء ذلك الحديث العنيف الذي وجهته إليه زوجه، وقال في نفسه: لا بد لها أن ترحل ولكن بشيء من اللطف والكياسة.

كانت إيفي قد انتهت من تنظيف الآنية، ودخل عليها المطهى مستر ولاس يبادلها الحديث، وزوجه جالسة في الحجرة المقابلة تستمع إلى صدى حديثهما الطويل وهما يتناولان ما مضى من تاريخ الأسرة في برينرد، ويتذاكران الحوادث التي ربما اتصلت بفطائر الطين على شاطئ البركة، والحفلات التي كانا يشتركان فيها بالمدرسة!

لقد كانت السيدة ولاس سليلة تومبي من بلتيمور، وما كان أحد من أسرة تومبي له أقارب بفرجينيا ليطيق أن يتنزل إلى منافسة خادم مطبخ أو يحلم بحدوث شيء من هذا القبيل، فَلِمَ يا ترى تقلق مما يدور بين إد وإيفي من الحديث؟!

إنما شعرت السيدة ولاس بكبريائها تنهار، فقد كانا في الليلة الماضية يتناولان العشاء مع سراة المدينة من آل جاج، ومستر ولاس ملحوظ الجانب في ملابسه المسائية يلمع بهاء وأناقة بين السبعة الذين جلسوا معه على المائدة، وكانت مزهوة به لا تفكر في أنها بعد أربع وعشرين ساعة ترى خادمًا تخرج من المطبخ وتناديه باسم إد!

واستمر الصوت الخافت يتتابع في حجرة المطبخ، وودت السيدة ولاس أن تسير على أطراف قدميها؛ لتستَرِق السمع أو تندفع إلى المطبخ وتخرج مس هويتلسي بإشارة موجزة وتعيدها إلى مركزها الوضيع، ولكنها فكرت في أن مستر ولاس ربما أساء فهم مثل هذه الحركة، وربما غمرها بسخريته واتهمها بالغيرة، فاحتملت على مضض!

وكان مستر ولاس يقف بالباب وفي فمه سيجارة لم يشعلها، إذ كانت إيفي قد منعته أن يدخن في المطبخ، فاستند إلى الباب يفكر في كلام يقوله، ثم قال لها أخيرًا: لماذا لا تذهبين يا إيفي إلى لورا وتمكثين لديها شهرًا أو نحو ذلك؟ إنها لتسر بهذا!

– أعرف ذلك يا إد، ولكني لست روكفلر لأقضي شهرًا بغير عمل، وأجري من هنا لهناك لزيارة أقاربي، إني لأود ذلك ولكن …

– أوه، إني سأحضر لكِ تذكرة إلى برينرد غدًا، وسوف لا تتكلفين شيئًا هناك.

– كلا إنها ليست شيكاجو … هذه هي الحقيقة … إن ريالًا واحدًا يوصلني إلى هناك، ولكن ماذا تفعل زوجتك؟! لقد أخبرتني أنها لاقت تعبًا شديدًا لانفرادها!

– أجل يا إيفي، الحق أنك صديقة قديمة لي، ولا أقبل أن أراك خادمًا مأجورة في منزلي!

– كلا، أظنني الآن خادمًا؛ لقد كنت فتاة مأجورة عند والدتك، أما الآن فإنني خادم، ولا يهمني الاسم الذي تدعوني به ما دمت أقوم بنفس العمل.

– أنت تفهمين ما أعني، أليس كذلك؟ في أي وقت تريدين أن تحضري إلى منزلي تحضرين إليه كصديقة زائرة لا كخادم!

– دَعْ هذه الحماقة يا إد ولاس، إنني أخدمك كما أخدم غيرك، وأخدمك أكثر من سواك!

– ولكني لا أريد أن أرى زوجتي تلقي أوامرها لصديقة قديمة مثلك، لعلك تفهمين ما أعني!

– لا أدري، إني مستعدة للرحيل إذا قلت لي ذلك.

– ها، ها، ها، سأحضر لك التذكرة وتذهبين إلى برينرد غدًا، أتعدينني بذلك الآن؟

قالت وهي مستغربة ما تسمع: إن كان هذا رأيك فإني ذاهبة.

– وإذا عدتِ فإنني سأجد لكِ ما شئتِ من الأماكن لتشتغلي حيث تشائين.

فلما كانت الليلة التالية خرجت إيفي في مركبة وهي تعتذر عن هذه الرفاهية، وقالت وهي تنظر إلى فناء الدار: إنهم سوف لا يصدقونني يا إد ولاس عندما أذهب إلى برينرد.

– بلغيهم تحياتي، وأفهميهم أنني على العهد دائمًا.

– سأفعل ذلك، أستودعكم الله.

– في سلامة الله.

وكانت السيدة ولاس تنظر من النافذة، وقد رأت مس إيفي تتوارى في المركبة.

وقالت: الحمد لله!

قال مستر ولاس — وقد كان فصلًا مرحًا بالنسبة إليه: لقد دعوتها لزيارتنا عندما تعود.

– أَوَ تأتينا زائرة؟!

– بكل تأكيد، لقد أخبرتها أنك تسرين برؤيتها في أي وقت.

– يا لها من فكرة! هل دعوتها حقًّا؟!

– بطبيعة الحال، وإني لعلى يقين بأنها ستفعل.

– وماذا أفعل أنا؟!

– أظنك تستطيعين أن تتدبري الأمر، وإن كنتِ لم تعيشي أبدًا في برينرد.

وعادت السيدة ولاس أدراجها، وهي مزهوة بزوجها، وقالت: سأحاول ذلك!

(٣) ويلا كاثر Willa Cather ١٨٧٦–١٩٤٧

كاتبة شاعرة ناقدة، أسلوبها من أجمل الأساليب، وتعريفاتها التي تفرق بها بين الكتابة الصحفية والكتابة الأدبية من أدق التعريفات.

فالكتابة الصحفية في رأيها كتابة كشف وتفصيل على وجه الصفحات والسطور، بخلاف كتابة الأدب التي توحي بالمضامين، وتبقي لخيال القارئ منادح للشعور لا تستوعبها المحسوسات.

وهذا مثال موجز لتفرقتها بين أغراض الكتابة وأساليبها: وُلدت في ونشستر بفرجينيا، وانتقل بها أبواها إلى الحدود الغربية، وهي في التاسعة، ونمت وهي تختبر الحياة بين أقوام من أمم الشمال والجرمان والكنديين الفرنسيين، وكانت هي من أسرة

منحدرة من أصول إنجليزية أيرلندية ألزاسية، فتهيَّأت لها خبرة وافية لدراسة الأمم والشخصيات قلما تتهيَّأ لناشئ صغير في وطن محدود، وقد تعلمت من الحياة حتى دروس الكتب، لأنها نشأت في أمكنة لا تتوافر فيها مدارس الأطفال، فتلقَّنت من الأسرة وجيرانها مبادئ الكتابة واللغة، إلى أن بلغت سن التعليم الجامعي فانتظمت في جامعة نبراسكا، وتخرجت فيها وهي دون العشرين.

عملت في الصحافة والتعليم، وشغفت بالموسيقى والسياحة، وقرأت كثيرًا من الأدب السلفي ومن الأدب الأمريكي، وأعجبت بالشاعر الكبير ويتمان وبالروائي هنري جيمس، ولها كتاب عن الرواد اقتبست عنوانه من عنوان قصيدة لويتمان، ولخصت فيه سر إعجابها بهؤلاء الرواد الفاتحين للبراري والمجاهل، فقالت: إنهم هم القوم الذين جعلوا نشدان الثروة «نصرًا أخلاقيًّا» لأنهم يحققون «النجاح المادي» بخلق العمار بأيديهم وتذليل المصاعب بعزيمتهم، ورياضة الطباع على الصبر والثبات. وقصتها التالية عن «مسألة بول» نقد اجتماعي لحياة المدينة التي تستغوي الناشئة مِمَّنْ فقدوا حنان الأمهات، وهي خير تطبيق لمذهب العلاج النفساني الذي يداوي من العلة بكشف أسبابها ودواعي الوقوع فيها، من غير تنبيه الذهن إلى قصد التعليم والإرشاد، أو تبديل الوقائع للوصول بهذا التبديل إلى موقع العظة والاعتبار.

ولعل القصة نفسها من مشاهداتها بين المدرسة وأندية الموسيقى … وقد عاشت للأدب والفن ولم تتزوج، واختارها معهد الأدب الأمريكي عضوًا له وهي في الثانية والخمسين.

(٣-١) مسألة بول

كان بعد الظهر، هذا هو الموعد الذي يتقدم فيه بول إلى مجلس مدرسة بتسبرج الأعلى للمحاسبة على أخطائه المتعددة، وكان قد صدر الأمر بوقفه منذ أسبوع، وجاء أبوه إلى مكتب المدرسة يعترف بحيرته في أمر ولده، ودخل بول حجرة المجلس مترفقًا يبتسم، وكانت ملابسه قد صغرت عنه قليلًا، ولون المخمل الذي في قلابة المعطف قد نصل وتغير، ولكنه على هذا كان يبدو في مظهر المتأنق، ويضع فصًّا من جوهر عين الهر في قلادته المرقطة، وقرنفلة حمراء في عروته، مما لاح كأنه شيء لا يناسب حالة القلق التي تعتري طالبًا تحت شبهة الاتهام والعقاب!

وكان بول أطول من سنه، نحيفًا شديد النحافة، مرتفع الكتفين ضيق الصدر، تلمع عيناه لمعة عصبية، ويديرهما عامدًا على نحو ينمُّ على العدوان والاجتراء من فتًى مثله، ولهما بؤبؤان واسعان كأعين المدمنين لبعض المخدرات، لولا تلك السطعة البلورية التي لا تكون للمدمنين!

ولما سأله الرئيس: ماذا ساقه إلى ذلك الموقف؟ أجاب في أدب جم: إنه يريد العودة إلى المدرسة، وكان هذا كذبًا منه تعوده، واعتقد أنه لازم لاجتناب الصدام!

وسُئِل معلموه أن يشرحوا شكاياتهم منه، فبسطوها في مضض واستياء ينبئان عن مسألة من غير المسائل المألوفة، وعددوا من التهم الاختلال والقحة، وأحس كل منهم صعوبة تصوير المشكلة معه بالكلم الواضح المحدود، فإنما كانت المشكلة ضربًا من التحدي العصبي أو ضربًا من الازدراء الذي يشعرون أنه يكنُّه لهم أجمعين، ولا يلوح عليه أنه يحاول إخفاءه أقل محاولة … فاتفق مرة أنه كان يلخص عبارة على السبورة، فاقتربت منه مدرسته الإنجليزية لتأخذ بيده في كتابتها، فارتد بول إلى الوراء متبرمًا، وثنى يديه وراء ظهره بعنف وشدة، وأحست المرأة المذهولة أنه لم يكن خليقًا أن يؤذيها أشد من هذا الإيذاء لو أنه ضربها، وكانت الإساءة مصطبغة بالصبغة الشخصية التي لا تنسى! وهكذا كان يغضب معلميه بأمثال هذه الإساءات، رجالًا ونساء، ويشعرهم جميعًا بنفوره واشمئزازه، فكان في حصة من الحصص يجلس ويظلل عينيه بيديه، وفي حصة أخرى ينظر إلى النافذة خلال الإلقاء، وفي غيرهما يعلق على الدرس تعليقًا مقتضبًا يشف عن السخرية!

وأحس أساتذته في ذلك الأصيل أن إساءاته جميعًا قد تلخصت في ارتفاع كتفيه، وتصدير القرنفلة الحمراء في عروته، فانهالوا عليه بغير شفقة، وفي طليعتهم المدرسة الإنجليزية، وكان هو يستمع إليهم مبتسمًا وقد انفرجت شفتاه الصفراوان عن ثناياه البيض، وكان من عادته أن ترتجف شفتاه ويرتفع حاجباه إشارة من إشارات الاستخفاف غاية في الإساءة والإيذاء، وإن غيره من الصبية الذين هم أسن منه لينكسرون وينفجرون بالبكاء في مثل موقفه، ولكنه هو لم تفارقه ابتسامته المتكلفة لحظة، ولم يكن يَظهر عليه من دلائل الامتعاض إلا ارتجافة أصابعه، وهو يعبث بأزرار المعطف، أو ارتجاف أصابعه التي يحمل بها قبعته!

كان يبتسم على الدوام، ويجيل لحاته على الدوام، باديًا عليه أنه يحس أن الناس يراقبونه، ويجتهد في استكناه شيء من وراء نظراتهم، وكان هذا المظهر المتعمد بعيدًا غاية البعد من مرح الصبا، فكان من يراه يعزوه إلى القحة والتكلف!

وفي أثناء المحاكمة روت إحدى المعلمات عبارة وقحة وجهها إليها، فسأله الرئيس: أتظن أن هذه العبارة مما يحسن توجيهه إلى سيدة؟! فما زاد بول على أن هزَّ كتفيه وعقد حاجبيه، ثم قال: لا أعلم، فإنني لم أقصد المجاملة، كما أنني لم أقصد سوء الأدب، وأحسبه أسلوبًا من الأساليب التي تعودتها غير عامد!

وسأله الرئيس: ألا ترى أنه أسلوب من الحسن تركه واجتنابه؟

فابتسم بول وقال: أظن!

ولما قيل له إنه يستطيع أن ينصرف، انحنى في أناقة ومضى. فكان ذلك الانحناء الأنيق منه كأنه تكرار لفصل القرنفلة الحمراء.

وكان معلموه في قنوط، وكأنما عبر معلم الرسم عن شعورهم جميعًا حين قال: إنه يحسب في طبيعة الصبي شيئًا غير مفهوم، ولا يخال أن هذه الابتسامة من محض القحة وسوء الأدب، فإنها محفوفة بعارض من الغموض، وليس الصبي قويًّا سليمًا، فلا بد من سر هناك!

وخلص معلم الرسم إلى ملاحظة عن أسنان بول البيضاء ولمعان عينيه المغتصب، وقال: إنه رآه يومًا نائمًا في المرسم، فلفت نظره امتقاع لون وجهه، وزرقة العروق مع الثنايا المحيطة بعينيه، مما يستغرب في مثل سنه، وأن شفتيه تختلجان حتى خلال الرقاد!

وشعر المعلمون أن المجلس يخامره الأسف والأسى، وأنهم غير راضين عن أنفسهم لشعورهم بالنقمة من صبي كهذا، وانطلاقهم في التهم وتسابقهم في المطاردة، وخطرت لأحدهم صورة قطة كان قد رآها في الطريق يناوشها المطاردون ويسدون عليها الفجاج ...

أما بول فإنه راح يهبط التل عدوًا، ويصفر بنشيد الجند في رواية فاوست، ناظرًا خلفه من حين إلى حين نظرة مجفلة، عسى أن يلمح بعض أساتذته وهو يراه في خفته وقلة اكتراثه، وكان الوقت قد تأخر أصيلًا، وبول صاحب النوبة في الاستقبال بقاعة كارنيجي، فاعتزم ألا يذهب إلى منزله للعشاء.

لم يكن الباب قد فُتح حين وصل إلى جانب القاعة، وكان الجو قارسًا خارجها، فاعتزم الصعود إلى رواق الصور الذي يخلو من الزوار في ذلك الموعد، وذهب إلى حيث كانت في الرواق نخبة من دراسات رافلي المرحة لشوارع باريس وصور شفافة زرقاء أو صورتان من صور البندقية تعجبانه، وسره أن يرى القاعة خالية إلا من الحارس الهرم الذي كان يجلس في ركنه وعلى ركبته صحيفة، وقد أقفل إحدى عينيه وظهرت فوق عينه الأخرى بقعة سوداء!

واستولى بول على المكان ذاهبًا آيبًا يصفر في ثقة وطمأنينة، ثم جلس بعد هنيهة أمام صورة من الحجر المكسيكي، وغاب عن نفسه، فلما التفت إلى ساعته يتعرف الوقت كانت قد بلغت السابعة، فأسرع إلى السلم وجعل يلعب وجهه سخرًا أمام تمثال أغسطس قيصر البادي من حجرة النحت، ويرمق تمثال فينوس شزرا حين عبره على طريق الدرج!

كان في حجرة الملابس ستة من الصبيان حين وصل إليها، فأخذ يولج نفسه في كسوته مضطربًا، وكانت إحدى الكُسَى القلائل التي توائم لابسها، ويحسبها بول لائقة عليه، وإن كان معطفها المشدود يكشف عن ضيق صدره الذي كان دقيق الحساسية من نحوه، وكان على الدوام يضطرب حين يلبس متخبطًا على إيقاع الأوتار ونفخات الأبواق التجريبية في قاعة الموسيقى، ولكنه في هذا المساء لم يكن يملك نفسه، فراح يعاكس الصبية ويناوئهم، حتى رموه بالجنون وألقوه على الأرض وجلسوا فوقه.

وهدأته هذه الرمية، فاندفع إلى مقدمة الدار يجلس القادمين المبكرين، وكان مستقبلًا مثاليًّا يجري هنا وهناك مبتسمًا متلطفًا، لا يستكثر تعبًا في عمله، وهو يحمل من هنا رسالة ويحمل إلى هنا برنامجًا، كأنها عنده متعة الحياة، وكل من رأوه في مشقة عمله أحسوا أنه صبي لطيف يذكرهم ويعجب بهم. وينشط كلما ازدحمت الدار، فتتورد وجنتاه وشفتاه، وكأنما هو استقبال فخم، مضيفه الذي يرحب به هو بول!

وإن الموسيقيين ليستوون في مقاعدهم إذا بالمعلمة الإنجليزية قد حضرت بتذكرة للمقاعد التي يحجزها أحد أصحاب المعامل الكبار في الموسم، فارتبكت قليلًا حين وقع نظرها على بول، وأسلمته التذكرة مترفعة، ثم لم تلبث أن استحمقت من نفسها ذلك الترفع، وأجفل بول إذ رآها، فهمَّ أن يبعدها مستغربًا أن تكون هنالك بين هؤلاء الظرفاء والظريفات بملابسها الزرية، ولكن التذكرة ولا شك قد وصلت إليها من قبيل الرحمة والإشفاق! وخطر له ذلك وهو يهيئ لها مكانًا يحق لها أن تشغله كما يحق له حيث كان.

ولما بدأت الموسيقى غاص بول في كرسي خلفي وغاب عن وعيه، كما فعل منذ هنيهة في رواق الصور، ولم يكن ذاك لأن ألحان الموسيقى تعنيه أية عناية، ولكنه استراح عندما سمع أول نفثة من آلاتها، وشاعت في حناياه خلجة منعشة، خلجة كأنها خلجة الجني التي أحسها الصياد العربي في القمقم، وانبعثت فيه دفعة حية، وتراقصت الأضواء أمام عينه، وسطعت القاعة برونق يفوق مدى الخيال، ولما اشتركت الأحاديث — ترجمة لكلمة منولوجست الذي يلقي دوره منفردًا — بنغمة «السبرانو» استسلم بول لنشوته الخاصة التي تحركها فيه مثيلاتها، واتفق أن المغنية كانت امرأة ألمانية ليست على كل حال بالفتية

في ريعان الفتوة، ولها أطفال كثيرون، إلا أنها كانت تلبس ثوبًا من الحرير، ويزدان رأسها بإكليل جميل، وتحفُّ بشخصها تلك الهالة التي تُستعصى على البيان، وتشفُّ عن النضج والتمام، وما تشعه عليها النظرات العالمية من أشعة تحجب عن بصره كل عيب مظنون!

إن بول ليشيع في نفسه الهياج والابتئاس عقب كل دور من أدوار الموسيقى، فلا يهدأ حتى يذهب فينام، وكان قلقه في تلك الليلة خاصة أشد من قلقه في سائر الليالي؛ إذ كان يحس أنه عاجز عن تسكين سورته، وأنه لا يطيق أن يترك تلك النشوة اللذيذة التي كانت عنده دون غيرها جديرة أن تحسب من الحياة، وفي أثناء العزفة الأخيرة تسلل من المكان، وبدَّل ملابسه على عجل، وانفتل إلى الباب الجانبي حيث تقف مركبة المغنية، ثم راح يتمشى جيئة وذهابًا مسرع الخطا، مترقبًا أن يراها وهي خارجة!

وكان بناء «شنلي» من ثمة يتراءى في شكله القائم ضخمًا رصينًا خلال الرذاذ، تسطع الأضواء من نوافذه في طباقه الاثني عشر، كأنها لعبة الورق تحت شجرة عيد الميلاد، وفي هذا البناء يقيم كل ممثل وممثلة، وكل مغنٍّ ومغنية من ذوي الصيت حيثما حضروا إلى المدينة، كما يقيم فيه ذوو المصانع الكبار أيام الشتاء، وطالما وقف بول هنالك يتتبع الداخلين والخارجين ويتمنى لو يتاح له أن يعيش هناك ويودع المعلمين وشواغلهم المملة حيث يعملون!

ثم خرجت المغنية أخيرًا يصحبها المدير الذي ساعدها وهي تركب، وأقفل باب المركبة يحييها مودعًا تحية ملؤها الودُّ والعطف جعلت بول يسائل نفسه: عساها كانت عشيقة له من قبل!

واقتفى المركبة إلى الفندق مهرولًا كي يقترب من المدخل ولا يكون بعيدًا منه حين تهبط المغنية من المركبة، ونزلت المغنية ثم اختفت وراء الباب الزجاجي الدوار حيث فتحه لها زنجي في معطف طويل على رأسه قبعة عالية، وخُيِّل إلى بول أنه هو أيضًا قد دخل معها ورافقها على السلم إلى الحجرة الدافئة الوثيرة والعيشة الوادعة الرخية، وأرسل خياله يتصور الصحاف اللامعة والقناني الخضر المثلجة التي يؤتى بها إلى حجرة المائدة، كما يراها في ملاحق صحف الآحاد. وانهمرت دفعة من الريح فجأة بسيل من المطر الغزير، فارتاع بول إذ تنبه إلى موقفه هناك على الحصباء، مبتل الحذاء لاصقًا به معطفه المبلل الهزيل! ورأى النور أمام الملعب قد انطفأ والمطر يرسل بينه وبين النوافذ البرتقالية اللامعة ستارًا من الماء. وها هو ذا ينظر إلى ما يشتهيه ماثلًا أمامه كأنه زفة

ليلة عيد الميلاد السحرية وهو واقف حيث يصك المطر وجهه يتساءل في قرارة خاطره: أتراه مقدورًا له أن يقف ثمة أبدًا يرتعد ويتطلع فوقه في جوف الليل البهيم؟!

ثم استدار فمشى على رغمه إلى ناحية المر الذي تعبره المركبات، ولا بد مما ليس منه بد في خاتمة المطاف: أبوه في ملابس النوم على رأس السلم، وأعذاره ليست بأعذار، وتلفيقات مخترعة لا تزال تتوارد على ذهنه، وحجرته العليا بورقها المصفر الكريه على الجدران، والمنضدة الصرارة الوضرة، ومن فوقها صورة جورج واشنطون وصورة جون كلفن والكلمة المحفورة، «أطعم خرافي» بلونها الأحمر كما كتبتها أمه فيما يعلم، وليس في ذاكرته منها أثر.

وبعد نصف ساعة نزل بول من إحدى مركبات شارع «نيجلي» ومشى متمهلًا إلى أحد الأزقة المتفرعة على الطريق العام، وكان هذا الطريق من الطرق المحتشمة، تقوم مساكنه على نسق واحد حيث يعيش أصحاب الأعمال من الطبقة الوسطى بين ذويهم وأطفالهم، الذين يذهبون إلى مدارس الأحد، ويستظهرون الأجوبة الدينية المختصرة، ويحتفلون بدروس الحساب، ويلوحون كمساكنهم أشباهًا في كل شيء وفقًا للمكان الرتيب الذي يعيشون فيه!

ولم يكد بول يذهب قط إلى شارع كورديليا حتى أحسَّ للمنظر قشعريرة من النفرة والكراهية؛ إذ كان بيته مجاورًا لبيت القسيس، فاقترب منه تلك الليلة خاصة يملؤه شعور متبلد بالهزيمة وإحساس قانط بالرجعة الدائمة إلى جو الدمامة والبذاذة الذي يطبق عليه كلما قارب بيته، وما انحرف إلى شارع كورديليا حتى أحسَّ المطر فوق رأسه، وشاع في حناياه ذلك الهمود الذي يغشاه على أثر كل ملهاة قاصفة من ملاهيه تلك، كأنه الهبوط البدني الذي يعقب كل إسراف! سرر متواضعة، وأغذية شائعة، ومسكن ينضح بروائح المطبخ، ونفرة من كل ما لا طعم له ولا لون له ولا مزية فيه من أنماط المعيشة المتكررة كل يوم على وتيرة واحدة، واستولى عليه شوق جامح إلى كلِّ وثير مصقول وإلى الأنوار الناعمة والرياحين النضرة المطلولة!

وكلما اقترب ناحية البيت تجسمت فيه تلك النفرة من كل ما تقع عليه العين هنالك؛ من حجرة نومه الشوهاء، وحجرة الحمام الباردة، وإجانتها الكالحة القصديرية — طشت الغسيل — ومرآتها المشدوخة والفوهات المثرثرة. وأبوه هنالك على رأس السلم يطل شعر ساقيه من قميص النوم وقدماه في مداسه المعهود من وبر السجاد!

لقد تأخر تلك الليلة عن موعده فوق ما تعود، فلا مناص من الأسئلة والتأنيبات المألوفة، فتريث عند الباب، وبدا له أنه غير مستطيع تلك الليلة أن يتعرض للموشح

المنتظر، وأن يتقلب على السرير الحقير، غير مستطيع أن يدخل، وسيخبر أباه أنه لم يجد أجرة السيارة، وأنه وجد المطر غزيرًا، فذهب مع صديق له إلى منزله وبات لديه.

إلا أنه كان مبتلًا متبردًا فدار حول المنزل إلى خلفه، وعالج الدخول من إحدى النوافذ فانفتحت، وتسلق في حذر ثم هبط من جدار قبو الطعام إلى البلاط، وهنالك وقف يمسك أنفاسه مذعورًا من وقع حركاته، فلم يسمع صوتًا فوقه ولم يسمع صريرًا على السلم ووجد على مقربة منه صندوق صابون فحمله إلى شريط النور الذي كان ينفذ إلى المكان من باب الفرن وجلس عليه، وكان من طبعه الفزع من الجرذان، فلم يحاول أن ينام في موضعه، بل جلس متوجسًا ينظر إلى الظلام ولا يزال على وجل أن يكون قد أيقظ أباه!

في أمثال هذه المآزق، بعد التجارب التي تلف عليها الليالي والأيام، حول أوقات التقويم الموحشة، إذ تصاب حواسه بالكلل، يظل رأسه صحوًا على الدوام؛ ماذا لو كان أبوه قد سمعه وهو يتسلق إلى النافذة وأطلق النار عليه يحسبه من لصوص الليل؟ بل ماذا لو كان أبوه أقبل نازلًا وفي يده المسدس فصاح يبغي النجاة، وأجفل أبوه رعبًا إذ يرى أنه أوشك أن يقتله؟ بل ماذا لو جاء يوم بعد ذلك فذكر أبوه تلك الليلة، وود لو أنه لم يكن سمع الصيحة التي كفت يده عن إطلاق النار ...؟ وعلى هذا الخاطر بقي بول يكبحه في نفسه حتى الصباح.

كان يوم الأحد التالي جميلًا تسري في هوائه نفحة من بقايا الخريف الصيفي تدفئ جو نوفمبر القارس، وكان على بول أن يذهب إلى الكنيسة يوم الراحة كما هي العادة، وكان من دأب سكان شارع كورديليا أيام الأحد المصحية أن يجلسوا بعد الظهر أمام المنازل على مقاعدهم المنقولة، ويتكلم كل منهم إلى جاره على المقعد القريب أو ينادي بعضهم بعضًا من شاكلته إلى شاكلته في ألفة الجيران والأحباب. فيقعد الرجال على الحشايا المزركشة التي توضع على الدرج الهابط إلى المشاة، على حين يقعد النساء في صدارات الأحد على الكراسي الهزازة فوق الطنف، مظهرات غاية الرضا والغبطة بمجالسهن، ويلعب الأطفال في الشوارع وهم كثار يخيل إلى الناظر إليهم أنه أمام روضة من رياض الأطفال، وترى الرجال الذين على الدرج قد حلوا عرى قمصانهم، ولَوَوْا أكمامهم، وانفرجت سوقهم، وامتدت أكراشهم أمامهم، وراحوا يتحدثون عن الأسعار أو يروون النوادر المستطرفة عن لباقة رؤسائهم أو أصحاب أعمالهم، ويلتفتون لحظة بعد لحظة إلى جمهرة الأطفال اللاغطين، وقد تعالت أصواتهم الخنفاء، ناظرين إليهم نظرات الحنان متفرسين أشباههم تتوارثها ذريتهم، مستعيدين في الذاكرة تبليغات الأساتذة عن درجاتهم المدرسية وتقدمهم في الفصول، مع ما يحكونه لهم من أساطير ملوك الحديد.

وجلس بول بعد الظهر يوم الأحد الأخير هذا على أسفل الدرج يحملق في الطريق، وأخواته على كراسيهنَّ يتحدثن إلى بنات القسيس في الدار المجاورة عما صنعن من القمص خلال الأسبوع، وعما أكله بعضهن في عشاء الكنيسة الأخير. ويصنع البنات شراب الليمون إذا سخن الجو وبدت على أبيهن أمارات الرضا والانشراح، فيحضرنه على الدوام في قارورة حمراء تزينها الأزهار على منديل مطرز الحواشي، وكان البنات يحسبنه لهوًا ظريفًا أن يمزح الجيران معهن حول ما في لون القارورة من المعاني والإشارات!

وفي ذلك اليوم كان والد بول على أعلى الدرج مشغولًا بالحديث مع فتًى يحمل طفلًا فوق ركبتيه، وينقله من ركبة إلى ركبة لحظة بعد أخرى، واتفق أنه كان الفتى الذي تعوَّد المعلمون أن يتخذوه مثلًا يحتذي به بول، محمر الطلعة مضغوط الفم ضعيف النظر يضع على عينيه نظارة يدور سلكها الذهبي على أذنيه، وكان كاتبًا لتاجر كبير من تجار الصُّلب، معدودًا في الشارع من الشبان ذوي المستقبل! ومن أقاصيصهم عنه أنه منذ خمس سنوات — وهو الآن لا يزيد على السادسة والعشرين — كان من شبان الهوى بعض الشيء، فأشفق من عواقب المجون، وبادر إلى الزواج عملًا بنصيحة رئيسه، كبحًا لنزواته، فاختار أول فتاة رضيته، وكانت مدرسة نحيلة تكبره سنًّا، وتضع مثله النظارة على عينيها، فولدت له حتى الآن أربعة أطفال كلهم قصار النظر على مثالها!

وفي ذلك اليوم كان الفتى يقص أخبار رئيسه الذي كان يومئذٍ يسبح على شواطئ البحر المتوسط ويتلقى المعلومات يومًا يومًا منه عن سير العمل، فيقول كيف أنه يرتب أوقاته على اليخت كأنه في البيت، وكيف يشغل بإملائه كاتبين على الآلة الكاتبة. أما والد بول فكانت قصة حديثه عن مشروعات الشركة التي يعمل فيها لتسيير سكة الكهربا بشوارع مدينة القاهرة، فجعل بول يصرف أسنانه ويتوقع أن ينقلب المجلس قبل أن يفضي إليه، بيد أنه كان يحب أن يصغي إلى تلك الأساطير عن ملوك الحديد، يعيدونها من أحد إلى أحد، وإلى أخبار القصور في البندقية وسفن اليخوت على شواطئ البحر المتوسط، وموائد اللعب في مونت كارلو، ويقع هذا الحديث موقع الارتياح في مخيلته، ويشوقه ما يقال عن موظفي الصندوق والفتيان الذين وصلوا من صناعة الصيرفة إلى الشهرة، وإن لم يكن من همه أن يعمل صيرفيًّا على صندوق.

وبعد العشاء راح مع أخواته يجفف الصحاف، ويسأل أباه مضطربًا: أيسمح له أن يذهب إلى جورج ليستعين به على بعض مسائل الهندسة، وسأله باضطراب فوق اضطرابه ذاك: أيعطيه أجرة السيارة؟ واضطر إلى إعادة السؤال الأخير لأن أباه كان يكره

أن يسمع سؤالًا يتعلق بالفلوس كثرت أو قلت. فقال أبوه: أليس في وسعه أن يذهب إلى تلميذ قريب من الدار؟ ثم نهاه أن يؤخر عمل المدرسة إلى يوم الأحد، إلا أنه أعطاه الأجرة المطلوبة.

ولم يكن أبوه فقيرًا ولكنه كان يطمع أن يصبح شيئًا في العالم، ولم يأذن لبول أن يعمل في قاعة الموسيقى إلا لأنه كان من مذهبه أن يحصل الولد على بعض الكسب كائنًا ما كان!

صعد بول قفزًا على السلالم، فمسح من يديه وضر الصحاف وغسلَهما بالصابون الذي يكرهه لرائحته الرديئة، ورشَّ على أصابعه قطرات من ماء البنفسج الذي يخفيه بقارورته في درجه، وغادر المنزل وكتاب الهندسة تحت إبطه، وما كاد يفارق شارع كورديليا ويركب السيارة إلى المدينة حتى نفض عنه فتور يومين كاملين، وثاب كرة أخرى إلى الحياة.

وكان رئيس فرقة الشبان التي تمثِّل في أحد المسارح بالمدينة من معارف بول، وقد دُعي إلى الإنشاد ليالي الآحاد كلما تيسر له الحضور، وقد مضى أكثر من سنة على بول وهو يقضي كل وقت ممكن حول حجرة ملابس شارلي إدوارد، وكان له بعض الحظوة في صحبته، لا لأن الممثل الشاب لم تكن له طاقة باستخدام وصيف يساعده في اللبس، بل لأنه أنس من بول نوعًا من «الصلاح» الذي يشبه ما يسمى في عُرف الكنائس بالهداية!

وإنما كان بول يعيش حقًّا في المسرح وقاعة كارنيجي، أما ما عدا ذلك فللنوم والنسيان، ذلك كان «سر» بول الذي كان له في نفسه ما لسر الغرام الخفي، وما هو إلا أن يستنشي نكهة العشب والطلاء والمساحيق المتناثرة، حتى يحسَّ إحساس السجين إذ يتنسم نسمات الحرية ويشعر من نفسه كأنه قادر على الكلم البارع والعمل العجاب، ولا تكاد الفرقة الموسيقية تستهل العزف حتى تصدر منه السخائف والمضحكات، وتلتهب حواسه ولكنه التهاب لذيذ!

ولعله لاقتران الحياة الطبيعية بالقبح على الدوام في نظر بول كان «العنصر الصناعي» ضروريًّا عنده للجمال، أو لعله لامتلاء حياته في غير هذه البيئة بمدارس الآحاد، والأذكار الدينية، وصغائر النفقة، ونصائح النجاح في المعيشة، كانت هذه البيئة جذابة له بالحلل الأنيقة التي يلبسها الرجال والنساء، وبتلك التفاحات أو الثريات التي تلمع على الدوام تحت أشعة الضياء!

ومن العسير أن نبالغ في تصوير شعوره بالأفق السحري الحق كلما عبر باب المسرح، فلا شك أن أحدًا من الرفقة لم يكن يتنبه لهذا الشعور في طواياه، وبخاصة شارل إدوارد،

فقد كان هذا أشبه بالأقاصيص القديمة التي كانت تحفُّ باسم لندن الخفية، وما احتوته من أولئك اليهود الخرافيين ذوي اليسار الذين يلوذون تحت الأرض بالسراديب ذات النخيل والأعشاب، والنوافير والقناديل، والحور الحسان في الحلل والطيالس، مقصورات تحت الأرض لا يبرزن إلى النور، وكذلك كان بول يجد هيكله المسحور، وبساطه الطيار، وفص الأماني والأحلام، بين تلك الشخوص والدواخن، ويعاين فيها ما يحلم به في شواطئ البحر المتوسط السابحة في الأضواء.

ولقد حسب كثير من معلميه أن خياله قد اختل بقراءة الأساطير وغرائب الأقاصيص، ولكنه في الواقع لم يكن يقرأ إلا قليلًا أو أقل من القليل، ولم تكن الكتب الميسرة له في البيت مما يغريه أو يفسد عقل الفتى إذا اطلع عليه، أما الروايات التي كان بعض أصحابه يستميله إليها فقد كانت بغيته من أمثالها تتحقق بالإصغاء إلى الموسيقى: أي موسيقى من الفِرق العازفة إلى أرغن الطريق. وكل ما كان يحتاج إليه شرارة تنقدح ثم يستولي خياله على حسِّه ويتكفل لنفسه بالصور والنوادر من خلقه وتوليده، كذلك لم يكن بول مفتونًا بالمسرح على النحو المفهوم من هذه العبارة؛ إذ لم يكن من أمانيه أن يشتغل بالتمثيل، ولا أن يشتغل بالموسيقى، ولم تنبعث فيه رغبة قط في صنيع من هذا القبيل، وإنما كان همه كلُّه أن يرى وأن يُحاط بذلك الجوِّ، ويسبحَ على أمواجه، ويذهبَ مرحلةً في أثر مرحلةٍ بعيدًا بعيدًا من كل شيء!

وكلما قضى ليلة بين هذه المناظر عاد إلى المدرسة أشدَّ نفورًا وكراهة مما كان؛ ذلك البلاط العاري، وتلك الجدران الجرداء، وأولئك القوم الذين لم يلبسوا قط حلة السهرة، ولم يضعوا قط زهرات البنفسج في عروة رداء، وأولئك النسوة في مآزرهن الكابية وأصواتهن الناشزة، وجدهن الصغير حول قواعد الآجرومية والإعراب! وكان لا يطيق أن يتخيل التلاميذُ الآخرون أنه يهتم جدًّا بهذه الخلائق، ولا بد له أن يوقع في روعهم أنه مستخف بهم، وإن مقامه بينهم إنما هو محض سخرية ومزاح، وقد كانت عنده صور مهداة إليه من جميع أعضاء الفِرق المسرحيين، يريها لزملائه ويحدثهم عن ألفته لأصحابها أعجب الأحاديث التي لا تُصدق، ويحكي لهم ما يروقه عن صداقته للمغنيات اللائي يأتين إلى قاعة كارنيجي، وموائد العشاء معهن، وباقات الزهر التي يرسلها إليهن، فإذا فقدت هذه الحكايات فعلها في نفوس زملائه، ولم يكترث لها سامعوه منهم، ودَّعهم وانصرف، وهو يزعم لهم أنه ذاهب إلى سياحة بين نابلي وكاليفورنيا ومصر، ثم يعود يوم الاثنين التالي مبتسمًا، شاعرًا بموقفه، معتذرًا بمرض أخته الذي ألجأه إلى تأخير السفر وإرجاء السياحة إلى الربيع.

وظلت الأمور تزداد سوءًا مع بول في مدرسته وبين زملائه ومعلميه، تستفزه الرغبة في إشعار معلميه أنه يحتقرهم وأن له مكانة ومكانًا بين سواهم، فيقول إنه لا يستطيع أن يفرغ وقته لهذه النظريات والقضايا، ويضيف إلى ذلك وهو يزوي حاجبيه ويمزج كلامه بتلك اللهجة المرتفعة التي تحيرهم أنه مشغول بمساعدة القوم في الفِرقة الموسيقية، وأنهم أصدقاء له قدماء!

ثم انتهت المسألة بذهاب الرئيس إلى والد بول، وإخراج بول من المدرسة ليؤدي عملًا من الأعمال، وقيل لمدير قاعة كارنيجي أن يبحث عن حاجب مستقبل غيره، وقيل لبواب المسرح ألا يدخله إذا جاء، ووعد شارل إدوارد على أسف منه ألا يقابله بعد ذلك، وقد كانت قصة بول تسلية وفكاهة لأعضاء الفِرقة حين سمعوا بها، ولا سيما النساء، فإنهن جميعًا نساء عاملات جادات يعملن ليعُلْنَ أزواجًا كسالى أو إخوة عاطلين! وقد ضحكن كثيرًا — وإن يكن ضحكًا تخالطه المرارة — لأنهن دفعن الصبي على غير علم منهن إلى اختراع تلك النوادر، ووافقن إدارة المدرسة ووالد بول على أنه مثل رديء.

كان قطار الشرق يخترق عاصفة ثلجية من عواصف يناير حين أخذت أشعة الفجر الراكد تتسرب إلى الأنظار، وصفَّر القطار على مسافة ميل من نيويورك، فانتفض بول على مقعده حيث كان متحويًا في نومةٍ قلقةٍ، ومسح بكفه زجاج النافذة وأطلَّ يستطلع ما وراءه.

كان الثلج يتساقط لفة لفة على الأرض المبيضة مما تراكم عليها وعلى الحواجز، إلا أطرافًا من الحشائش الميتة تطلع رءوسها من فوق تلك الثلوج المتراكمة، ولاحت الأضواء من المنازل المبعثرة، وراحت طائفة من العمال على الطريق تلوح بمصابيحها.

ولم ينم بول غير قليل، فأحسَّ في نفسه الكدر والتعب، وكان قد عبر مسافة الليل في مركبة صباحية؛ لأنه خشي إذا هو سافر بمركبة البلمان أن يقع عليه نظر رجل من رجال الأعمال في بتسبرج رآه بمكتب دني وكارسون، فلما أيقظته الصفارة أسرع بيده يلمس جيب صداره ويدور ببصره، وهو يبتسم ابتسامة مترددة … وكان الإيطاليون الصغار الملطخون بالطين لا يزالون مستغرقين في النوم، والنسوة الحشفات في الممشى يفغرن أفواههن، وسكت حتى الأطفال الصاخبون الذين لا ينقطعون عن البكاء، فحاول بول أن يغالب قلقه ما استطاع.

فلما وصل إلى محطة جرسي تناول طعام الإفطار على عجل وامتعاض، وهو لا يكف عن النظر إلى ما حوله، ثم نزل بعد محطة الشارع الثالث والعشرين فدعا بسائق، وركب

معه إلى دكان من دكاكين اللوازمات للرجال، لم يكد يفتح بابه في أول النهار، فقضى ثمة أكثر من ساعتين مدققًا مبالغًا في تدقيقه، ولبس كسوته الخارجية الجديدة في المقصورة، وطوى معطفه وسائر ملابسه في المركبة مع قمصانه الجدد، ثم ركب إلى دكان للقبعات والأحذية، وكانت وجهته التالية إلى «تيفاني» حيث انتقى بعض الفرش المفضضة ودبوسًا للقاع لم ينتظر ريثما تنقش على فرشته علامتها، بل ذهب إلى دكان الحقائب فوضع مشترياته في أكياس متفرقة من أكياس الأسفار.

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بقليل، فركب إلى «والدورف» وولج باب المكتب بعد محاسبة الحوذي، وكتب أمام اسمه أنه قادم من واشنطون، وزعم أن والديه مسافران في الخارج، وأنه قدم لانتظار وصولهما على الباخرة، وحكى قصته هذه بغير ريبة، فقوبلت بغير مشقة؛ لأنه عرض عليهما أن يدفع الأجر عنهما سلفًا، واستأجر حجرة للنوم وأخرى للجلوس مع الحمام!

ولم يكن بول قد رسم هذه الخطة للسفر إلى نيويورك مرة واحدة، بل مائة مرة، وكان قد راجع تفصيلاتها مع شارلي إدوارد، وعنده في دفتره بالدار صفحات وافية بوصف فنادق نيويورك مقطوعة من صحف الآحاد.

ولما قادوه إلى حجرة الجلوس التي اختارها في الطبقة الثامنة، وجد كل شيء على ما يرام، لا يعوزه من الصورة التي رسمها في ذهنه إلا الأزهار والرياحين، فدق الجرس للغلام وأرسله في طلب باقة منها، وظلَّ يحوم قلقًا حتى رجع إليه الغلام، فجعل يخلع ملابسه الجديدة ويجسها بأصابعه في ارتياح، فلما جاءته الباقة أسرع فوضعها في الماء، وغطس في حمام ساخن، ثم خرج من حجرة الحمام البيضاء متسربلًا بملابسه الحريرية القشيبة، يلعب بأهداب ثوبه الأحمر، وكان الثلج يتساقط دراكًا خارج النوافذ يحجب النظر حتى لا يكاد يُرى ما هنالك، ولكن الهواء في الداخل ناعم عطر، فوضع البنفسج والنسرين على الكرسي الصغير بجانب السرير، وألقى بنفسه وهو يتنهد مستريحًا، ويجذب عليه الملاءة الرومانية ... وكان متعبًا بعد الحركة المتلاحقة، والتوتر اللاعج، والمسافة الطويلة التي عبرها خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، حتى خلص إلى نفسه آخر الأمر يفكر كيف كان ما كان، وسكن إلى أصداء الريح وإلى الهواء الدافئ وريًّا الأزهار المعطرة الندية، فاسترسل في المراجعة والاستعادة بين اليقظة والتهويم.

لقد كان الأمر مدهشًا لفرط بساطته، فإنه لما أقصوه عن المسرح وقاعة الموسيقى، وحرموه قوام حياته، تقرر كل شيء في عزيمته، فلم يكن ما بقي إلا مسألة فرصة تنتهز

في أوانها، وإنما أذهلته جرأته؛ لأنه كان يدرك أنه طريد الخوف والجزع، لكثرة ما كان يلفقه من الأكاذيب التي كان خوفه من افتضاحها يلاحقه ويطبق عليه، ويشدُّ عضلات بدنه، فلا تزال تضيق به ثم تضيق، ولا يذكر حتى الساعة زمنًا لم يكن فيه خائفًا من شيء من الأشياء، وكذلك كان منذ طفولته يترقب ذلك الشيء المخيف وراءه أو أمامه أو على جانبيه، فلم يكن له مهرب من الركن المظلم الذي لا يجسر على مواجهته واستطلاعه، ولكنه لا يفتأ يتوهم أن أحدًا يواجهه منه ويستطلعه … وطالما فعل ما ليس بالمستحسن أن تقع عليه عيناه وهو أعلم بما فعل! أما الآن فقد استولى عليه شعور عجيب بالخلاص، كأنما هو قد ألقى القفاز وتحدى ذلك الشيء المخيف وراء ركن الظلام!

على أنه لم يمضِ غير يوم واحد منذ كان يتلفت إليه وهو يتعقبه ويطارده، كان أمس عند الأصيل إذ أرسلوه بوديعة دنى وكارسون على حسب العادة، وأمروه هذه المرة أن يدع الدفتر للموازنة، وكان هنالك أكثر من ألفي ريال محولة، ونحو ألف ريال من ورق العملة، أخذها جميعًا وحوَّلها إلى داخل جيبه، واستخرج في المصرف قسيمة إيداع جديدة، وبلغ من هدوء أعصابه أنه عاد إلى المكتب فأتم عمله والتمس الترخيص له في الغياب يوم الغد — وكان يوم سبت — منتحلًا لذلك عذرًا مقبولًا، وقد علم أن الدفتر لن يعاد قبل يوم الاثنين أو الثلاثاء، وإن أباه يومئذٍ يكون غائبًا عن البلدة بقية الأسبوع، ولم يداخله شعور التردد طرفة عين منذ وضع ورق العملة في جيبه إلى أن استقل القطار إلى نيويورك!

وما أسهل ما حدث هذا كله، فالآن لا أيقاظ ولا أشباح تنتظره عند أعلى السلم، وظل يراقب نتف الثلج من وراء النفاذة إلى أن استغرق في السبات العميق.

كانت الساعة الرابعة بعد الظهر عندما أفاق من نومه، فوثب في قفزة واحدة. لقد ضاع يوم من أيامه القلائل الثمينة، فقضى نحو ساعة يلبس ويتأنق ويتطلع إل المرآة، وتم كل شيء على الوجه المطلوب، فهو الآن ذلك الفتى الذي طالما تمنى أن يكونه منذ سنوات!

واستقل مركبة بعد نزوله، فاتجه بها إلى الشارع الخامس نحو المتنزَّه، كان تساقط الثلج قد خف قليلًا، وانطلق السابلة والمركبات يذهبون ويجيئون هنا وهناك في شفق الشتاء، وظهر الغلمان بملابسهم الصوفية يجرفون الثلج من درج الأبواب، ولاحت دكك الشارع بألوانها معارضة للبياض من جانب الشارع، وبدت في الزوايا حدائق الرياحين مزدهرة وراء نوافذ الزجاج التي كان الثلج يتساقط عليها ويذوب فوقها: بنفسج وورد وقرنفل وليلاق، تتألق على نحو أبهج جدًّا وأفتن من معهودها، إذ كانت على غير العادة تتألق بين الثلوج، وكان المتنزه نفسه منظرًا عجبًا من مناظر الشتاء!

ولما قفل راجعًا كانت فترة الشفق قد انتهت وتغيرت نغمة الشوارع والطرقات، وعاد الثلج يتساقط دراكًا وفاضت الأنوار من الفنادق التي ارتفعت طباقها تتحدى الرياح الغاضبة من قِبل المحيط الأطلسي، وتلاحقت أرتال من السيارات تقاطعها عرضًا أرتال أخرى من مفارق شتى في الطريق، وكان على باب فندقه نحو عشرين مركبة مما اضطر حوذيه إلى التريث حيث يشاهد الصبية خدم الفنادق في أكسيتهم الملونة يعدون مقبلين مدبرين على البسط الممتدة من الباب إلى الطريق، وفي كلِّ مكان من فوق ومن الداخل وعلى الجانبين ضجيج وزحام يكتظ بألوف من الخلائق الآدمية، كلهم متلهف كلهفته على المتعة والسرور، ويدور بعينيه فلا يرى ثمة إلا دلائل الصولة والحول والطول، تثبت ثبوت اليقين سلطان الثراء القادر على كل شيء!

وصرف الصبي أسنانه، وضيق ما بين منكبيه وانتابته نوبة إدراك وتصديق لما تمناه، فهذا محور الروايات، ومدار الأساطير، ومادة العصب الذي يختلج بكل شعور يدور من حوله دوران الثلج المتساقط في الهواء، وكأنما هو هنالك وقود من الحطب في إعصار!

ولما هبط بول من السلم لتناول العشاء قابلته أنغام الموسيقى من فتحة المصعد تحييه، فتقدم إلى الرواق المزدحم، وجلس على أحد المقاعد عند الحائط يستعيد أنفاسه، وخطر له لحظة أن هذه الأنوار، وهذه الأصوات، وهذه الروائح المعطرة، وهذه الألوان المتعددة، فوق طاقته ووراء قدرته على الاحتمال، إلا أنها لحظة، لحظة ليس إلا؛ فإنما كان هؤلاء جمهوره المختار، كما قال لنفسه، وتمشى بين الأروقة متمهلًا خلال حجرات الكتابة والتدخين والاستقبال، كأنه يستكشف الغرف والحجرات في قصر مسحور مشيد ومسكون من أجله دون سواه!

ثم بلغ حجرة المائدة فجلس إلى مائدة بجوار النافذة، وفاضت عليه أحلامه تذهله بلألائها من قِبل هاتيك الأزاهير النضرة، وتلك المفارش الناصعة، وتلك القوارير الملونة، وتلك الحلل الفرحة، وتلك السدادات الخافتة وهي تتفتح، وتلك الأنغام المترددة من جانب الفِرقة وهي تعزف لحن الدانوب الأزرق، فلما أُضيف إليها شعاع قدحه المتدفق بشراب الشمبانيا المورد، باردًا فوارًا، يعلوه رغو الحباب، غلا به العجب أن يكون في الدنيا أناس يدينون بالأمانة والربح الحلال!

هذا كل ما يقتتل عليه الناس. هذا كل ما يدور عليه القتال. لقد كاد يرتاب في ماضيه ويتساءل: أكان قد عرف قط مكانًا يسمى شارع كورديليا؟ مكانًا يتلاحق فيه الأبذاذ من أحلاس الشغل وراء سيارة الصباح الأولى؟ ما كان هؤلاء كما تخيلهم بول تلك الساعة

إلا كالمسامير في الآلة الكبرى، يقززون الناظر بنثار الشعر على معاطفهم من أمشاط صغارهم، ورائحة المطبخ في ثيابهم ... شارع كورديليا؟! آخ، ذلك شيء في زمان غير هذا الزمان ومكان غير هذا المكان، وهل أتى عليه حين من الدهر قط لم يعش فيه حيث هو عائش تلك الساعة ولم يسهر فيه غير سهرته تلك الليلة بعد الليلة؟ وهل يعود على مدى الذاكرة إلى بيئة غير تلك البيئة حيث يلمس ما هو لامسه الآن بين إبهامه وبنصره من ذلك القدح الدهاق!

ولم يدر بخلده قط أنه متهيب أو منفرد، ولم تساوره رغبة خاصة أن يعرف أحدًا من هؤلاء الناس، كل ما كان يحيك بصدره أن يستمتع بالنظر والتأمل وأن يشهد ذلك الموكب بعينيه، وحسبه المنظر المعروض أمامه، فهو غاية ما يصبو إليه!

وما دار بخلده كذلك أنه متهيب أو منفرد في مقصورته بدار الأوبرا ذلك المساء، بل خلص تمامًا من هواجسه ومن نوازع التهجم بالإساءة كي يُرى مخالفًا لما حوله، بل كان يحس أن ما حوله الآن يفسره ويشرحه ويوائمه وما من أحد يرتاب في حلة الأرجوان، فإنما عليه أن يلبسها غير متفخم، وهذا يكفيه! عليه أن يرمق كسوته الأنيقة ليكون على ثقة أنه في سمته هذا لن يتعرض للاستخفاف من أحد أو للنظر إليه من علٍ.

وشق عليه تلك الليلة أن يفارق ردهة الجلوس الجميلة إلى حجرة نومه، فلبث برهة يرقب العاصفة الهائجة من نافذة البرج، فلما ذهب إلى الفراش أدار النور عليه، لِما طُبع عليه من الخوف من جهة، ولكيلا يخالجه الشك طرفة عين إذا استيقظ أنه سيرى هنالك ورق الجدار الأصفر وصورة واشنطون وكلفن فوق سريره.

وأصبح يوم الأحد والمدينة غارقة في الثلوج، فتناول بول طعام الإفطار متأخرًا، وصادفه بعد الظهر فتًى طالب حديث من سان فرانسيسكو، قادم إلى البلدة، قال له إنه أفلت في سبيل جولة أحدية، وعرض عليه أن يطلعه على أسرار الليل في المدينة، فذهبا معًا إلى العشاء، ولم يعودا إلى الفندق إلا الساعة السابعة من الصباح، وكانا قد ابتدآ الصحبة في حماسة الشمبانيا، ثم افترقا افتراقًا فاترًا عند المصعد، فأسرع الفتى الطالب الحديث يدرك قطاره إذ قصد بول إلى حجرة نومه، فلما استيقظ حوالي الساعة الثانية بعد الظهر أحسَّ الظمأ والدوار، ودق الجرس للخادم يأتيه بماء مثلج وقهوة مع صحف بتسبرج.

ولم يشتبه فيه أحد من جانب إدارة الفندق، فإنه مما يرعى عليه قد أحسن لباس كسوته في لياقة وكرامة؛ ولم يلاحظ عليه ما يلفت إليه الرقباء بصفة خاصة، وانحصر نهمه في سمعه وبصره، فلم يكن في إفراطه ما يسيء إلى أحد، وأسر ما كان يسره هنالك

منظر الشفق الأشهب من نافذة حجرته، ومتعته الهادئة بالأزهار والملابس والإيوان الواسع وسيجارته، وشعوره بالاعتزاز والوجاهة، ولم يذكر أنه شعر قط بمثل هذا الوئام والسلام مع نفسه فيما مضى من حياته، مجرد الخلاص من اضطراره إلى الأكاذيب الحقيرة كل يوم، ويومًا بعد يوم أعاد إليه الثقة بكرامته ... وما كان يكذب من قبل بمشيئته واختياره، حتى في المدرسة لمحض اللذة، إلا أن يكون ذلك لفتًا للأنظار والإعجاب ليؤكد لزملائه أنه شيء آخر غير سائر الصبية من شارع كورديليا، فهو الآن أوفر رجولة وأوفر إخلاصًا وصدقًا، حين لا يشعر في قرارة ضميره بالحاجة إلى نفخة الأبهة والادعاء، أو إلى «لبس الدور» كما كان أصحابه الممثلون يقولون. وتوالت أيامه الذهبية دون أن تشوبها شائبة من ندم أو أسف، بل كان يجتهد اجتهاده أن يستوفي كل يوم من أيامه إلى الثمالة!

وفي اليوم الثاني لوصوله إلى نيويورك وجد الحكاية كلها مستغلة مفصلة بكل إسهاب؛ في صحافة بتسبرج، مما يدل على أن الحوادث المحلية المثيرة كاسدة في تلك الأيام، وقد أعلن مكتب دني وكارسون أن والد الفتى سدد الغرم، وليس لدى المكتب نية المقاضاة، وحودث قسيس كمبرلاند فأعرب عن أمله في استرجاع الفتى الذي فقد أمه، وعزز هذا الأمل تصريح من ناظر مدرسة الأحد، وقد ترددت إشاعة فحواها أن الفتى شوهد في أحد الفنادق بمدينة نيويورك، فسافر أبوه شرقًا ليبحث عنه ويعيده إلى داره.

كان بول على أهبة اللبس للعشاء، فجلس على كرسي يُعْييه الوهن في ركبتيه، ويسند رأسه إلى يديه، وخطر له أنه لشر من السجن أن يعود إلى شارع كورديليا، وتوصد عليه تلك البيئة أبدًا بغير أمل في مفارقتها، وتمثلت له المعيشة الرتيبة سنوات متتابعات، لا تتخللها سلوة ولا نجاة، وتمثلت له مدرسة الأحد، واجتماعات الشبيبة، والورق الأصفر على الجدران، وفوط الغسيل المبللة بعد مسح الأطباق، فهجمت كلها على مخيلته واضحة حيث تسقم وتقزز بفرط وضوحها وحياتها، وعاوده الشعور القديم بسكوت الموسيقى والهبوط النفساني الذي يستولي عليه كلما اقتربت نهاية التمثيل، فتفصد جبينه عرقًا ووثب واقفًا، والتفت إلى المرآة، ثم ركن إلى تلك العقيدة الصبيانية في المعجزات التي كان يركن إليها كلما قصد إلى المدرسة خاوي الذهن من دروسه، فارتدى ملابسه، واندفع يصفر إلى الرواق متجهًا إلى المصعد، ولم يكد يدخل حجرة العشاء ويندمج في نغمات الموسيقى حتى انتعشت ذاكرته بتلك القدرة المرنة فيه على التفرغ للخطة الحاضرة، والصعود معها إلى حيث تصعد، والعكوف عليها دون ما عداها ... واستعادت تلك الأضواء، وذلك اللألاء والبريق، وتلك المناظر والحواشي التي إلى جانبها، كل سلطانها الأول، وتخيل في نفسه أنه

صيد طريد، وأنه سيختم كل شيء أوفق ختام، وشك أكثر من ذي قبل في وجود شارع كورديليا، فأسرف للمرة الأولى في معاقرة خمرته ... أليس هو واحدًا من هؤلاء القوم؟! وجعل يرافق الموسيقى بنقرات عصبية، ويقول لنفسه مرة بعد مرة: إن الغنيمة تساوي ثمنها فلا أسف ولا ندامة!

ولقد سنحت له سانحة، وهو كالنعسان من الخمار، يستجيب لعزف القيثار ونشوة الشراب، أنها كان يمكن أن تدبر أحكم من هذا التدبير، وأنه كان أخلق به أن يركب إحدى البواخر إلى حيث ينجو من مخالبهم، لولا أنه لم يكد يسترسل مع هذه السانحة حتى تخيل العدوة الأخرى من الدنيا بعيدة بعيدة ليس لها قرار، وعلم أنه لم يكن مستطيعًا أن يصبر حتى ينتقل إليها، فقد كانت لهفته سريعًا عاجلة، فلو أنه اختار مرة أخرى ما يعمل لما اختار غير ما عمل، وأجال عينيه في حجرة المائدة إذ كان يغشاها تلك اللحظة دخان ذهبي رقيق، فعاد يقول لنفسه: آه، إن الغنيمة قد استحقت ثمنها بغير كلام!

وأفاق صباح اليوم التالي على نبض أليم في رأسه وقدمه؛ إذ كان قد ألقى نفسه على الفراش بملابسه دون أن يخلع حذاءه، فأحسَّ ثقلًا رصاصيًّا في أوصاله وأعضائه ويبسًا في لسانه وحلقه، وملكته نوبة من نوبات الصحو الذهني من دأبها ألا تنتابه إلا حين يعيا بجسده المتهالك وأعصابه المنحلة، فاضطجع هناك وأغمض عينيه، واستسلم لمد الحوادث يغمره ويحتويه.

إن أباه في نيويورك ...

لعله الآن ينتقل من هذا المنعطف إلى ذلك المفترق ...

وتعاقبت أمامه ذكريات فصول الصيف المتوالية على المقاعد القاتمة أمام الدور، فكأنما أغرقته هذه الذكريات فأثقلته بطوفان من المياه السود، ولم يبق معه من المال مائة دولار، بعد أن عرف الآن — فوق معرفته بذلك في كل زمان — أن المال هو كل شيء، وأنه السور الفاصل بين كل ما يشتهي وكل ما يكره، ودارت البكرة إلى نهايتها، وكان قد فكر في ذلك منذ ليلته الأولى الفاخرة بنيويورك ودبر بعض التدبير لإطالة الخيط ما وسعه أن يطول.

وها هي تلك البقية ملقاة على المنضدة أخرجها بالأمس بعد أن صعد على غير هدى من حجرة المائدة، فكان مرأى المعدن اللامع يؤذي عينيه، وينأى ببصره عنه ويخشى أن يلتفت إليه!

ونهض يتمشى بجهد أليم، ينتابه من لحظة إلى أخرى غثيان بغيض، إنه الوجوم الآنف مضاعفًا يتزايد ويتجدد، وكأنما الدنيا كلها قد أصبحت شارع كورديليا، إلا أنه على

نحو ما لم يكن متخوفًا من أمر معلوم، وكان على طمأنينة لأنه قد نظر إلى الركن المظلم أخيرًا وعرف …

لقد كان فيما رآه الكفاية من السوء، ولكنه ليس من السوء بحيث كان يتوقع في مخاوفه الكثيرة، لقد وضح أمامه الساعة كل أمر، وملأه الشعور بأنه قد استخرج منها أحسن ما يمكنه، وعاش تلك العيشة التي تمناها، وقضى نصف ساعة يفتح حماليقه على المسدس أمامه، ويثوب إلى نفسه فيقول: كلا، ليس هذا هو الوسيلة، ثم نزل واستقل مركبة إلى العدوة، فانتقل إلى الجانب الآخر الذي يلي السكة الحديد.

واستقل مركبة أخرى وأمر الحوذي أن يساير خط بنسلفانيا إلى ظاهر المدينة، حيث تراكمت الثلوج على السكة الحديد وأطبقت على الحقول في الخلاء، ولم تكن الحشائش الميتة والأعشاب الجافة تطلع من تحتها إلا على بقعة هنا أو بقعة هناك، وقد اشتد سوادها بإزاء ذلك البياض.

فلما أفضى إلى الخلاء صرف الحوذي، ومشى يتعثر على مدارج الطريق، مشتت الذهن بين أمور مبعثرة لا ارتباط لبعضها ببعض، وخيل إليه أنه يحتفظ في دماغه بصورة واقعية لكل ما وقعت عليه عيناه منذ الصباح: فتذكر كل لمحة من ملامح الحوذيين، وتذكر العجوز الهتماء التي اشترى منها الزهر الأحمر المعلق في عروته، وتذكر العامل الذي أخذ منه التذكرة، وجميع زملائه في معبر العدوة … وكلَّت قواه الذهنية عن مواجهة الواقع المشهود أمام عينيه، فاشتغلت بمتابعة هذه الذكريات القريبة وترتيبها وتصنيفها، وكأنما اختلط جزء من أجزاء الدمامة والقبح في تركيبة هذه الدنيا بكل ما رحبت، مزيدًا عليها صداع رأسه ومرارة لسانه والتهابه! وانحنى فتناول قبضة من الثلج ووضعها في فمه، ولكنه خيل إليه أنه ملتهب كلسانه.

وبلغ إلى هضبة تسير السكة تحتها بنحو عشرين قدمًا؛ فتوقف وقعد …

وكانت القرنفلة في عروته قد ذبلت فمالت من البرد ولاحظ هذا كما لاحظ انطفاء لونها ونصول صبغتها، وقام بخاطره أن الأزاهير التي عاينها جميعًا في الليلة الأولى قد أصابها ما أصاب هذه القرنفلة منذ حين، فما حياتها جميعًا غير نفس واحد على الرغم من جرأتها بالسخرية والتحدي على الشتاء وراء الزجاج، وإنها لفي النهاية لعبة خاسرة تنتهي إليها هذه الثورة على العرف المتواتر الذي يطرد عليه مسير هذه الدنيا، ومد يده إلى زهرة من تلك الأزهار بعناية ورفق؛ وحفر في الثلج حفرة صغيرة ودفنها فيها، ثم استرسل يتأمل هنيهة في تلك الحالة الهزيلة، غير شاعر ببرد الهواء.

ثم أيقظه من ذهوله صوت قطار يقترب، فوثب قائمًا على قدميه لا يذكر شيئًا غير ما انعقدت عزيمته عليه، يخشى أن يفوت الوقت فلا ينجزه في أوانه، ووقف يرقب القطار المقترب، وقد اصطكت أسنانه وانفرجت شفتاه عن ابتسامة رهيبة، والتفت مرة أو مرتين إلى جانبيه كأنه يوجس هنالك من رقيب، فلما حانت اللحظة المحتومة قفز ... فلما سقط ومضت في ذهنه حماقة العجلة التي أقدم عليها بوضوح لا يرحم، وانبسطت أمامه مساحة ما تركه وما فاته أن يتمه فسيحة رحيبة ... ولمعت بين ثنايا رأسه أوضح من كل وضوح زرقة البحر المتوسط وصفرة رمال الجزائر على شاطئه!

أحسَّ شيئًا يصدم صدره ... أحسَّ بدنه مقذوفًا في الهواء يعلو ويعلو، وتتراخى في الوقت نفسه أوصاله وجوارحه، وتحطمت الآلة التي تصنع لذهنه الصور! فارتجعت الصور المضطربة إلى سواد ... وآب بول مع الظلام إلى قرار كل شيء!

(٤) إدنا فيربر Edna Ferber ١٨٨٧

قصصية مسرحية، ولدت في مشيجان، وألفت رواياتها الأولى وهي في نحو الثالثة والعشرين، ثم عدلت إلى كتابة القصص الصغيرة، فاتخذت لها بطلتها من شخصية المرأة «ربة الأعمال» باسم أما مكسني Mcchesney.

وألَّفت قصصًا أخرى جمعتها بعنوان «الأم أدري» وأصدرت خلال ذلك روايات مطولة أدارت أكثر موضوعاتها وموضوعات قصصها الصغيرة على الفوارق الخلقية والاجتماعية بين الأجيال المتعاقبة من النساء عامة، ومن الرجال في بعض الأحوال ... وربما ألفت الرواية لبيان هذه الفوارق في أربعة أجيال متعاقبة! وقصتها التالية تلمس موضوع الأجيال من بعض نواحيه، وقد حولتها بمعاونة جورج كوفمان Kaufman إلى مسرحية ملحنة (سنة ١٩٢٤) وكان كتابها الذي ترجمت فيه حياتها بعنوان، «ذخيرة خاصة» وأصدرته بعد أن جاوزت الخمسين، تطبيقًا لدراسة الأجيال على نفسها من بعض الوجوه.

(٤-١) الشيخ مينيك لإدنا فيربر Old Man Minick By Edna Ferber

كانت زوجته تبالغ في تدليله، وتفرط في مبالغتها، كذلك كانت ولا نكران! إليك مثلًا مسألة الوسائد: لقد كان الشيخ مينيك ينام ورأسه مرتفع، أو هكذا كان يخال، كان يحب أن يرى الوسادتين إلى جانبه على فراشه الكبير العتيق المصنوع من خشب الكريز، ثم يغوص

فيهما ويغط غطيطه بين الزفير والشهيق، مسترخي الأسارير مستريح الجوارح للرقاد، فإذا ما جاء الصباح كانت إحدى الوسادتين ترى دائمًا على الأرض؛ إذ كان يلقيها هنالك، فلا تفتأ صباح كل يوم راقدة على الأرض، وقد صعرت وجنتيها البارزتين كأنها تؤنبه إلى جانب الفراش.

وكانت مدام مينيك تعرف ذلك — بطبيعة الحال — بعد أن رافقت سرير الكريز زهاء أربعين سنة، ولكنها لم تنفس عليه قط هذه الوسادة، بل كانت تلتقطها كل صباح وهي في طريقها إلى النافذة تغلقها، وتعيد ترتيب الفراش بالوسادتين كما فعلت بالأمس.

ويأتي دور النافذة، فإن مدام مينيك تحب أن تكون مفتوحة على مصاريعها، ولكن الشيخ مينيك على ادعائه أنه رجل عصري، وأنه من رجال الساعة على حد تعبيره، كان يخشى هواء الليل، ويتوجس منه، ويقول إن هذا الهواء يخفي في طياته أدواء لا يتقى خطرها من البرد والرطوبة والعفونة والحمى، وسائر هذه الأمراض.

ولكن مدام مينيك كانت تراجعه، مؤكدة له أن هواء الليل كغيره من الأهوية، ولم تكن مدام مينيك امرأة حيزبونًا لا تفقه الأمور، فهي عصرية من قبيل زوجها، فإذا ذهبا إلى الفراش كانت النافذة مفتوحة، ولا يزالان يتبادلان أطراف الحديث في شتى الأمور بهدوء ودعة، كما هو مألوف بين زوجين عاشا معًا في سلام نيِّفًا وأربعين عامًا لا تشوبها شائبة، إلا ما يأتي من حين لآخر من شجار يسير كأنه توابل الطعام!

– لا تنسي أن تذكريني أن أدعو جيرسون غدًا ليصلح القفل الذي في الدور الأول، إن الصحف مستفيضة بأخبار اللصوص. فتجيبه: سأفعل إذا تذكرت ذلك.

وهي لا تنسى أبدًا!

– جورج ونتي لم يحضرا إلينا منذ أسبوع!

– آه! يا لهؤلاء الشباب. هل ذهبت إلى كورتز ودفعت إليه خمسين سنتًا لكيِّ بدلتك؟

– أو! يا لله! لقد نسيت مرة ثانية، وسيكون أول ما أنا صانع صباح الغد.

ويشمان رائحة فيقولان: تلك رائحة منبعثة من الأفنية، إنها لشيكاجو!

– لا بد أن الرياح تهبُّ غربًا.

ثم يدنو الرقاد وئيد الخطى ولكنهما يصابرانه شيئًا فشيئًا حتى يلقي أكنافه عليهما، فيناما غير مستغرقين.

وكثيرًا ما يستيقظ مينيك ويقوم من تحت أغطيته إلى النافذة المفتوحة يغلقها، فلا يبقى منها مفتوحًا غير قيراطين، وكانت مدام مينيك تسمعه أحيانًا، إلا أنها كانت عجوزًا

عاقلة تروض الأمور بحكمة وروية، وكانت أعقل من أن تدع راحتها وسلامتها عرضة للكدر من جراء نافذة تغلق أو تفتح، ولطالما تبسمت في شيء من الحرد تحت أطباق الظلام! وما من علامة تدلُّ على يقظتها إذ تفكر قائلة: إن النافذة المغلقة لن تقتلني على كل حال.

وربما حدث من قبيل الجزاء — ولكي تقنع نفسها أنها ليست لعبة في يد أحد — أن تتمهل حتى يغفو مرة ثانية وتتنسل شيئًا فشيئًا نحو النافذة ترفعها قيراطًا أو قيراطين.

يقول في الصباح — وهو لا يحسن المداراة: كيف فتحت هذه النافذة؟!

– النافذة؟! إنها كما هي منذ المساء، ثم تنحني فتلتقط الوسادة وتعيدها إلى موضعها.

وقلما كانا يطرقان حديث الموت، فلا يُسمع له ذكر بين هذا الزوج القرير العين، الدائب على العمل، الموفور العافية، الذي يناهز السبعين، وبين تلك الزوجة الممتلئة التي ناهزت السادسة والستين.

إلا أنه كان مفهومًا، كما هي العادة بين الزوج والزوجة، ودون أن يصرحا به بينهما، أن الشيخ مينيك هو السابق الأول، لا لأن أحدًا منهما يريد أن يسبق أو يلحق، بل يتفق أحيانًا أن يهيئا العدة لقضاء الشتاء في كاليفورنيا والبقاء هناك أبدًا إذا راقهما المقام، ولم يستشعرا الشوق إلى جورج دنتي، ودخان شيكاجو، وضجة شيكاجو، وروائح شيكاجو وما فيها من زحام وأقذار، ولكن مقدار التأمين الذي يدفعه الشيخ مينيك كل عام يدلُّ دلالة واضحة على أنه يريد أن تعيش زوجته من بعده في أمن وراحة … والدنيا مع ذلك ملأى بالنساء الأرامل، وكلٌّ يرى ذلك، ولكن كم من الأرامل الذكور؟! إنهم قليل عددهم، إن النساء الأرامل تعد بالألوف، يعشن وحيدات أو يقمن في الفنادق، أو عند بناتهن المتزوجات وأزواج بناتهن، أو أبنائهن المتزوجين أو زوجات أبنائهن، ولكن الحيرة كل الحيرة في حياة الرجال الأرامل الذين في مثل حالتهن، أما السبب في ذلك فلا من يعرفه، ولم تتم رحلاتهما إلى كاليفورنيا في عامهما، ثم جاء العام الذي تلاه غامضًا، محيرًا للشيخ، فأول ما يذكر عنه أنه كان العام الذي هبط فيه سعر الأوراق المالية وقصم ظهر أصحابها. وقد ظهر أن أسهم التأمين لم تكن في واقع الأمر إلا زيفًا لا قيمة له، لقد انصرف الشيخ مينيك وانقطع عن أعمال الحياة المجهدة قبل ذلك بعام واحد؛ ليعيش عيشة هادئة مطمئنة من ثمار عمله في الحياة العامة نصف قرن كامل، وها هو ذا الأمر يتكشف فإذا هذه الثمار قد اعتراها العطب، وتبين له أنها لم تكن تحمل في كيانها ما يضمن لها البقاء!

وذهبت مدام مينيك ذات يوم نحو المدينة لتقابل الطبيب ماثيو وتعرض عليه ما حل بها من الألم المبرح، وعادت إلى المنزل وقد بدا على وجهها التغضُّن وأخذت تهذي وترتعد وتتجنب نظرات الشيخ مينيك.

وحلت الشهور التالية تحمل معها مجموعة من الآلام: أشعة إكس، أمل، يأس، مخدر، مسكن، ثم موت ...

فلما انقضى كل شيء وقف الشيخ مينيك في ذهول يقول: ولكنني كنت أحسب أني سابقها!

بيع المنزل الذي كان يقيم به في شارع إليس قريبًا من الحي التاسع والثلاثين بما قدر له من ثمن، فقد كان جورج يقول — وهو يعرف ما لا يعرفه غيره عن حقيقة أثمان العقار في شيكاجو: يجب أن تقبلوا أي ثمن يدفع لكم فإن الأثمان آخذة في الهبوط، وسترون صدق ما أقول، سوف لا يحصل أحد على المال عدة سنين، وإن شئتم فانظروا أثمان البيوت التي تليكم.

وكان الشيخ مينيك يقول: إن جورج على حق، كان يقول: إن الناس على حق، ولم يكن من السهل أن تتبين فيه وفي وجهه المتغضن ذلك الشيخ الكيِّس الذي كانت تدلله مدام مينيك وتدخل على قلبه السرور والابتهاج، كان يقول: أنت تعرف ما لا يعرفه غيرك يا جورج، أنت أدرى يا جورج، ولطالما كان يقف في وجهه قبل موت مدام مينيك، ويقول له: اسمع يا بني، أنت لا تعرف كل شيء.

ولقد كان كل ما بقي من المال لدى الشيخ بعد ما دفع من أجر للطبيب وللمستشفى والممرضات والدواء، وما هنالك من التكاليف التي لا تحصى، مقدار خمسمائة ريال في العام.

قال جورج ونتي: سوف تقيم معنا يا أبتاه.

وقالت ألما بنته المتزوجة: هذا خير ما تصنع، وإن كنت تعلم أنني وفريد يسرنا كثيرًا أن تقيم لدينا.

– ستيل، آخر الدنيا! كلا كلا!

قال ذلك محتجًا وقد علقت كل وشيجة في جسمه بما ألف من مقام، ثم عاد يقول: ستيل؟! وفي السبعين؟!

ثم دار بعينين بائستين نحو جورج وزوجته نتي فقالا له مؤكدين: ستكون معنا يا أبتاه.

وانثنى يشكرهما، واستقر الأمر على ذلك، فعادت ألما إلى منزلها بين زوجها وأطفالها.

وهكذا أقام مع جورج ونتي في مسكنهما ذي الحجرات الخمس في شارع «ساوث بارك» الذي يمتد من واشنطون بارك حيث لا توجد وسادة يلقيها على الأرض.

لم ترفض نتي أن تعطيه الوسادة الزائدة، فقد أخبرها أنه يضع تحت رأسه وسادتين، وقد أعطته وسادتين في الأسبوع الأول، ولكنها كانت تجد إحداهما تحت السرير.

قالت: كنت أظنك تنام على الوسادتين يا أبتي؟

– نعم هو ذاك.

– ولكني أجد وسادة على الأرض كل صباح، أنت تلقي واحدة على الأرض دائمًا، الحقيقة أنك تنام على وسادة واحدة!

– كلا، بل وسادتين!

فلما جاء الأسبوع التالي لم يكن لديه غير وسادة واحدة، تبرم بالأمر، وراح يتقلب على فراشه القريب من المطبخ، إلا أنه تعود ذلك على مرِّ الزمن، تعود ذلك وإن لم يسترح إليه كل الراحة … ولكن ما الجدوى؟!

لم يكن فراشه بجوار المطبخ حقيرًا كما تتوهم؛ لقد كان في الحقيقة فراشًا مكنونًا أنيقًا، وكان في المسكن حجرة الجلوس، وحجرة للنوم، وأخرى للطعام، ومطبخ، وحجرة للخدم …

أما الحجرة المجاورة للمطبخ فهي المعدَّة للخدم، ولا خدم عند نتي وجورج؛ إذ كانت أعمال جورج قد أصيبت بالخسائر التي أصابت غيره، وربما قالا له حينًا بعد حين: وددنا لو كانت لنا حجرة أمامية لك يا أبتاه! ولو أننا تحولنا إلى حجرتك، غير أنها لا تتسع لاثنين. كانا يقولان ذلك ويعنيانه، أو يظنان أنهما يعنيانه. ويقول الشيخ مينيك: وأي عيب في هذه الحجرة؟! إنها حسنة، إنها ملائمة لأي ساكن، وكان في هذه الحجرة سرير ضيق، أبيض الطلاء، ومزينة ومنضدة، ولكن نتي وضعت لها الأغطية والستائر من الكريتون، ووضعت مصباحًا صغيرًا للقراءة على المنضدة، ورتبت أدواته عليها، وجعلت صورة مدام مينيك على المزينة، وقد بدت بفمها المطبق أصغر من سنها، أو لم تكن هي صورتها الأخيرة فزينها جورج ونتي بإطار، وجعلاها هدية المفاجأة للشيخ، وطالما كانا يُلحَّان على السيدة أن تتخذ لها صورة شمسية.

لم يهتم الشيخ مينيك كثيرًا بهذه الصورة، وإن لم يصرح لهما بقلة اهتمامه، وما كانت به من حاجة إلى صورة لقرينته؛ فلديه عشرات من الصور … بل متحف كامل

فيه ألوف وألوف يستعرضها وهو على وسادته الواحدة، ويستعرضها في الظلام: باسمة، عابسة، غاضبة، راضية، فهو في غير حاجة إلى صورة توضع في إطار.

لقد كانت نتي فتاة جميلة طيبة، وكان ينظر إليها كأنها بنت ناشئة وإن كانت جاوزت الثلاثين، وقد تزوج جورج ونتي متأخرين، وكان هذا هو العام الثالث لزواجهما. أما ابنته ألما فقد تزوجت صغيرة، وظل جورج أعزب في المنزل القديم بشارع إليس، حتى بلغ السادسة والثلاثين، وكانت كل بنات صديقات أمه يحاولن أن يتصلن به ولكن على غير جدوى.

وكان كبار السن ينصحونه بالزواج، ولا يزالون يحسون به منفردًا في هذا البيت الواسع؛ لأنه كان يصفر وهو يلبس، ويغني وهو في الحمام، ويرفع عقيرته بالغناء وهو هابط على السلم، وينادي أمه سائلًا: أين القمصان المغسولة؟ وكان جرس التليفون يستدعيه وأمه تهيئ له صحافًا من الطعام المختار، وربما قالت له الخادم: ماذا صنعت يا جورج؟! لقد ملأت بالوضر بلاط مطبخي النظيف، ثم تمسحه مفتونة بالنظر إليه، على حين هو يقهقه ويَزدرِدُ الطعام من قِدْرٍ أو حلة طبيخ!

أما نتي فكان في أمرها بعض الغرابة، كان جورج يشتغل بأعمال الأوراق المالية، وهي تعمل معه في مكتب واحد، وإنها لفتاة بضة غضة، ساجية العينين، تفتح الشهية، كما كان الشيخ مينيك يقول، ولها خلف رأسها ضفيرة معقوصة من الشعر الفاحم الجثل، كساؤها ملبس مجهز بسيط، وفهمها للأوراق المالي فهم رجال أعمال، وإن كانت غلبت عليها الأنوثة في سائر أحوالها، وقد حظيت عند الشيخ مينيك، على خلاف امرأته، فإنها لم تكن تحبها كحبه إياها.

وتعودت نتي أن تدعوه بوب، وتغازله عابثة كمغازلة البنات للآباء، وربما طاب له أن يقرص ذراعها البضة ويجمش خدها الناعم، فتضحك منه، وتربت على كتفه، وتنبسط تلك الكتف ويتحرك رأسه حركة فيها محاكاة للكلاب!

ويصيح الجالسون في الحجرة: انظر يا جورج، إن أباك سيغلبك على فتاتك، حذار، إنك ستفقدها!

وتبسم نتي عن ثناياها، ويضحك الشيخ مينيك، ويغمز بعينيه مستريحًا راضيًا عن نفسه، وتقول نتي: إننا متفاهمون يا بوب، أليس كذلك؟

كانت نتي في السنين الأولى من زواجهما تمكث في المنزل مبتهجة بمسكنها الصغير، تتبادل مع العائلات الزيارة، وتلعب البريدج، ويبدو عليها حب الراحة والاستجمام، والولع بصغائر الترف.

وكانت هي وجورج متحابين متآلفين. أما قبل زواجها فقد كانت تسكن في بيت مستأجر في شارع ميشجان، وهي الآن تقطب عند ذكره، ولم تحاول مرة أن تخفي حبها لحجراتها الخمس التي تجمِّلها النظافة والسكون والأناقة: كانت حجرة الجلوس مفروشة بالمخمل، مظللة المصابيح بالحرير، موزعة فيها هنا وهناك مناضد عليها الكتب والمجلات وعلب السجاير والحلوى، طراز حديث، ومائدة حديثة في حجرة الطعام، وحجرة نوم من خشب الجوز الأحمر القاتم الناعم الملمس، وكانت تحبها، وإنها لامرأة منظمة تضع كل شيء في مكانه، وما تكاد تدنو الساعة الحادية عشرة حتى يكون هذا المسكن الصغير يلتمع نظافة وبهاء، فلا بقعة ولا لوثة، وقد نضدت الوسائد ومسحت كسر الخبز، ووضعت الخضراوات في الماء البارد.

وينادي صوت من جانب التليفون: هالو، هالو. بيس، أو منذ بضع ساعات ... لا شيء على الإطلاق ... إذا أراد جورج ... سأناديه وأسأله في ذلك ... إننا لم نر أي فيلم من الأفلام منذ أسابيع ... سأطلبك بعد نصف ساعة ... كلا، أنا لم أعزم على شيء ... نعم، نتناول الطعام في المدينة ... نتقابل الساعة السابعة!

وهكذا قُضي على هذا الشيخ الحائر أن يندمج في تلك الحياة الرتيبة المنظمة، فلم تعد نتي تناديه بوب، ولم يعد يحلم قط بأن يقرص ذراعها البضة أو يجمش وجناتها، فقد بدأت تدعوه الأب، وأحيانًا بأبي جورج، ويسمعها تقول في التليفون: «أنا لا أستطيع، أنت تعلم أن والد جورج يعيش معنا.»

كانت نتي وجورج يتلطفان في معاملته غاية التلطف، وكانا يستبقيانه للجلوس معهما: لا تبرح مكانك معنا! لماذا تعجل بالذهاب إلى حجرتك؟!

ولقد تذكر أن نتي في العام الماضي كانت تقول شيئًا عن عودتها إلى العمل، فإنها لم تجد ما تشغل به نفسها في المنزل، ولقد ضاقت بالاجتماعات بعد الظهر وإضاعة الوقت في الخياطة والأكل، ولا شيء سوى ذلك، والقيل والقال ولعب البريدج، وانظر بجانب ذلك إلى ما تستفيده من الأجر. إلا أن العودة إلى الأعمال كانت فكرة نابية لا تطاق، يستنكرها الشيخان الكبيران، وجورج أشد منهما استنكارًا لها، كأنها من العار! وربما قال الشيخان: يا لشباب هذه الأيام، فيم يفكرون! أو يقول الشيخ: لقد كان لك في مثل سنها أطفال!

لم يرزق جورج ونتي أطفالًا، وكانت نتي في أول الأمر تقول: إنني جد سعيدة، أريد فرصة للراحة والاستجمام، لقد ظللت أعمل منذ كنت في السابعة عشرة من عمري، وأريد أن أستريح أولًا.

ثم مضت سنة وثانية وثالثة ... ثم جاء الأب مينيك ... كان لدى مدام مينيك في بيتهما القديم بشارع إليس مخازن ملأى بالأطعمة والمآكل، وإن كانت غير مبعثرة، فإنها كثيرة، يشبعان منها شأن المسنين، وكان الشيخ مينيك على الأخص يحب أن يمضغ شيئًا، فيأخذ من على الرف حفنة من الزبيب، ومن الإناء حفنة من البندق، ويلوك في فمه قطعة من الحلوى، وقد يلتهم إناء من الحساء الساخن! وقد يكون ذلك في نهاية الطعام أو عند الظهر، ويملأ جوفه من هنا ومن هناك، وتقول له مدام مينيك: ما هذا يا جو؟ إنك لا تأكل! ولقد يكون متخم الجوف وهي تقول له ذلك، لأنها كانت تحب أن تراه يأكل أكلًا لمًّا ... وإنها لعلى خطأ بطبيعة الحال.

أما الأمر عند نتي فجد مختلف فالطعام عندها كافٍ، ولكن بمقدار، وعندها أنَّ كثيرًا من الأطعمة يعدل في غذائها المقادير الكبيرة من شرائح اللحم. كانت تعرف كثيرًا من «أسعار» الحرارة، والفيتامينات، والمسائل الغامضة التي من هذا القبيل، وتتحدث عنها فتقول إن هذا الطعام فيه كثير من سعر الحرارة، وفي هذا الطعام كثير من الفيتامين، ولكن الشيخ مينيك لم يكن يقتنع بهذه الأغذية التي يقال إنها تكمن في طعامه، فقد كان يفكر في السبانخ كسبانخ؛ والشرائح كشرائح، وكان الاثنان يتناولان الطعام معًا؛ لأن جورج في المدينة بطبيعة الحال، وكان طعام نتي طعام أنثى: قليل من شراب التفاح، فنجان من الشاي، قطعة من الخبز المقدد المتبقي من طعام الإفطار، هذا طعامها في غالب الأحيان، على حين يلعق الشيخ مينيك قدحًا مملوءًا بالحساء الساخن، أو بيضة مشوية، وكثيرًا ما كانت تغلظ عليه أن يتناول قطعة من اللحم البارد المتبقي من الليلة الماضية، أو بقايا الخضر أو المكرونة. ويُرى حول إنائه الكبير أسطول من الآنية الصغيرة، فيها المتجمد من المرق والتوابل، يغوص فيها وينقض في غير راحة وإن كان يستلذ طعمها! وقد ينظر إليها بشيء من الغيظ حين ينتهي من تناول طعامه.

– ماذا تريد يا أبي؟ هل أستطيع أن أقدم إليك مزيدًا من الطعام؟

– كلا يا نتي، كلا إنني مستريح.

وتنتهي من تناول طعامها وتجلس في انتظاره.

كانت هذه العيشة المنظمة «العلمية» لا تضايقه، فلما أقبل الشتاء بدا عليه كأنه قد استرد قوته ونشاطه؛ فتى شيخ أنيق محمر الوجه كالتفاحة النضيرة، فيها بعض الغضون نعم، ولكنها ما زالت مترعة بعصارة الحياة.

ويجدر بالذكر أنه كانت في خده نونة تبرق على غير انتظار حينما يبتسم، فتكسو ملامحه بشيء من الشيطنة الصبيانية تجتذب الناظر إليه، ولا سيما النساء، ولقد كان أكثر ما يناله من تدليل السيدة مينيك شغفًا منها بتلك اللمحة الصبيانية!

كان الربيع عنده ينبوع ثروة حية، ولكن هذه الشهور الستة التي قضاها مع جورج ونتي قد اشتد وقعها عليه، فلا تدليل ولا من يجعله شغله الشاغل؛ كان يجد اللطف والمودة، ولكنه كان يشتاق إلى العاطفة والحب، ثم لا تنس أنه هرم ثرثارة لا يكف عن الكلام.

ولقد كانت في منزله القديم بشارع إليس زيارات متبادلة بين الرجال والنساء ممن هم في سنه وسن السيدة مينيك، وكانت له في هذه الاجتماعات خطب ومساجلات يسمعونها، من موافقين ومخالفين، لكنهم يلقونها باحترام على الدوام، سواء أكان يتكلم عن قيمة العقار الحقيقية، أم عن الفساد الاجتماعي، أم عن تحريم الخمور، أم عن شئون المصارف وتسعير العملة الأوروبية، وكثيرًا ما يرفع عقيرته قائلًا: أقول لكم إنه لا بد من شيء يُعمل قبل أن تثوب هذه البلاد إلى قرار يطمأن عليه في شئونها المالية، كيف لا ...؟! هاكم روسيا مثلًا.

أو يرفع عقيرته قائلًا: يا لشباب هذه الأيام! إنهم لا يفهمون ما هو الاحترام، أقول لكم لا بد من تغيير، وسيكون هذا التغيير ... وإنما يأتي به الجيل القديم! ماذا يعرف هؤلاء الشباب عن مصاعب الحياة؟! ماذا يعرفون عن العمل؟ العمل الصحيح! أكثرهم لم يستوف عمل يوم قط، وكل ما يفكرون فيه رقص وعدو، وجولان ومعاقرة ... انظر إلى زيهم ... انظر إلى ...

ويؤمنون على كلامه قائلين: هذا هو الواقع ... لقد كنت أقول ذلك أمس.

ثم لقد كانت له مشاركة في الأعمال المالية منذ سنة أو سنتين، ولم يعتزل العمل إلا استجابة لرجاء السيدة مينيك والأولاد حينما أقنعوه بالكف عن الجهد والتماس أسباب الراحة والتسلية ... والآن، وقد استعاد صحته واستردَّ نشاطه شيئًا فشيئًا، بدأ يخرج في نزهات صباحية، ومن ثم أخذ يُعنى بملبسه وحسن هندامه ... وقد اعتاد أن يحلق لحيته بنفسه، وظل مثابرًا على هذه العادة، وكان يحتل حجرة الاستحمام بكل ما فيها ساعات طويلة من النهار، مما كان يثير ثائرة نتي، فتكاد تجن، وإن كانت لا تقول شيئًا. كان ينغمس في الماء ويريقه، وينفخ ويتلبط، ولا يزال له ضجيج مسموع، ويتناثر منه رشاش المياه هنا وهناك، ويبلل السقف والجدران، فتناديه نتي من وراء الباب المغلق: أأنت متعب يا أبتاه؟

ويجيبها والمياه تتساقط من حوله: كلا يا بنية.

– لم أكن أعرف ...! لقد لبثت كثيرًا!

إنه لشيخ نظيف، وإن كان صداره أو سترته أو رباط عنقه لا يسلم من بقعة هنا، ولوثة هناك، وكانت مدام مينيك تزيلها وهو يرتدي ملابسه أو يخلعها، وتمسحها متذمرة متبرمة لإهماله العناية بملبسه، وإنه لراضٍ عن تبكيتها الخفي، مستريح إلى ما فيه من أمارات الاهتمام والعناية.

أما نتي فلم تكن لتزيل تلك البقع بنفسها على الإطلاق، وإن كانت تقول له في بعض الأحيان: اترك هذه البدلة يا أبي إذا سمحت لأرسلها مع جورج إلى «التنظيف»، وسيحضر الرجل غدًا؛ فينظر إلى ملابسه عاجلًا ويزيل بأظافره بقعة هنا وبقعة هناك.

فإذا انتهى من ملبسه وهندامه انصرف إلى الشارع الحادي والخمسين، فإذا جلس في القطار اتخذ في مجلسه هيئة الجد والانتظار، كأنه يسعى لمصلحة هامة، فيطل من النافذة آنة بعد أخرى، وينظر إلى ساعته حينًا بعد حين، فيخيل إليك، وأنت تنظر إليه، أن هذا الرجل الوسيم الذي تلوح عليه دلائل العناية بشأنه، رجل من رجال الأعمال في طريقه إلى عمله بالمدينة.

أقام في شيكاجو خمسين سنة، فهو يذكر شارع الدواوين منذ كان حيًّا تعمره الأكواخ وتظلله الأدواح، كذلك كان من مألوفاته كل ما يحيط به من زحام وضوضاء، أما الآن فربما بدا له أن طريق المدينة شاقٌّ خطر بين زئير القطارات المتتالية وأصداء الأبواق العالية، وقرقعة المركبات ... مارستان يزعجه ويخيفه من أمر شيكاجو تلك!

ويقفز إلى الشارع كالأرنب المذعور، ناسيًا حركة السيارات، غير آبه بما ينصب عليه من سباب ركابها: «ويلك ...! فتح ...! حاسب يا ...» ويأتي الشرطي إليه أحيانًا يعرض معونته، فيرفض بإباء، ويخاطب ذلك الشرطي — وإنه لرجل طوال جاد براء من صخب الشرطة على الجملة — فيقول: إنني كنت أعبر هذه الطريق قبل أن تولد يا صاح! فدعني من مساعدتك! إنني لست هنا بالفدم المقبل من الريف.

وإنه ليزور دار العملة فيغتم ويحزن؛ لأن الأسهم لم تزل في هبوط بعد هبوط.

إن خمسمائته السنوية لمصونة، ولكن البقية ضائعة أبدًا فيما يحسب، ويتجه نحو مكتب جورج وفيه نخبة أنيقة من الشباب، بين فتيان وفتيات، في تلك الحجرة الواسعة التي تفيض عليها الأضواء، وقد علقت على جانب من كل مكتب لوحة معدنية عليها اسم صاحبه: «مستر أدين، مستر سترلي، مستر جيمس، مس روش، مستر مينيك».

ويبتدره جورج: «هلم يا أبي، ما الذي أتى بك إلى هنا؟!»

– لا شيء، لا شيء. كانت لديَّ بعض الأعمال الخاصة بالأوراق المالية، فخطر لي أن أمر بكم. كيف تسير الأعمال؟

– سيئة!

ويقول الشيخ مينيك موافقًا: «أظنها كذلك، أظنها كذلك.» ولقد ود جورج لو أنه لم يحضر إليه، فلا قِبل له بهذه الزيارات، ولا سيما حين يدلف الشيخ مينيك إلى المكتب الذي نقش عليه اسم سترلي أو أدين أو جيمس، فيومئ إليه أولئك الشباب بنظراتهم، ثم يكبون على أوراقهم وملفاتهم. ويقف الشيخ مينيك ويزن قامته من فرعه إلى قدمه، وينفث نفثة في الهواء، ويبدو ممتقع اللون قليلًا، متضائل الجسم تحت الأشعة المسلطة على الزجاج، ولعل منظره هذا من وحي المناقضة بينه وبين ذلك الشباب الوضيء.

وتراه ينظر إلى أحدهم ويقول: هأنتذا هنا اليوم يا مستر سترلي، كيف حالك؟

وينصرف عنه مستر سترلي، ولا ينظر إليه وهو يقول: إنني على ما يرام … ليس عندي ما أشكوه.

– حسن، حسن!

– هل من شيء أستطيع أن أؤديه لك؟

– كلا، لا شيء على الإطلاق، أنا حضرت لأرى ابني لحظة.

ويتمالك الفتى لهجته قليلًا والشيخ مينيك يترنح إلى جواره، ثم يلقي عليه نظرة عابسة قائلًا: أجل، إن ابنك مكتبه هنالك، أظن هذا.

وكان لجورج ونتي مناجاة ليلية حول هذه الزيارات، وتقول نتي في لطف: إن زيارة الأصدقاء والأقارب ممنوعة في المصرف، فهي على خلاف أصولهم وأنظمتهم، ولقد كانت كذلك حين كنت أعمل بها، ولم أزر جورج غير مرة واحدة منذ زواجنا.

– أجل، أجل إنه نظام الشغل منذ كان؛ زحام وانهماك، ولا متسع في الوقت لغير ذاك، واشتد الشتاء هذا العام وأربى على كل شتاء مضى بثلجه وقارس برده، فاعتكف بين جدران المنزل بضعة أيام … إن امرأة في مثل سنه كان في وسعها أن تشغل نفسها بعمل نافع من الأعمال البيتية، وهي سعيدة راضية: ستارة تخيطها وتنسجها، أو حجرة تنظفها، أو طعام تطهوه وتقوم بتحضيره، أو فستان قديم تحيله جديدًا، أو تستطيع أن تشغل نفسها في استقبال أترابها … ولكن شيخًا مثل مينيك لا يجد في المنزل أعمالًا تشغله ليحتمل البقاء فيه، إنه لا يقدر على أي عمل من هذه الأعمال الصغيرة … دق مسمار في

الحائط مثلًا، أو رسم صورة، أو عمل كائنًا ما كان من هذه الهنات ... وإن نتي لتستطيع أن تدق مسمارًا خيرًا منه، وقد تأخذه من يده وتقول: لا يعنيك هذا يا أبتي.

وتدقه بنفسها: اجلس أنت واسترح، أليس هذا وقت قيلولتك؟

وتنتفخ أوداجه قليلًا وهو يقول: النوم ...! لقد استيقظت الآن من رقادي ...! لا أريد أن أقضي حياتي نائمًا.

كان لجورج ونتي بعض الأصدقاء يترددون عليهما في المساء، فيلعبان البردج أو البوكر، ويتبادلان معهم الأحاديث ... ويدعوه جورج: هلم يا أبي، أنتم تعرفون والدي؟ ألا تعرفونه؟ ويجلس في تردد، ثم يحاول أن يتكلم ويفيض كما كان يفعل في منزله القديم بشارع إليس: أريد أن أقول إن هذه الأمة ستصل إلى ... ولكنهم يستطردون في أحاديثهم ولا يأبهون لكلامه ... وربما قاطعوه وأعرضوا عنه في شيء من الأدب، وهكذا كان يجلس في الحجرة كمًّا مهملًا ... وربما كانت الأحاديث تدور حوله وهو ضائع بينهم كل الضياع، ويلتفت إليه نتي وجورج من آن لآخر، ويرفعان صوتهما — ولم يكن أصم، وبذلك كان يفخر: إنهم يتحدثون عن هذا الأمر يا أبي ... إنهم يقولون ...

فإذا بدرت من أحدهم نكتة، وانفجر القوم يقهقهون، ابتسم وهو لا يدري ما يقال، ويقلب نظره بين وجوههم واحدًا بعد واحد، وهو لا يدري ما يدور حوله، ثم أخذ من بعد يكثر الجلوس في حجرة نومه ليدخن، أو يقرأ صحيفة من صحف المساء، وقد توثقت الصلات بينه وبين الجارية الغاسلة في هذا الشتاء، وهي تأتي لغسل الملابس داخل الحمام مرة كل أسبوع، ولكنها تغشى المطبخ لتناول الطعام: جارية سوداء تلبس صدارًا من الجلد، ذات صوت خشن، وعين نفاذة، وقلب طيب ... وهو ينتظر قدومها دائمًا على الدرج.

– أو ... كيف حال السيد مينيك اليوم؟ عجبًا لك أيها السيد، إنني لم أر رجلًا في سنك وفي مثل رشاقتك ولطفك! فيبسط كتفيه ويهز رأسه عند سماع هذا الثناء الذي يندر أن يطرق أذنيه، وتستلقي كناري برأسها إلى الوراء، وهي تقهقه بصوتها الأجش، ثم تجيء نتي تقول: إن كناري تتناول عشاءها، ألا تقبل وتجلس في حجرة الاستقبال؟ سوف نتناول عشاءنا بعد نصف ساعة.

فيتبعها طائعًا. إن نتي قد أصبحت تنظر إليه كأنه طفل متعب ظريف؛ طفل لا يكبر أبدًا، وإذا كانت تفكر في هذا الرأس الأشيب، فإنما تفكر فيه لتعطف على شيخوخته، وإنها لا تدري أنه قد نفذ إلى أغوارها، وأنه قضى بحكمه عليها في غير رحمة، فما كان لها أن تستشف ما ينطوي عليه هذا الرأس من الرأي الحصيف.

إنه يعرف النساء ...! إنه كان زوجًا لامرأة، وكان أبًا لأطفال، وهو ينظر إلى هذه المرأة — كنته — تروح وتجيء بين حجراتها الخمس، وتفكر ما تفكر عن الأبناء، ويسمعها حينما تشرح آراءها في الطفولة والأطفال، وأنهم لا يصلحون إلا على هذه الحال، وتلك الحال، ولا غنًى في تربيتهم عن المال، أجل، إنه وزوجه كان لهما ثلاثة أطفال: بول الثاني وقد توفي في الثالثة عشرة من عمره، وكانت ضربة قاسية، ولم يفكر يومًا ما كيف يربي الثلاثة الآخرين، وما كان ليرسم قبل مولدهم خططًا عن تربيتهم كيف تكون، والنفقة عليهم من أين تأتي ...؟ ولكن هذه الخطط ترتسم بعد مولدهم على نحو من الأنحاء.

إن أمر الأولاد يُدبَّر بأي طريق، وهذه الكرة الحمراء من اللحم والدم تهتدي إلى طريقها في الحياة بغير تدبير، وهذا جورج حينما ولد منذ تسع وثلاثين سنة لم يكن أبوه وأمه على حالة يحسد عليها إنسان.

كان يجلس في مكانه صامتًا وقد أهملته نتي، إلا أنه ما فتئ يتفحص خبايا نفسها، ويعرف ما في كلامها من التمويه: امرأة غضة الإهاب، وسط بين الطول والقِصر، عريضة الردفين ... أنثى مُهَيَّأة للحمل والولادة، وها هي ذي تعمل موظفة في مصرف ... أكان في التوراة ذِكْر لامرأة تعمل في المصارف ...؟! هذه امرأة خلقت لإنجاب الأطفال.

كان هذا تفكيره، بينما كانت هي تظنه شيخًا هرمًا لا يُلْقى إليه بالٌ، فلما جاء شهر مارس دعت نتي خياطة تقضي بمنزلها أسبوعًا، كما كانت تفعل مرتين أو ثلاثًا كل عام. لها ملامح صقرية، في نحو التاسعة والأربعين، وجهها كالقارورة الزرقاء، وعيناها ضاريتان: تخيط الثياب في حجرة الطعام، فيسمع في البيت طنين آلة الخياطة والمقصات، ولغط الأحاديث وحفيف الحرير ... فاتصلت الصحبة بينها وبين الشيخ مينيك، فأصبحا صديقين، وكثيرًا ما كانت تستعين به على لف الخيط أو سحبه، وتطارحه الأحاديث، حينما تخرج نتي فيما بين الثانية والرابعة بين الوجبات، ويهز رأسه ويقول: لا بد أن أتقاضى أجرًا دائمًا على هذه المساعدة.

– أظنك لست في حاجة إلى الأجر يا سيد مينيك، إنك في يسر ودعة، على ما أرى.

– أجل، إنني لا أستقل خمسمائة في العام، ولا أشكو بحمد الله.

– الشكوى! إنني لا أشكو، لو كان الأمر أمر شكوى لتغيرت الحال، فأنا أواصل العمل طوال يومي لأكسب ما يقيم أودي، وإذا دخل الليل فلا يدخل عليَّ أحد.

– أنت أرمل؟

– إنني أشتغل وأشتغل منذ كنت في العشرين من عمري، هذا كل ما لدي، ثم الوحدة ... لا إخالك تعرف ما الوحدة.

– أنا لا أعرف؟! وتسقط لفافة الخيط من يده …

ثم تلقى عليه نظرة من تلك العين الضارية، وتقول: ربما كنت تعرف …

– لا أظن المعيشة هنا بين الابن وزوجه مما يروقك ويلائمك مع ما لديك من مال؟ أما أنا فعلى الدوام أدبر مسكني الصغير حتى أستطيع أن أقول إن لي بيتًا آوى إليه: حجرتان فحسب، وليس عندي ما يسليني، إلا أنه بيت على كل حال … أقضي ليالي في مزاولة الطبخ، وليس عندي ما أشغل به نفسي، ولكني أجد ما يشغلني؛ إن الطبخ هو الشيء الذي أحب أن أزاوله، الطعام الوفير هو ما يحتاج إليه الناس ليقيموا أَوَدَهم ويحتفظوا بقوتهم.

ولقد كانت أكله نتي ضئيلة في هذا اليوم!

ظلت الخياطة لديهم أسبوعًا، وكانت تغتاب نتي فيقاطعها معترضًا، ولكن في غير جد، فتسائله: هل تقدم إليك ما تشتهي من البيض واللبن؟ هل تزودك بكأس من النبيذ المشعشع بالماء الساخن؟ هل تواليك بالحساء والأطعمة الدسمة على اختلافها واللحوم والعصائد؟ هذا ما يحتاج إليه الناس حينما يتخطون سن الشباب.

ولم تكن تقول إنه شيخ على الإطلاق، بل إنه أكثر إشراقًا من الصبية، وتكاد تصرح بأنه أجمل من ابنه!

كان يتقبل هذا الكلام بنهم الجوعان، وفي اليوم الثالث من إقامتها بدأت تلقي عليه نظرات ذات مغزى وهي جالسة على مائدة الطعام، فلما جاء اليوم الرابع بدأت تضغط قدمه تحت المائدة، وفي اليوم الخامس، ونتي غائبة، قامت وهي تتظاهر بأنها تبحث عن قطعة من القماش ووضعت يدها على كتفه ثم عادت تضغطها قليلًا، ونظر إليها مرتاعًا. لقد كانت تلك النظرات التي تلقيها عليه من فوق المائدة تتخطى رأسه وتمر في سبيلها، والقدم التي تحت المائدة قد تمسه على غير عمد، ولكن هذا أمر صريح لا مغالطة فيه، فوقف وقد اعترته رجفة، وإذا تلك الملامح الصقرية أمامه وجهًا لوجه!

قالت: أنت في حاجة إلى من يحبك، أنت في حاجة إلى من يعمل لأجلك ويحبك.

واقترب منه وجه الصقر قليلًا، ولكن كان يلمح بينها وبينه وجه السيدة مينيك، غضًّا، بضًّا، صابرًا، مازحًا … فأشاح بوجهه في حدة، وألقى يدها الدافئة بعيدًا عنه … وكانت قد أخذت بيده، وصاح بها: أيتها المرأة إيزابل![٢]

[٢] امرأة جريئة عاصية، ورد ذكرها في سِفر الملوك من العهد القديم.

سمع الباب الخارجي يغلق، ودخلت نتي، فانصرفت المرأة مسرعة إلى أعمالها، أما مينيك فارتجف وبادر إلى حجرة نومه.

قالت نتي، وهي تضع اللفافة التي معها على المائدة: أجل، هل تناولت ما في إنائك من قطع الكباب؟ لماذا لم تأكلي؟

– أشعر بأنني لست على ما يرام، وإن هذا الغذاء لا يلائمني.

– إنها وجبة بسيطة، وليس فيها ما يتعب.

فلما جاء اليوم التالي لم تحضر لإنجاز ما تبقى من عملها، وأبلغتهم بالتليفون بأنها مريضة ...!

فقالت نتي: إنها قحة، وأنجزت بقية الخياطة بيدها على مضض.

أما الأب مينيك فإنه لم يقل شيئًا، ولكن عيناه كانتا تبرقان، ويتهانف من آن لآخر، مما ضايق نتي وإن لم تنبس بكلمة، وهمس وكأنه يخاطب نفسه وهو يقهقه: تريد أن تتزوجني تلك المرأة السليطة!

ولما كان آخر إبريل اكتشف الشيخ مينيك متنزه واشنطون وناديه، ومنذ ذلك اليوم تغير مجرى حياته: انتهز غرة الربيع وشمسه المشرقة ليتنزه خارج البيت كما اقترحت عليه نتي، وكانت تقول له: «لماذا لا تذهب إلى المتنزه يا أبتاه؟ إن الجو دافئ، والشمس مشرقة تفيدك.»

ولبس أثقل قميص لديه وارتدى سترة جورج الحمراء، وفي الصدر منها علامة س. تشير إلى براعته الرياضية أيام كان في جامعة شيكاجو، وفوق كل ذلك معطفه الثقيل، وفي يديه القفاز، وهو يتوكأ على عصاه المتوجة بالرأس السلوقي، ثم خرج بعد أن تزمل على هذا المنوال سائرًا سادرًا إلى المتنزه، فإذا هو يصيب هنالك حياة جديدة، حياة جديدة في حياة قديمة، فقد كان المتنزه حافلًا بالشيوخ يحمل بعضهم العصا المتوجة بالرأس السلوقي، ويرتدون ستر غيرهم وقمصانهم تحت المعاطف، ويلبسون ملابس القطب الشمالي وإن كان الجو صحوًا، وقد بدت أيديهم وعظام خدودهم مصقولة ضامرة على الرغم من غضونة أخاديدها، وظهرت فوق أيديهم وعلى جباههم رقطات رمادية، وارتخت على كعوبهم جوارب رمادية أو سمراء.

منذ هذا الصباح من شهر إبريل إلى الشتاء كان المتنزه يرى وجه الشيخ مينيك كل يوم، بل كل ساعة من ساعات النهار، عدا وقت الطعام وساعة القيلولة القصيرة، أما ما عدا ذلك فقد كان وقته كله مقضيًّا هناك.

ففي هذا المتنزه يجتمع الشيخ مينيك بأمثاله من الشيوخ، ويجعلونه منتدًى للمناقشات البريئة التي ينفسون بها عن أنفسهم.

ولم يمض وقت طويل حتى عرف أن المتنزه يجمع فريقين من الشيوخ: الشيوخ الذين يعيشون مع أبنائهم المتزوجين وزوجاتهم، أو بناتهم المتزوجات وأزواجهن، والشيوخ الذين يعيشون في النزل المعد لكبار السن، وهو على مقربة من المتنزه، ويراه الناظر إليه من خلال الأشجار.

أما الفريق الأول فهجيراهم من الحديث «أي ديدنهم في تكرار الكلام» ما يلي: «إن ابني وابنتي يأبيان عليَّ أن أقيم في مسكن عام، كلا يا سيدي، إنهما يأبيان إلا أن أكون إلى جوارهما وفي مسكنهما. هؤلاء أبنائي وتلك خصالهم»!

أما الفريق الثاني فهجيراهم من الحديث غير ذلك؛ يقول أحدهم: «أنا لا أقبل أن أعيش مع أحد من أبنائي أو بناتي! الاستقلال خير من كل شيء، هذه طريقي وذلك مسلكي، لا أريد أن أرى أحدًا يرشدني إلى ما أفعل وما لا أفعل، ويعاملني كأنني طفل صغير، لست ملكًا لأحد، أدفع نقودي وأعيش عيشتي!»

ولشدَّ ما يأخذك العجب حين ترى الفريق الأول، وعلى ملابسهم بعض البقع وقد تنسلت أطواقهم وراحوا يؤدون لكَنَّاتهم بعض الرسالات: رغيف خبز، أو بكرة خيط، أو يقودون الأطفال الكبار إلى بركة البط، وهم يمشون كالأطفال، وهؤلاء الأطفال بينهم لا تدري أيهم يقود، وأيهم يُقاد؟!

أما الفريق الآخر فتبدو أحذيتهم نظيفة، وتنظر إلى ملابسهم القطنية فلا تجد عليها بقعة من الأوساخ، فضلًا عن ملابسهم الصوفية. ليس وراءهم تلك الواجبات الصغيرة التي يكلفها الفريق الأول. فراغ عظيم وأحاديث عظيمة، لم تكن مقصورة على المسائل الدولية فحسب، بل كانت عالمية أو كونية في بعض الأحايين: الحرب! السلم! نزع السلاح! الصين! فقاقيع تتصاعد في الهواء، ثم تنفجر، ولا يبقى غير الزبد والرغاء، وكان في هؤلاء الغذاء الصالح للشيخ مينيك الذي صبر أمدًا طويلًا على غذاء الأطفال!

كان هذا الفريق يجتمع ما بين الرابعة والخامسة، في مكان يسمونه: تحت ظلال شجرة الصفصاف. ويكون اجتماعهم في شبه منتدى، يشتمل على فريق من الاشتراكيين وثوار الحجرات والمقاصير ... نسق متصل من الأحاديث، يظلون منصرفين إلى هذا عامًا بعد عام ...!

وقد تعلم الشيخ مينيك أمثال هذه الكلمات الطنانة: السادة، الديمقراطية، كدح الكثيرين لمنفعة القليلين، الطبقة، الحاكم، حرية القول، الشعب ... إلخ.

كان أصحاب العناد منهم يثبتون على لجاجتهم، أما الضعاف فيحومون حول الحواشي ويلوذون آنة بعد أخرى بكنف حفيد واسع العينين. ولم تكن هذه الأحاديث تصطبغ بالصبغة العامة، ولا تحتدم جدًّا وحماسة إلا حوالي الحادية عشرة من الصباح؛ إذ يتكون هؤلاء الشيوخ جماعات صغيرة من شخصين أو ثلاثة أو أربعة، على المقاعد الخشبية تحت الشمس، وتبدر منهم أحيانًا كلمات بذيئة، غير حافلين بالسيدات الشيب اللاتي يستمتعن مثلهم بأشعة الشمس، ويرقبون الفتيات اللاتي يطفن بمقاعدهم ويُعجبون بقاماتهن وكعوبهن الصقيلات!

كان اليوم الذي يقضونه بتلك الضاحية القريبة، من أسعد أوقاتهم، يتهانفون بينهم، ويعلقون بما يطيب لهم من التعليقات الخبيثة؛ رءوس بِيض، وشيوخ متهدمون إلا أنه قد تخلفت في عقولهم نزوات الذكران! وكأنهم أطفال شياطين يلفون بينهم في الخلاء!

وسرعان ما حصل الشيخ مينيك على مكان الصدارة في الأحاديث التي كانت تدور هناك، وإنه ليحب الكلام دائمًا، وكانت هذه السنة الأخيرة عنده بمثابة سجن لا يطاق.

فكر بادئ الأمر مترددًا فيمن هم على شاكلته، ولشد ما كانت تستثيره محادثات أولئك الشيوخ الذين يجلسون على مقاعدهم في انتظار موعد الطعام يراقبون كل ما يمر على أعينهم: هذا قارب لطيف، فيلا في قارب!

ويسكتون لحظة ثم يضجون بالضحك!

وبعد خمس دقائق: انظر هؤلاء الجالسين على الحشائش، ما خبطهم؟! ألا يحسون حرارة الجو؟! ها هم أولاء ينهضون.

وتمر فِرقة من الفرسان بالطريق المقابل للبركة. تسمع لها أصوات تفسد زهو الربيع، بينهم نساء يرتدين الثياب القرمزية أو الخضراء النضرة تستوقف النظر.

– فرسان!

– أجل!

– جوٌّ يلائم الركوب.

وهنا رجل يصطاد السمك قريبًا منهم: جوٌّ بديع يلائم الصيد!

– أجل.

– كم الساعة؟

وينتزع أحدهم ساعة ذهبية كبيرة من جيبه: إحدى عشرة ودقيقة.

ويسحب الشيخ مينيك ساعة ثقيلة: عندي إحدى عشرة!

– عندك تقديم على ما أظن.

وكان الشيخ مينيك يشمئز من هذه الأحاديث، ويتململ ويقول في نفسه: ليست هذه أحاديث! هذا موت شفوي! وإن كان لا يُظهر امتعاضه؛ فاتصل بالفريق الآخر الذين كانوا يتباحثون في تحضير الأرواح، فأصغى إليهم، ثم أبدى رأيًا قوبل بالاحترام، ثم هوجم بعد ذلك بغير شفقة، ورفع عقيرته بالكلام فاكتسب النقاش.

قال أحدهم: أظنك تسكن النزل، أليس كذلك؟

فأجاب الشيخ مينيك فخورًا: كلا، إنني أعيش مع ابني وزوجه، إنهما لا يرضيان بغير ذلك.

– أو ... أنا أحب أن أكون مستقلًّا.

– ألا تجد بعض الوحشة؟!

– تقول وحشة، أيها السيد؟ قلت لي اسمك مينيك، وأنا اسمي هيوز، إنني لم أشعر بالوحدة طوال حياتي إلا ستة أشهر عشتها مع ابنتي وزوجها وأطفالها الخمسة، هذا ما أسميه وحدة ووحشة!

وكان جورج ونتي يقولان له: لقد استفدت يا أبت من نزهتك في الهواء الطلق. وحقًّا قد بدا في عينيه بريق، وانتصبت قامته، وأشرقت بشرته، وكان ذلك هو اليوم الذي تناول فيه موضوع الهجرة فصيحًا مفيضًا في الحديث.

وطفق مثابرًا على المجلات والصحف، ورسالة من هنا ورسالة من هناك، ليحتفظ بمكانته، ويتابع أحدث الموضوعات ... وأقبل يلتهم الكتب والنشرات التي تتناول شئون المال والشركات، مما يجلبه جورج إلى المنزل، فأصبح لديهم في المتنزه مرجعًا في مشاكل المصارف والأسهم والأوراق المالية. ويقضي الأسابيع هو ورجل من رجال المصالح المتقاعدين يدعى موري في مناقشة مسألة واحدة لا يختمانها ...!

واستراح جورج ونتي إلى هذه النزهات، وظنًّا أنه يقضي هناك ساعات مهمومة من أصدقائه الشيوخ، لا يبحثون فيها شيئًا ذا بال. كان في تلك الأيام يلتهم وجباته من الطعام، ولا همَّ له إلا أن يملأ جوفه ويعب ملأه من الشراب!

انتهى الصيف وانصرم، وأقبل الخريف يحمل همًّا جديدًا للشيخ مينيك، أين يذهب إذا حلَّ فصل الشتاء؟ أليس مصيره إلى ذلك المسكن ذي الحجرات الخمس يأوي إليه طوال النهار؟ حيث الفراش الصغير وحيث العدم! لقد دارت بخاطره أغنية كان الأطفال يرددونها قديمًا ويتغنون بها في المدرسة، أغنية تافهة لا طعم لها:

«أين تذهب العصافير؟ إنني أعرف، إنني أعرف!»

لكنه لم يعرف، واستولى عليه رعب وفزع، وأقبل شهر أكتوبر وأدبر، واستحال في أوائل نوفمبر الذهاب إلى المتنزه حتى عند الظهيرة، وحتى إذا ارتدى المعطف والصدار، واسودَّ في نظره لون الجليد الأبيض، وجعل يترقب مطالع السماء يرصد الأمطار والثلوج.

وكان هناك دكان لبيع التبغ، ونادٍ للبليار على زاوية الطريق، فكان يذهب إليه مع طائفة من زملاء المنتدى، يقفون وراء اللاعبين ويرقبونهم وهم يلعبون، إلا أنه كان شاغلًا مملًّا، وكان سكان النُّزل لا يحضرون إليه، فعندهم في نُزلهم حجراته المعدة للألعاب.

وانصرف من تلك المغارة الغائمة بالدخان مهيض القلب واجم الجبين ... لقد حاول أن يواجه الشتاء فلم يستطع، وكان يرتعد فرقًا لما يلقاه.

ثم بلغ المسكن، فذهب إلى الباب الخلفي كدأبه كل يوم، وكان حذاؤه مبتلًّا موحلًا، وإن البسط في المنزل لنظيفة من الطراز الحديث، وإنه ليجد الباب الخارجي مفتوحًا فيذكر أن اليوم هو يوم كناري تحت السلم، ويخلع حذاءه في المطبخ ويدخل حجرة الطعام، ويستمع إلى أصوات، فإذا نتي مع زوارٍ من صديقاتها، لعلهن في دعوة شاي ... ويعود أدراجه إلى حجرته، فيستوقفه ذكرُ اسمِه على لسان نتي ويسمعها تقول: لولا أن والد جورج معنا لكان لي أولاد ... ولكن كيف ووالد جورج يقيم معنا؟! ليس لدينا متسع، ولا نستطيع أن نستأجر مكانًا أوسع مع ما هو معروف من ارتفاع إيجار المساكن، إن مسكننا بهذه الحال لا يصلح لأن يربى فيه طفل، وقد تفاهمنا على ذلك أنا وجورج ... ما ظنكن، ما دام والد جورج معنا فلا نستطيع. لا أعني أننا نستعمل حجرة الخدم لهذا أو لذاك من الشئون إذا رزقنا طفلًا، ولكن يجب أن يكون لديَّ أحد يساعدني حينذاك، وفي هذه الحال يجب أن تكون لدينا حجرة زائدة.

وظل هنالك في حجرة الطعام ساكنًا لا يتحرك، وكان يحسُّ قشعريرة تدبُّ في أوصاله وكأنما قد تخدر، إلا أن ذهنه كان في نصب واصب: الأمر واضح كل الوضوح، ويكاد صوابه يطير! وعلى الرغم من هذا النصب الواصب كان يتضح أمامه شبح الموت، فقد كان الموت أول ما خطر له في تلك اللحظة، وما أهونه إذن، إلا أنه لم يكن يحب أن يموت، عجبًا! إنه لم يكن يحب أن يموت ... كان يهوى الحياة: المتنزه، الأشجار، المنتدى، الحديث، وكل ما هنالك ... إن نتي فتاة طيبة، ولكن على الشيخ أن يخلي مكانه للشباب، إن لهم الحق في أن يولدوا ... ربما كان هذا عذرًا آخر؛ لقد انقضت أربع سنوات منذ تزوجت، لماذا لا يكون ذلك منذ ثلاث سنين؟! حق في الحياة ... حق في الحياة.

تسلل إلى المطبخ، ولبس حذاءه، وخرج في الظلام، عصر يوم من أيام نوفمبر القاتمة، ثم عاد ولم تمض ساعة، ودخل هذه المرة من الباب الأمامي ودق الجرس ... لم يكن معه مفتاح، ولم يحدث أن كان معه مفتاح على الإطلاق، كأنه طفل من الأطفال لا يأتمنونه على مفتاح، وكانت صديقات نتي خارجات في تلك اللحظة فانتشر أريج العطر ونكهة الشاي والطلاء، فاستنشقها بارتياح ... قلق ... كيف حالك يا مستر مينيك؟ كيف حالك؟ كيف تقضي هذه الأيام؟

وابتسم بسرور وهو يخلع معطفه الثقيل والقميص الأحمر المكتوب عليه علامة س. وقال: كيف أقضيها؟ أقضيها على نية الانتقال!

قالت نتي وقد نظرت إليه مرتاعة: على نية الانتقال يا أبتي؟!

– إن الشيوخ يجب أن يفسحوا في المجال للشباب، هذا قانون الحياة، أجل يا سيدتي ... الأطفال الجدد، الجدد!

قالت نتي — وقد احمر وجهها خجلًا: ماذا حدث يا أبتي؟!

– لقد وقعت على اتفاق للإقامة في النُّزُل اليوم، وسأنتقل إليه في الأسبوع القادم.

والتفتت إليه السيدات وقد تبسمن، ودنا منها الشيخ مينيك، وربت على ذراعها البضة، وقرص خدها، وهزه قليلًا.

قالت نتي مبهورة: لا أدري ماذا تعني؟!

قال الشيخ مينيك: أجل إنك تعرفين.

وكان في طيات تعبيره مسحة من الصرامة وإن شيبت لهجته بنغمة المزاح.

ولما دخل النُّزل، كان فريق من القوم يجلسون أمام الموقد في حجرة الاستقبال، وقد بدت عليهم أمارات الصحة والنشاط، فحيوه بلطف على عادتهم معه حينما كان يقبل عليهم بالمتنزه: استمع يا مينيك، إن موري هنا يقول إن الصين يجب أن تضم إلى حلف الدول الأربع، ويقول ... وسلك الشيخ مينيك حلقه وقال: هاكم الصين بأجمعها فخذوها بأراضيها الشاسعة وتجاربها ومنابعها الصافية العذراء ...!

ووقفت أمامه خادم تفاحية الوجنة ترتدي حُلَّة سوداء وميدعة يضاء وقالت له: إن مدير النُّزل ينبئك أن حجرتك على استعداد، أتحب أن تراها الآن؟

– انتظري دقيقة واحدة يا بنيتي.

ونحاها جانبًا باعتداد الرجل الذي يدفع خمسمائة ريال لاستقلاله وحريته، وهمت الفتاة بالمسير، فناداها: استمعي يا فتاتي الصغيرة، استمعي أيتها الفتاة الصغيرة!

ولما التفتت إليه، قال: أبلغي مدير المسكن أن يحضر لي وسادتين لفراشي، وسادتين، أتفهمين؟

– أجل يا سيدي، وسادتين لقد فهمت!

(٥) ستيفن فنسنت بنيت ١٨٩٨–١٩٤٣

من سلالة إسبانيَّة، ومن أسرة أدباء وشعراء، وله أخ وأخت شاعران أديبان، وأجداده الأولون جنود عسكريون.

ولد في بيت لحم «بنسلفانيا»، وتخرَّج في جامعة ييل، ثم حضر بعض الدروس في السربون، ونشر أول ديوان له: «قصائد في المناجاة الأحادية» أو المنلوجات وهو في السابعة عشرة، وكان مثلًا من الأمثلة النادرة على النجاح «الرسمي» والنجاح الشعبي معًا، فأحرز جائزة بوليتزر، وأحرز الجائزة القومية للشعر، وعُين وكيلًا لمعهد الفنون القومي، وراجت كتبه بين طبقات القراء على ندرة رواج الملاحم والمقطوعات الغنائية في العصر الحديث.

شاعر في نظمه، وفي اختيار الموضوعات لقصصه، وأكثرها من المأثورات الشعبية التي يلتقي فيها الواقع بالخيال وتتقارب فيها آيات البطولة وخوارق الطبيعة، ومذهبه فيها أن خلق الأساطير غير مقصور على خيال الأقدمين، فإن الأحياء يحفظون من المرويات المأثورة عن أبطال التاريخ القريب تحفًا من هذه النوادر التي يزخرفونها بحلية الإعجاب وروائع الخيال، فلا يقفون بها دون شأو الأقدمين فيما يروونه عن الأبطال من أنصاف الأناسي والأرباب.

وهو مولع بنوادر التاريخ الأمريكي وتراجم أبطاله: طريقته في سردها، شعرًا أو قصة، أن يحليها بالطُّرَف الشائقة، وأن تكون هذه الطُّرَف لبًّا من لبابها، ولا تكون كما قال: «كالزبيب في الفطيرة.» يحليها ولا يدخل في خبيزها، وله ملحمة شعرية بعنوان: «رفات جون براون» تعدُّ نموذجًا لهذه الطريقة، يروي فيها قصة الحرب الأهلية ويصور فيها أشخاص لنكولن ودافيزولي وجاكسون، ويبدؤها من النزاع على تجارة الرقيق، ويختمها بحوادث سنة ١٨٦٥، وقصته النثرية التالية نموذج آخر لهذه الطريقة في القصة القصيرة التي يرويها عن المأثورات الشعبية، ويقارب فيها على أسلوب «الشعبيات» بين آيات البطولة وخوارق الطبيعة كما تقدم، فالبطل فيها خطيب أمريكا الأشهر دانيال وبستر، يغلب كيد الشيطان ببلاغته، ويسلط بيانه القاهر على عقول المحلفين المختارين من أشرار الجحيم، فيسحرهم وينسيهم شرورهم، ويبعد ما بينهم وبين الشيطان، فيبطلون

دعواه، وينقضون وثائقه وينصرون عليه غريمه الخائن[٣] في يوم القضاء … وقد وضعت هذه القصة في القالب التمثيلي، ثم في قالب المسرحية الغنائية.

ومن الألفة بين فنه وبين الأذواق الشعبية أنه كان ينظم القصائد التمثيلية للإذاعة، فيستزيده المستمعون، وكانت كتاباته التاريخية تطبع وتتداول بين الجنود وجمهرة القراء. وهو من الشعراء القلائل الذين استطاعوا التوفيق بين أذواق الخاصة وجمهرة القراء، وساعده على ذلك أنه كان كما قال: «يكتب عن الماضي ويتحاشى أن يفسده، بأن يعاش من جديد.» وإنما يكتبه ليصل بينه وبين المستقبل بحلقة من الواقع تلتقي بطرفين مختلفين.

(٥-١) الشيطان ودانيال وبستر

بقلم: ستيفن فنسنت بنيت

إنها قصة يروونها في أقاليم الحدود حيث تلتقي ماساشوستس بفرمونت وهمبشير الجديدة.

نعم، إن دانيال وبستر ميِّت، أو هم، على الأقل، قد دفنوه، ولكنهم كلما سمعوا الرعد على مقربة من مرشفيلد قالوا إنكم لتسمعون صوته القاصف في أجواز الفضاء، ويقولون إنك إذا ذهبت إلى قبره وناديت: «دانيال وبستر، دانيال وبستر» أخذت الأرض ترتجف، والأشجار تترنح، وسمعت بعد قليل صوتًا أجش يسأل: أيها الجار، كيف حال الاتحاد؟ وخير لك إذن أن تجيب قائلًا: «إن الاتحاد قائم كما قام … أساس من الصخر وغشاء من النحاس، واحد متحد غير منقسم …» وإلا فإنه ليستطيع أن يشق الأرض ويخرج منها … أو هكذا على الأقل كنت أسمع منهم في صباي.

وأعلم أنه كان يومًا ما أكبر إنسان في البلاد، ولم يتولَّ الرياسة مرة، ولكنه كان أكبر إنسان، وكان في البلاد ألوف يؤمنون به بعد إيمانهم بالله القدير، ويروون أقاصيصه، ويتحدثون بأخبار عنه على نمط تلك الأخبار التي نسمعها عن آباء التوراة وشيوخها الأبدال، وإنهم ليؤمنون أنه إذا قام خطيبًا برزت النجوم والأزياج من السماء، وأنه خطب مرة «ضد» نهر من الأنهار فغاض في أسفل الأرض، وأنه كان إذا خرج يتمشى في الغاب

[٣] الذي جاء حينه أو جاء أجله.

بصنارته قفز السمك إلى جيوبه، لأنه يعلم أنه لا منجى له منه، وأنه إذا دافع عن قضية، ففي وسعه أن يهز أوتار الأبرار ويسيطر على الأصداء في جوف الرغام ...

هكذا كان الرجل، وكذلك كانت ضيعته في مرشفيلد على قياسه، تلائمه وتوائمه، فكان الدجاج الذي يربيه كله لحم أبيض إلى الرجلين، وكانت أنعامه ترعى كما يرعى الأبناء، وكان الكبش الكبير الذي سماه جالوت ذا روق كقوس النصر، في قدرته أن يعشِّر نعاجه من وراء باب حديد.

على أن دانيال لم يكن من أولئك السادة الكسالى أصحاب الضياع، بل كان يعرف كل شيء عن الأرض وينهض ليتفقد شغل الحقل على ضوء الشموع! رجل له فم كفم الكلب الضليع، وأنف أشم كالطود، وعينان كجذوة النار ... ذلك هو دانيال وبستر في ريعانه، ولم تدون أكبر قضاياه التي تولاها على صفحات الكتب، لأنه كان يساجل فيها الشيطان دقة بدقة ... وهذه هي كما سمعناها مرات بعد مرات:

كان هنالك رجل يسمى جابيز ستون يقيم في «كروس كورنرز» بهمبشير الجديدة، ولم يكن رجلًا رديئًا — على فكرة — ولكنه كان سيِّئ الطالع، يزرع القمح فيبتلى بآفته، ويزرع البطاطس فيبتلى بآفتها، وأرضه من أجود الأرض ولكنها لا تسعده أو تغنيه، وله زوجة كريمة وأطفال، ولكنه كلما رزق طفلًا قلَّ رزقه، وإذا أثمرت الحجارة في حقل جاره فالصخور في حقله تتقد، وإذا كان له حصان متوعك باعه بحصان مختلج وأدى عليه فرقًا للبائع، وتلك شنشنة معهودة في بعض عباد الله. بَيْدَ أن جابيز ستون ضجر يومًا من هذا النصيب الموكوس كله، وحدث ذلك اليوم أنه كان يحرس أرضه فاصطدم المحراث بحجر وأقسم ما كان ذلك الحجر في الأرض بالأمس، وإنه لينظر إلى المحراث إذا بالحصان يسعل ذلك السعال الذي ينم على المرض، ويستدعي إليه البيطار، وعنده في البيت طفلان مصابان بالحصبة، وزوجة تشكو، وعلى إصبعه هو دُمَّل ... لقد كان هذا كالحصاة التي تقصم الظهر عند جابيز، فقال وهو قانط يدير بصره فيما حوله: لقد عانيت ما يكفي المرء أن يلقاه ليبيع للشيطان روحه، وإني لبائعها إن شاء بفلسين!

ثم تنبه فعجب لنفسه كيف عنَّ له خاطر كهذا، ولكنه — وهو من صميم همبشير — لا قِبل له بالرجوع في كلام، وحان المساء فلم يرَ على غاية مد البصر علامة على أنه قد سُمِع وهو يناجي نفسه تلك المناجاة، فشعر بالفرح لأنه كان رجلًا صاحب دين وتقوى، إلا أن الخبر يسمع عاجلًا أو آجلًا كما قيل في الكتاب، فلما كان الغد على موعد العشاء شوهد زائر غريب، رقيق الكلام، في الملابس السود، يسوق مركبة ذات عجلتين، ويسأل عن جابيز ستون.

وزعم جابيز لأهله أنه محامٍ أتى إليه في أمر وصية، بيد أنه قد عرف من هو، ولم يعجبه مرآه ولا ابتسامته بين أسنانه، وكانت أسنانًا بيضاء كثيرة، ويقال إنها كانت مصفوفة تملأ كل فكيه، ولكني لا أراهن على صدق ما قالوا.

ولم يعجبه الرجل الغريب كذلك بعد أن رأى الكلب ينظر إليه فيعوي ويهرب إلى الدار وذنبه بين رجليه، غير أنه قال كلمته فلم يسعه أن ينقضها وذهبا معًا خلف المخزن فعقدا الصفقة بينهما؛ وكان على جابيز أن يجرح يده ليكتب توقيعه بدمه، فأعاره الزائر الغريب دبوسًا من الفضة، ثم اندمل الجرح نقيًّا، ولكنه خلف في موضعه ندبة بيضاء.

وعلى غير العادة جرت الأمور رخاء بعد هذا مع جابيز ستون، فسمنت أبقاره ونشطت خيله، وحسده الجيران على وفرة غلاته، وسلمت مئونته وحدها مما يصيب مُؤن الآخرين، وسرعان ما أصبح من أغنى ذوي اليسار في الإقليم، فاقترحوا عليه أن يرشح نفسه للنيابة عنهم ففعل، وتشاور الناس في انتخابه عنهم شيخًا للولايات، وشاعت السعادة في بيته، فكان أهله جميعًا أسعد من القطط الصغار في دار اللبان، إلا جابيز ستون نفسه، فلم يكن بالسعيد.

ولقد رضي عن حاله خلال السنوات القلائل الأولى … فإن توفيق الحظ شيء يذهل المرء عن كل ما عداه!

نعم إن الندبة الصغيرة كانت تنكأ قليلًا بين حين وحين، وكان الزائر الغريب في المركبة ذات العجلتين يعاوده في موعده، لا يتأخر عنه طرفة عين، إلا أنه في السنة السادسة حضر الغريب فذهب السلام من ضمير جابيز ستون إلى غير رجعة مع محضره المريب.

أقبل الزائر الغريب من جانب الضيعة السفلى يضرب حذاءه بقضيب في يده، وكان حذاء أسود جميلًا، ولكنه لم يرق جابيز ستون وبخاصة موضع الإبهام، وبعد أن قضى سحابة النهار جعل يقول للسيد ستون: حسن، حسن يا سيد ستون، إنك لمجدود، وإن هذه الضيعة التي أراها لك لهي ثروة قيمة.

قال ستون: على كل حال إنها تعجب بعض الناس ولا تعجب أناسًا آخرين. وإن ستون كما لا يخفى لهمبشيري صميم!

– كلا، كلا. لا حاجة بك إلى بخس عملك.

كذلك كان جواب الزائر الغريب، وهو يكشف بابتسامته عن أسنانه، ثم استطرد قائلًا: على أننا نعلم ما حصل، فإنه قد حصل كله وفقًا لما تعاقدنا عليه، فإذا حان الموعد في السنة المقبلة لم يكن لديك ما تندم عليه.

قال ستون: أتتكلم أيها السيد عن ذلك الاتفاق؟!

والتفت حوله كمن يستغيث بالأرض والسماء.

ثم قال: إنني أوشك أن أجد فيه موضعًا أو موضعين مما يريب!

وصاح الزائر الغريب صيحة ليست بالمستحبة على كل حال: مما يريب؟!

قال ستون: أجل، فإننا في هذه الولايات المتحدة، وأنا رجل متدين.

ثم تنحنح وقال مجترئًا: أجل يا سيدي، إنني لأوشك أن أرتاب كثيرًا في اعتماد هذا الرهن أمام القضاء.

فأجاب الزائر الغريب: هناك قضاء وقضاء …

وسمع لأسنانه هدير وهو يقول: على أننا قد نلقي نظرة على الأوراق.

ثم أخرج من محفظة جيبه الحافلة بالورق وثيقة قرأ عليها اسم «شروين سليتر، ستيفنز ستون» وتلا منها مفتتحها: «أنا جابيز ستون، أتعهد لمدة سبع سنوات …» ثم استطرد قائلًا: إنها مطابقة للأصول القانونية تمامًا فيما أحسب!

بيد أن جابيز ستون لم يكن يصغي إليه، وكان يلمح شيئًا بارزًا من المحفظة السوداء: شيئًا يلوح كشكل الفراش وليس به، ويهمس حين أنعم ستون فيه النظر همسًا كالصفير إلا أنه إنساني في نغمته: جاري ستون جاري ستون، أغثني بالله وأنجدني.

وإن جابيز ليهم أن يتحرك إذا الزائر الغريب ينفض من جيبه منديلًا كبيرًا، ويلف به ذلك المخلوق، ويقبل على المنديل يربطه من أطرافه.

– آسف لهذه المقاطعة، لقد كنت أقول …

ولكن جابيز ستون كان يرتجف من فرعه إلى قدمه كالجواد المجفل، ثم تمالك نفسه وقال: ذاك هو ستيفنز البخيل وأنت تقبضه في منديلك …!

فاضطرب الزائر الغريب قليلًا وجاراه قائلًا: نعم هو ستيفنز، وقد كان علي أن أودعه صندوق المجموعات …

قال ذلك متهانفًا! ثم استمر يقول: ولكن المجموعة فيها ودائع من صنف آخر، ولا أحب أن أزحمها، لا بأس، لا بأس، هذه عوارض قد تحصل من حين إلى حين.

– لا أدري ماذا تعني بهذه العوارض، ولكن هذا هو صوت ستيفنز البخيل، وليس هو بميت، لقد كان في خفة الفأر ورشاقته منذ قليل.

– أحي هو؟ إذن فاسمع …

وسُمِع في تلك اللحظة ناقوس يدق، وأصغى إليه جابيز ستون وجبينه يتفصد بالعرق، لأنه علم أن دقات تنعي ستيفنز البخيل.

قال الزائر متنهدًا: هذه الحسابات القديمة لا بد لها من تسوية، وإني لأبغض ختامها، ولكن الشغل شغل، ولا حيلة فيه!

وكان المنديل في يده لا يزال، وغثيت نفس جابيز وهو ينظر إلى المنديل يضطرب ويصطرع، وسأله بصوت مبحوح: أتراهم كلهم بهذه الضآلة؟!

– الضآلة، آه! إنني أدرك ما تعني. كلا، بل هم يختلفون.

وحدج الزائر الغريب بعينيه وتكشفت أسنانه وقال: لا تقلق يا مستر ستون، فإنك أنت طراز ممتاز، ولن آمن عليك خارج الصندوق، وخذ مثلًا إنسانًا كدانيال وبستر. إننا نبني له بداهة صندوقًا خاصًّا، ولا نحتوي مع هذا جناحيه، إنه ولا شك لغنيمة نفيسة، وليتنا نفضي إليه في طريقنا، أما أنت يا مستر جابيز، فكما كنت تقول …

وقبل أن يتم جملته صاح به جابيز: أبعد هذا المنديل.

وأخذ يلحُّ ويتوسل، فكان أقصى ما وصل إليه تأجيل ثلاث سنوات مع بعض القيود والشروط.

وأنت أيها القارئ لا تستطيع أن تعلم كيف تمر السنوات الأربع سراعًا إلا إذا وقعت في ورطة كتلك الورطة، وأبرمت اتفاقًا، ففي الأشهر الأخيرة من هذه السنوات كان جابيز ستون قد اشتهر بين أرجاء الولايات كلها، ورشحه الكثيرون لمسند الحاكم عليها، وما كان ذلك إلا كالرماد والتراب بين فكيه، لأنه كان يفكر كلما طلع عليه الصباح يومًا قائلًا لنفسه: هذا يوم قد مضى واقتربنا إلى الموعد، وكان يقول لنفسه كلما آواه الفراش ليلة: هذه ليلة تنقضي! وتحضره رؤية المنديل الأسود وروح ستيفنز البخيل تضطرب فيه، حتى برِم بهذه الهواجس آخر الأمر وعيل بها صبره، فامتطى حصانه في الأيام الأخيرة من السنة الأخيرة، وركضه إلى جانب دانيال وبستر، لأن دانيال قد ولد في همبشير الجديدة على مدى أميال قليلة من «كروس كورنرز» وعرف عنه أنه كبير العطف على جيرته الأقدمين.

ووصل إلى مرشفيلد في الصباح الباكر، ولكن دانيال كان قد نهض من فراشه، وراح يناقش عمال الزراعة ويصارع الكبش «جليات» ويروض جوادًا جديدًا ويستعد بخطاب للرد على جون كلهون، فلما سمع أن قادمًا من همبشير الجديدة يريد أن يلقاه أخلى نفسه من كل شيء على عادته في هذه الأحوال، ودعا جابيز إلى مائدة إفطار لا يقوم بها خمسة من الرجال الأشداء، واستعاد تاريخ حياة كل رجل وامرأة في «كروس كورنرز» ثم سأل: ماذا يستطيع أن يعمل لخدمته؟

قال جابيز ستون: إنها قضية رهن.

– حسن، إنني منذ عهد بعيد لم أدافع في قضية رهن؛ ولست الآن على العموم أشتغل بالقضايا في غير المحكمة العليا، غير أنني أساعدك في قضيتك بما أستطيع.

قال جابيز ستون: إذن يعمر قلبي الرجاء لأول مرة بعد عشر سنين، وقص عليه قصته بإسهاب وتفصيل.

وجعل دانيال يمشي جيئة وذُهُوبًا وهو يستمع إليه، وقد عقد يديه وراء ظهره، وطفق مرة بعد مرة يطيل النظر إلى الأرض كأنما يثقب أديمها بمثقب، فلما فرغ جابيز من قصته أشرق وجه دانيال بابتسامة كالصبح ومال إليه قائلًا: لقد أسلمت مقادك حقًّا للشيطان أيها الجار ولكنني أقبل قضيتك.

فلم يكد جابيز يصدق أذنيه، وصاح مبتهجًا: تقبلها؟!

قال دانيال وبستر: نعم، إن عندي نحو خمس وسبعين مسألة أتولاها، وعندي مسألة التفاهم على مساومة ميسوري، ولكنني سأقبل قضيتك، فإن لم يكن رجلان من همبشير الجديدة كفؤًا للشيطان فخير لنا أن نترك البلاد للهنود الحمر وننصرف منها.

ثم صافح ستون وهز يده سائلًا: أأنت على عجل؟

قال ستون: الواقع أنني عملت حساب الوقت.

قال دانيال: وستعود أسرع مما أتيت، وأمر أتباعه بشد حصانه المسمى بالدستور، وحصانه المسمى بالبرج إلى المركبة، وكلاهما رمادي، وقائمة من قوائمه الأربع بيضاء … أما السرعة فتلك سرعة البرق المدهون.

ولست أريد أن أصف كيف عمَّ السرور والابتهاج كل فرد من أفراد أسرة ستون حين رأوا أنهم مستضيفون دانيال وبستر العظيم في دارهم، وكان الهواء قد أطار قبعة ستون في الطريق، فلم يكترث لذلك، وأذن لأهله جميعًا بعد العشاء أن يذهبوا ليناموا لأنه سيعمل مع السيد وبستر في شغل خاص، فدعتهما السيدة ستون إلى الجلوس في ردهة الاستقبال، ولكن السيد وبستر قال إنه يفضل الجلوس في المطبخ لأنه يعرف ردهات الاستقبال، وكذلك جلسا في المطبخ منتظرين وصول الزائر الغريب وبينهما إبريق على المائدة، وفي الموقد نار لامعة، وكان موعد مجيئه عندما تؤذن الساعة بمنتصف الليل.

وما من أحد يتمنى صحبةً هي أمتع من الجلوس إلى دانيال وبستر وإبريق، إلا أن ستون كان يزداد غمًّا كلما نبضت الساعة نبضة من نبضاتها، وكانت عيناه تحومان يمنة ويسرة، ولا تشتهي نفسه قطرة يذوقها من ذلك الإبريق الذي عني بملئه وتحضيره،

فلما دقت الساعة النصف بعد الحادية عشرة مدَّ يده يعتصم بذراع مستر وبستر وجعل يناديه: سيد وبستر، سيد وبستر! وجعل صوته يرتعش ويتكلف الجرأة اليائسة، ثم قال: بحق الإله ... شد حصانيك وانج من هذا المكان بأسرع ما تستطيع.

قال السيد وبستر: إنك قد أتيت بي أيها الجار من مكان بعيد كي تقول لي إنك لا تستريح إلى صحبتي!

قال ذلك ساكن الجأش مقبلًا على الإبريق!

وعاد جابيز يقول بصوت كأنه الأنين: يا لي من تعس! لقد أقحمتك في حبائل الشيطان، وهأنذا أعرف حماقتي وجهلي، فليذهب بي الشيطان إن شاء حيث يشاء، فإني أهل لما يُصنع بي، وفي وسعي أن أحتمله، أما أنت أيها السيد فإنك ملاذ همبشير الجديدة وحارس الاتحاد، لا يصح أن يصل إليك ... كلا، كلا، لا يصح أن يمدَّ يده إليك!

ونظر دانيال وبستر إلى الرجل الوجل، قد احتواه شعاع النار، واستولت عليه الرجفة ووضع يده على كتفه وهو يقول له: إني لشاكر لك أيها الجار لطف شعورك، ولكن ألا ترى أن هنا إبريقًا لم أفرغ منه؟ إنني ما تركت عملًا قط بدأته دون أن أفرغ منه أيها الصديق!

في تلك اللحظة سُمِعت دقة عنيفة على الباب، فقال دانيال وبستر ببرود: آه، ادخل.

فدخل الزائر الغريب، ولاح له شعاع النار طويلًا بملابسه السود، ولاح تحت إبطه صندوق أسود تتخلله خروق، فلما وقعت عين جابيز على الصندوق بدرت منه صيحة خافتة، وقبع في ركن من الحجرة.

قال الزائر بأدب جم: أحسبني أرى السيد وبستر!

ولكنه مع أدبه هذا كانت عيناه تلتمعان كالثعلب في الغاب!

قال وبستر: نعم، وكيل جابيز ستون، فهل لي أن أسألك عن اسمك؟

قال: لقد عرفت بأسماء كثيرة، ولعل اسم «خربوش» يلائمني هذا المساء، فهو الاسم الذي أُدْعَى به في هذا الإقليم.

ثم جلس إلى المائدة وصب لنفسه قدحًا من الشراب. وقد كان الشراب باردًا في الإبريق ولكنه تدفق منه إلى القدح كالدخان!

واستأنف الزائر الغريب قائلًا — وهو يبتسم ويكشف عن أنيابه: والآن أرجو — وأنت مواطن تحترم القانون — أن تمكنني من حقي.

وبهذا ابتدأت المساجلة، ولم تزل تحتدم وتعنف كلمة بعد كلمة.

لقد تعلل جابيز ستون ببعض الرجاء في أول الأمر، ثم لم يلبث أن رأى دانيال يتراجع في نقطة بعد نقطة حتى انزوى إلى ركنه، ولم ترتفع عيناه لحظة عن الصندوق الأسود؛ إذ لم يكن ثمة أيسر شك في مضمون الوثيقة وصحة التوقيع، وهو أخطر ما في الموضوع!

وطفق وبستر يتلوى وينقبض ويقرع المائدة بيده ولا يزيد على ذلك، وعرض على الزائر الغريب أن يصطلحا على المساومة، فلم يقبل عرضًا من عروضه، وكان من حججه أن البضاعة زادت في الثمن، وأن شيوخ الولايات يساوون ثمنًا أكبر من الثمن المتفق عليه، فتشبث الزائر الغريب بالنص الحرفي ولم يتزحزح عنه قيد شعرة.

لقد كان دانيال وبستر فقيهًا ضليعًا ولكننا نعلم من هو فقيه الفقهاء، كما وصفته الكتب، فبدا — لأول مرة — أن دانيال وبستر لقي ندَّه في الميدان!

وتثاءب الزائر أخيرًا وهو يقول: إن جهودك الحارة لمصلحة موكلك تشرفك يا سيد وبستر، ولكنك إذا كنت قد استنفدت الحجج التي عندك ولم يبق في جعبتك حجة تضيفها، فاسمح لي أن أقول إنني مستعجل!

فاضطرب جابيز ستون، واكفهر وجه دانيال وبستر كأنه الغمامة المرعدة، وصاح بالزائر الغريب: مستعجل أو غير مستعجل، إنك لن تظفر بالرجل، إن السيد ستون رعية أمريكية، وما من أحد من هذه الرعية يساق كرهًا إلى طاعة أمير أجنبي، وقد حاربنا إنجلترا في هذا السبيل اثنتي عشرة سنة، وسنحارب جهنم كلها مرة أخرى في هذا السبيل: وصاح الزائر الغريب: أجنبي! ومن قال إنني أجنبي؟!

قال وبستر: حسن، إذن فإنني ما سمعت قط أن الشيط … إنك تنتمي إلى الوطنية الأمريكية!

فأجابه الزائر الغريب بابتسامة من ابتساماته المخيفة، وهو يقول: ومن أحق مني بالانتماء إليها؟! فقد كنت معكم حين حدث أول عدوان على الهنود، وكنت معكم حين اجتلب أول زنجي من أفريقيا … و… وبعدُ فهل خلت مني كتبكم وحكاياتكم وعقائدكم من أول الهجرة إلى اليوم؟ أليست سيرتي مقروءة في كل بيعة من بيع إنجلترا الجديدة؟ نعم إن الشماليين ينسبونني إلى الجنوب، والجنوبيين ينسبونني إلى الشمال، ولكنني لست بهذا ولا ذاك، وإنما أنا أمريكي مخلص مثلك يا سيد وبستر، ولست أحب أن أفخر عليك، فإنما أقرر الواقع حين أقول إنني أعرق منك في هذه البلاد …!

وانتفخت العروق في جبهة دانيال وبستر وهو يتحدى الزائر الغريب قائلًا: إذن نحتكم إلى الدستور، ومن حق موكلي أن يحتكم إليه.

قال الزائر الغريب: إن القضية قلما تستحق أن تعرض على محكمة من المحاكم الأولية، والحق أننا قد تأخرنا، وهذه الساعة …

قال دانيال وبستر في أنفة وغضب: لتكن ما تكون، إنها محكمة أمريكية على أية حال، ومحلفون أمريكيون، لتكن محكمة الموتى فإنني واثق من النتيجة.

– لقد قلتها أنت!

كذلك كان جواب الزائر الغريب، وهو يومئ بإصبعه نحو الباب، فإذا بالريح تعزف خارج الباب، ويسمع معها وقع أقدام، ثم أقبلت من الباب أشباح مميزة بأشكالها تحت جنح الليل؛ ولكنها تخطو فيسمع لمسيرها وقع غير وقع أقدام الأحياء.

وصرخ جابيز ستون: يا لله! مَنْ هؤلاء القادمون في مثل هذه الساعة؟!

فأدركه الزائر الغريب متهكمًا: هؤلاء هم المحلفون الذين طلبهم السيد دانيال وبستر.

ثم رشف من قدحه الملتهب بضع رشفات، وعاد يقول: معذرة لهم إن قدم منهم أحد أو اثنان، لقد كان خليقًا بهم أن يقدموا منذ حين.

وفي تلك اللحظة تلهبت النار زرقاء اللهب، وانفتح الباب وولج منه اثنا عشر شخصًا واحدًا في إثر واحد.

لئن كان ستون قد أسقمه الذعر من قبل، لقد عمي من الذعر حين بصر بهؤلاء؛ فقد كان منهم والتر بتلر «الموالي» للدولة الإنجليزية الذي أثار الخوف وأضرم الحريق في وادي موهاك أيام الثورة، وكان منهم سيمون جيرني الخائن الذي كان يشهد مصارع البِيض في النار، ويهلل مع الهنود لمرآهم وهم يحترقون، وإنك لترى عينيه الخضراوين كأنه القط المستوحش، وعلى قميصه نقيع الدم، ولكنه ليس بالدم من غزلان الصيد، وكان منهم الملك فيليب[٤] متجبرًا متكبرًا كما كان بقيد الحياة، وعلى رأسه أثر الجرح الذي أصماه وأرداه، وكان منهم ديل الحاكم الفظ الذي حطم عظام الناس على دواليب العذاب، وكان منهم مورتون من مسرى مونت الذي أزعج إقليم بليموث بوجهه المحمر — المليح — وبغضائه للصالحين، وكان منهم تيتش القرصان الدموي بلحيته السوداء متجعدة على صدره، وكان منهم الأب الموقر جون سميث بيديه الخانقتين وجلبابه السويسري يتمشى برشاقته التي تمشى بها إلى المشنقة، ولما يزل في عنقه أثر الحبل، وفي إحدى يديه منديله المعطر …

[٤] زعيم تولى قيادة قبائل من الهنود الحمر.

دخلوا واحدًا في إثر واحد إلى الحجرة، ولم تزل على وجوههم قترة الجحيم، وقدمهم الزائر الغريب بأسمائهم وأفعالهم ولم يكذب فيما عزاه إليهم، فقد كان لهم جميعًا أدوارهم في البلاد.

وسأل الزائر الغريب متهكمًا: وقد استووا على مقاعدهم: أيرضيك هؤلاء المحلفون يا سيد وبستر؟

فتكلل جبين وبستر بالعرق، ولكنه قال بصوت واضح: راضٍ كل الرضا، وإن كنتُ لا أرى بينهم القائد أرنولد.

قال الزائر الغريب: إن بنديكت أرنولد مشغول بعمل آخر.

ثم استطرد قائلًا وعيناه تسطعان بالشرر: إنك تطلب قاضيًا فيما أحسب، وأشار بإصبعه إشارة أخرى، فأقبل رجل طوال عليه ثياب المطهرين، وفي عينيه لمعة التعصب العنيد يتمشى إلى كرسي القضاء ويستوي عليه.

قال الزائر الغريب: إن القاضي هاثورن محلف مدرب، تولى رياسة المحكمة التي فصلت في قضايا السحرة بمدينة سالم، وقد ندم غيره بعد ذلك، ولكنه معاذ الله أن يندم كمن ندم.

قال القاضي الصارم: أيندم على تلك الفرائض المبجلة؟ حاشا لله، بل الشنق لهم أجمعين، نعم أجمعين. وغمغم بينه وبين نفسه نغمة قارسة سرت مسرى الثلج المميت في مفاصل جابيز ستون.

ثم بدأت المقاضاة، ولم يكن في طوالعها ما يبشر المدعى عليه بالخير، فلم يحفل جابيز نفسه بشهادة تزكي دعواه، وأرسل بصره مرة إلى سيمون جيرتي فصرخ مجفلًا، وأخذوه إلى زاوية الركن، حيث كان يجلس، فأجلسوه في شبه إغماء.

ولم تتعطل المقاضاة مع هذا، فانتظمت على نظام غيرها من القضايا، وكثيرًا ما وقف وبستر في تجاربه الماضية بين أيدي محلفين قساة، وقضاة غشمة، ولكنها في هذه المرة كانت أصعب تجاربه، ولم يجهلها.

واستووا هنالك على مقاعدهم، تلتمع أعينهم، ويسمع أمامهم من حين إلى حين صوت الزائر الغريب الناعم اللين، يجاب كل اعتراض بالقبول، ولا يجاب الاعتراض من جانب وبستر بغير الرفض والإعراض، وماذا ينتظر من خيرة يختارها السيد خربوش؟!

ثم جاء دور دانيال أخيرًا، وقد حميت قريحته كالحديد في الأتون، فلما تحفز للكلام أزمع النية على أن يسلخ ذلك الزائر الغريب سلخًا، ويعوذ بكل حيلة من حيل القانون

لتجريحه وتجريح المحلفين على السواء، ولم يبالِ أن يتهم باحتقار المحكمة، أو بما يصيبه من جراء حملته، ولم يبالِ كذلك ما يصيب جابيز ستون، وإنما جن جنونه ولم يفكر في شيء غير ما ينوي أن يقول، ومن عجب أنه كان كلما فكر فيه شق عليه أن يستجمعه في ذهنه على وتيرة متلاحقة، ثم حان وقت النهوض للكلام فنهض على أهبته للإبراق والإرعاد وصب اللعنات ودحض الشبهات!

وقبل البدء بالكلام جعل يقلب نظره بين وجوه المحلفين ووجه القاضي، كدأبه في هذه المواقف، ولاحظ البريق في أعينهم، فإذا به ضعف ما كان، وإذا بهم جميعًا متكئون إلى الأمام، وكأنهم كلاب الصيد قبل عثورها على الثعلب، وقد تكاثف أمامه ضباب الشر في الحجرة وهو ينتقل بينهم ببصره ويتأملهم واحدًا بعد واحد، فوضح له ما هو مقبل عليه، ومسح بيديه على جبينه كما يصنع الرجل [وقد] نجا وشيكًا من السقوط إلى هاوية في الظلام.

لقد جاءوا، في الحق، من أجله هو، لا من أجل جابيز ستون، وعرف ذلك من بريق أعينهم ومن منظر الزائر الغريب؛ إذ يخفي فمه بيده هنيهة بعد هنيهة، فلو أنه حاربهم بأسلحتهم لوقع في قبضتهم، وكان على يقين من ذلك، وإن لم يكن في وسعه أن يقول لك كيف سرى إليه ذلك اليقين …!

لقد كان غضبه وخوفه هما البريق الذي يسطع في تلك الأعين، وكان عليه أن يجلوهما أو تضيع القضية، فتمهل قليلًا وعيناه السوداوان تتقدان كجذوة الفحم الحمراء، ثم أخذ في الكلام …

بدأ على مهل؛ وإن كانت كل كلمة من كلماته مسموعة واضحة، وكثيرًا ما كان يقال عنه إنه يستنزل معازف الصالحين والملائكة حين يشاء، ولا يكلفه ذلك إلا أن يفتح شفتيه، غير أنه لم يستهل مقاله بالثلب والإدانة وقصره على بيان الأمور التي تصبح بها الأمة هي الأمة، والإنسان هو الإنسان … وكان استهلاله بتلك البسائط السهلة التي يعرفها كل واحد: نضرة الصباح إذ أنت فتى في مقتبل العمر، ولذة الطعام إذ أنت جائع تشتهيه، واليوم الطالع الذي هو خلق جديد إذ أنت طفل صغير، واستولى عليهم ولوى بهم في يديه، وكانت تلك أشياء حسنة مستحبة لكل أحد، ولكنهم بغير الحرية مرضى مهازيل، فلما عرض في كلامه لأولئك الذين استعبدوا، وللأحزان التي تجلبها العبودية، كان لصوته رنين كدق الأجراس.

وراح يترنم بأمريكا، وبمن صنعوا أمريكا، ولم يكن حديث جعجعة من غير طحن، بل كان حديث الواقع كما تراه، وكان يسلم بوقوع الخطأ حيث وقع، ولكنه يبين للسامع

كيف نما من الخطأ والصواب ومن جوع الجائعين وعذاب المضطهدين؛ خلق جديد: خلق قد اشترك فيه كل عامل غير مستثنى منهم خونة ولا منكرون …

ثم استطرد من كلامه إلى جابيز ستون فوصفه بصفاته، ومثله لهم على مثاله: رجل من سواد الناس طارده نكد الطالع، فتمنى لو يبدل طالعًا أسعد وأجدى، ولهذا التمني يراد اليوم أن يحل به العذاب الواصب أبد الآبدين ودهر الداهرين، وإن جابيز ستون مع هذا لرجل طيب لا يخلو من جانب خير وصلاح، ولعله كذلك لا يخلو من شدة وإسفاف، ولكنه بعد هذا كله إنسان.

وإنه لمن المحزن أن يكون الإنسان إنسانًا، ولكنه كذلك فخر وكبرياء، وقد أراكم جانب فخره وكبريائه حتى لا خفاء، فإنه لفي الجحيم نفسها لن يكون الإنسان إنسانًا إلا أدركتم ما هو عليه …

ولم يكن دانيال يتشفع لأحد خاصة، وإن رنَّ صوته في أسماعهم رنين الأرغن، وإنما كان يروي قصة الإنسان في مساعيه وعثراته من أوائل خطاه في رحلته الأبدية، وما من شيطان يستشف سريرته في ذلك الجهاد، فما تتاح هذه القسمة بمساعيها وعثراتها إلا لإنسان.

وكادت النار في الموقد تخمد، وكاد نسيم الفجر يهب قبل طلوع الصباح، ولاحت بواكير النور في الحجرة حين فرغ دانيال وبستر من الكلام.

لقد عاد بكلماته قبل الختام إلى أرض همبشير الجديدة، وإلى بقعة الأرض التي يأوي إليها كل فرد منها، ولا يهون عليه أن يفرط فيها، ورسم من كل أولئك صورة مموقة، فاستعاد لكل سامع من أولئك المحلفين ذكريات طال العهد بنسيانها؛ إذ كان من أسرار صوته أن يسلك سبيله إلى القلب، وفي ذلك كل مزاياه وكل قواه.

كان صوته في مسمع هذا كالغابة وخفاياها، وكان صوته في مسمع ذاك كالبحر وأغواره، وكان أحدهم يسمع منه صرخة من أعماق أمته الغابرة، وكان غيره يبصر منه منظرًا مستحبًّا لم يبصره منذ حين إلا أنهم جميعًا يحسون منه ما يحسون!

ولم يدرِ دانيال وبستر في ختام كلامه أكان قد أفلح أم لم يفلح في إنقاذ جابيز ستون، ولكنه كان يدري أنه صنع المعجزة وأطفأ هذا البريق، بريق البغضاء في أعين القاضي والمحلفين، فأصبحوا تلك الساعة أنسيَّ مرة أخرى، وعلم هو أنهم عادوا كما خلقهم الله أناسيَّ من أبناء آدم وحواء!

قال وبستر: إن الدفاع يستريح.

وظل قائمًا هنالك كالطود الأشم: أذناه تتجاوبان بأصداء كلامه ولا تسمعان شيئًا آخر غير تلك الأصداء، إلى أن سمع القاضي هاثورن يقول: المحلفون ينفردون للتشاور في القرار.

ووقف والتر بتلر في مكانه، وعلى وجهه سرور كاب تخالطه الكبرياء، وقال: إن المحلفين قد انتهوا إلى قرار.

ووجه نظرته إلى الزائر الغريب في قرارة عينه، ثم قال: القرار لمصلحة المدعى عليه «جابيز ستون»!

واختفت الابتسامة من وجه الزائر الغريب، ولم يتلعثم والتر بتلر أو يتراجع، بل مضى يقول: «على أنه قرار لعله لا يطابق البينات كل المطابقة، ولكن بلاغة دانيال وبستر جديرة بالتحية والإكبار، حتى من زمرة المنبوذين والمنظَرين.»[٥]

وارتفع في تلك اللحظة صياح الديك يشق سماء الصباح وانقشع المحلفون والقاضي من الحجرة كما ينقشع الدخان، فلا أثر ولا خبر، والتفت الزائر الغريب إلى دانيال وبستر يبتسم له عن خبث وخداع، ويقول: إن الماجور بتلر قد وصف بالشجاعة من قديم، وما حسبته قط بهذه الشجاعة التي شهدتها الآن، وعلى كلٍّ يا سيد وبستر، تقبل مني تهنئة الشريف للشريف.

قال وبستر: قبل كل شيء ناولني من فضلك هذه الوثيقة، ومدَّ يده فأخذها ومزقها، وأحسها حامية في يده لفرط دهشته، ثم قال: والآن فإني أقبض عليك أنت، وامتدت يده كأنها الشرك القابض على الوحش، فقبضت على ذراع الزائر الغريب، ولم يكن يخفى عليه أن الشيطان تنزف قوته إذا انهزم في نضال على حسب الأصول، ورأى تلك الساعة أن «السيد خربوش» يعرف ذلك أيضًا ولا يخفى عليه.

وأخذ الزائر الغريب يتلوى ويتملص ولا نجاة! وطفق يقول وهو يحاول الابتسام، وقد شحب لونه واصفر وجهه: مهلًا مهلًا يا سيد وبستر، إن هذا الأمر مضـ ... مضحك ... وإني لأعدك بسداد أجر الدفاع عن طيب خاطر، إن كان هذا ما تعنيه.

قال وبستر: نعم، وإنك لفاعل.

[٥] الذين يشبهون إبليس في أنه من المنظرين، بفتح الظاء.

ثم هزه هزًّا عنيفًا حتى اصطكت أسنانه، وأمره أن يجلس إلى المائدة فيكتب على نفسه عهدًا لا يعودنَّ إلى مضايقة جابيز ستون ولا أحد من أهله وتابعيه، ولا أحد على الإطلاق من همبشير الجديدة إلى يوم الدين.

قال: إننا إذا احتجنا إلى هاوية الجحيم في هذا الإقليم، فنحن صانعوها بأيدينا، ولا حاجة بنا إلى معونة الغرباء.

وصاح الزائر الغريب متأوهًا: آخ، إنهم ما دخلوا المصيدة قط سمانًا، ولكنني … موافق!

ثم قعد على كرسيِّه وكتب الوثيقة، ويد وبستر آخذة بطوقه لا تفلته.

قال الزائر الغريب: والآن، أيمكنني أن أذهب؟

قال ذلك في ذلٍّ ومسكنة، وبعد أن فرغ وبستر من مراجعة الوثيقة والتحقق من مطابقتها للأصول.

وأجابه وبستر بعد أن هزه هزة أخرى: اذهب! واعلم أنني لا أزال مفكرًا فيما ينبغي أن أعمله معك، فإنك قد سددت حساب القضية ولم تسدد بعد حسابك معي، وأحسبُ أنني سأعود بك إلى مرشفيلد، فعندي هناك كبش يناطح الحديد، وسأطلقك في حقله وأرى ما هو صانع بك.

عندئذٍ تقدم الزائر الغريب متوسلًا، لا متضرعًا، وبلغ من مسكنته في توسله وتضرعه أنه ألانَ قلب وبستر، وهو بطبيعته رحيم كريم، فأذن له بالانصراف، وبدا على الزائر الغريب أنه جد شاكر مغتبط بالنجاة، فأراد أن يعرب عن شكره واغتباطه، وقال لِوبستر: إنه سيخبره الساعة بطوالعه في المستقبل، وقبل وبستر منه ذلك، وإن لم يكن ممن يصدقون هذه الطوالع، إلا أن الزائر الغريب يخالفه بداهة في هذه الخصلة!

وتناول الزائر يد وبستر يتفحص خطوطها وعلاماتها، فأنبأه بأمور ذات بال ولكنها كانت جميعًا من أنباء الماضي، فقال له وبستر: ذلك كله صحيح، فحدثنا عن المستقبل إن استطعت، فتهانف الزائر الغريب تهانف الرضا وهزَّ رأسه قائلًا: إن المستقبل يا وبستر على غير ما تقدر، إنه مظلم، وإن لك لمطمعًا كبيرًا يا سيد وبستر.

قال وبستر بعزم وثبات: نعم، لي هذا المطمع الكبير. وكان معلومًا عند الناس جميعًا أنه يرشح نفسه للرئاسة.

قال الزائر الغريب: إنها لتبدو في متناول يدك، غير أنك لا تنالها، وسينالها من هم دونك وتعبرك أنت إلى غيرك.

قال دانيال: وإن يكن فسوف أبقى كما أنا دانيال وبستر، وبعد؟

قال الزائر وهو يهز رأسه: لديك ولدان قويَّان تهيئ لهما طريقًا يشقانه إلى المجد، ولكنهما يقتلان في الحرب ولا يدركان الأمل في العظمة المنشودة.

قال وبستر: يقتلان أو لا يقتلان، إنهما — على كلٍّ — ولداي، وبعد؟

قال الزائر: إنك ألقيت بالخطب الطنانة، وسوف تُلقي غيرها.

فلم يزد وبستر على أن قال مستزيدًا: إيه!

فمضى الزائر يقول: بيد أن الخطاب الأخير الذي سوف تلقيه سيقلب عليك كثيرًا من أنصارك، وسينبذونك بالنعوت ويزعمون — حتى في إنجلترا الجديدة — أنك انقلبت على عقبيك وبعت وطنك، وتعلو أصواتهم عليك إلى أن يدركك الأجل المحتوم.

قال وبستر: إن كان كل ما أقول خطاب صدق، فلا عبرة بما يقوله الناس، ثم حدج الغريب بنظره فتقابلت النظرتان، وسأل وبستر بعد ذلك: أتراني — وقد جاهدت في سبيل الوحدة — أعيش حتى أراها وثيقة قوية أمام دعاة الفُرقة والشقاق؟

فأجابه الزائر الغريب: لن ترى ذلك في حياتك، ولكنها قضية مكسوبة، وستفلح بعد موتك، ويتصدى الألوف للسير بها على نهجك ويتمثلون في جهادهم بكلماتك.

قال وبستر: ولِمَ إذن أيها المسخ الشائه تختال وتحتال فيما تهذر به من طوالع الحال؟

وانفجر مقهقهًا وهو يفوه بهذه الكلمات، وعاد يقول: اغرب من هنا قبل أن أدمغك بسمة لا تُمحى، فإنني بحق الولايات الثلاث عشرة لأذهبن إلى الهاوية نفسها، لأنقذ وحدة الأمة، ثم رفع قدمه ليضرب بها الزائر ضربة تقتل الحصان المتين، لولا أن الزائر الغريب هرول هاربًا وصندوق التحصيل تحت إبطه، فلم يصبه إلا بطرف الحذاء.

ولمح جابيز ستون يتحفز للنهوض مفيقًا من إغمائه الطويل فقال: دعنا نرَ ماذا بقي في الإبريق؛ فإن الكلام طول الليل يجفف الحلوق، وأرجو أن ننعم بفطيرة لذيذة في طعام الصباح أيها الجار.

ومنذ ذلك اليوم يمر الشيطان بمرشفيلد، فيزورُّ عنها متجنبًا، ولم يُشاهد بعدها يومًا في ولاية همشير الجديدة.

ولست أتكلم عن مساشوستس أو فرمونت …!

المعاصرون العالميون

كتَّاب القصة القصيرة العالميون كثيرون بين الأمريكيين، ولكن أشهرهم بين أبناء القرن العشرين ثلاثة، كلهم ولدوا فيه أو قبله بنحو سنتين، وكلهم يتناول بالقصة القصيرة مسائل كبرى تعم بني الإنسان، ولا تخص البيئة الأمريكية عامة أو البيئة الأمريكية في إقليم من أقاليمها.

هؤلاء الثلاثة هم: فولكنر المولود سنة ١٨٩٧، وهمنجواي المولود سنة ١٨٩٨، وشتاينبك المولود سنة ١٩٠٢، فهم جميعًا كما تقدم من ناشئة القرن العشرين.

ولد وليام فرنسيس فولكنر في أكسفورد بولاية مسيسبي من ولايات الجنوب، ونشأ في أسرة زراعية خملت بعد نباهة وثراء، فلم ينتظم في التعليم، وتغير اتجاهه بين الصناعات غير مرة في تعليمه الأول، فلما نشبت الحرب العالمية الأولى تطوَّع مع فِرقة الطيران الكندية، ثم قاتل في الميدان الفرنسي مع فِرق الطيران الإنجليزية، ثم عاد إلى وطنه بعد الحرب، فحضر بعض الدروس في الجامعة نحو سنتين، وعمل كاتبًا بمصلحة البريد من سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٢٤، نَظَم في خلالهما الشعر، وأصدر ديوانه الأول واتجه إلى كتابة القصة الأولى سيرة محلية متتابعة تتمثل فيها أحوال الأسرة المتداعية من زُرَّاع الجنوب ...

وليس من الحق أن تنسب شهرة فولكنر إلى سبب واحد، أو إلى أسباب عدة محلية من الأسباب التي تعني أبناء الأقاليم الجنوبية دون سواهم، فالواقع أن موضوعات فولكنر هي موضوعات القرن العشرين جميعًا، وإن كانت بيئتها محصورة في إقليم واحد، فقد شُغِل القرن العشرون في العالم بمشكلة العصبية العنصرية وتفاوت الأقوام بحسب الأصول البشرية، وشغل كذلك بمسألة الجنس ودراسة عوارضه من الوجهة النفسية، وشغل

بمسألة الجريمة وطبيعة الإنسان أمام نوازع الفطرة ودواعي المجتمع، وشغل بكيان الأسرة ومتاعب الثروة في بيئات الزراعة والصناعة، وما يلازم كل بيئة من ضرورات الاقتصاد والاجتماع، وهذه الشواغل جميعًا تعرض لفولكنر في قصصه الصغيرة وملاحمه الكبيرة بغير قصد إلى الدعاية أو لشرح المذاهب والآراء من طريق الحوار والتعليق، فمزيَّة فولكنر الكبرى أن مشكلة الحياة عنده «إنسانية» ملازمة لطبع الإنسان وكيانه، فردًا متشابهًا أو متقاربًا في كل مجتمع وكل حقبة، وقد منحته لجنة نوبل جائزتها عن سنة ١٩٤٩ وقالت عن سبب اختصاصه بها إنها تمنحها إياه «لقوته واستقلاله الفني …» وقال هو في خطابه الذي ألقاه عند تسليمه الجائزة: إن «العاطفة الإنسانية» هي مدار كل عمل باقٍ من أعمال الفنون.

نشأ فولكنر شاعرًا كمعظم أدباء الجنوب في نشأتهم، ثم اصطدم خياله بغاشية من اليأس، وراعته رذائل العيش وجرائمه، فصورها كما هي غير ملطفة بمس الرجاء أو مغالطة الفكر والشعور، إلا أنه قد ثاب إلى شيء من الثقة بالإنسان، كما يؤخذ من خطابه في لجنة نوبل، ومن مضامين كلامه في «الصلاة على روح راهبته». وخلاصة ما ثاب إليه الإنسان جدير أن يتغلب، وليس قصاراه أن يصبر ويبقى، وأنه يبلغ سلام الروح من طريق الألم والمحنة وجملة قوله: «إنني أرفض أن أتقبل نهاية الإنسان …»

قال الكاتب الفرنسي مارسل إيميه Aymé في فصلٍ كتَبَه عما يراه القراء الفرنسيون في فولكنر: «في هذا البلد حين يصفُ كاتبٌ متدين مثل مورياك صورة الآلام الإنسانية القانطة، ترى أن الأبطال حلَّ بهم البلاء لأنهم لم تحضرهم بركة الله، وأن الألوان أمامك قاتمة حالكة في واقع الحياة، إن الله على العموم غائب من تلك المشاهد في رواياته، أما في قصص فولكنر فالأمر على خلاف ذلك؛ كلما تجسمت القسوة والشناعة وسفك الدم في تصوير أبطاله كان الشعور بوجود الله أمسَّ وأدنى …»

أما زميل فولكنر في الشهرة العالمية — إرنست ميلر همنجواي — فقد ولد بولاية إلينوي وتعلم بمدارسها، وانتظم في سلك التعليم إلى الدراسة الجامعية، واشترك في الحرب العالمية الأولى مع فِرقة الإسعاف، ومارس الصحافة وكتابة القصة الكبيرة والصغيرة، وتطوع لتأييد الجمهورية في إسبانيا الأهلية، ونال من التقدير ما لم ينله كاتب قط في مثل سنه، فكتب النقاد والمعجبون عنه المصنفات المطولة يعلقون بها على سيرته وأسلوبه وسمات فنه وموضوعات قصصه. والراجح في رأينا أن همنجواي يعجب قراءه ونقاده

بقوة شخصه فوق إعجابهم بجودة فنه، وأنه اتخذ في حياته مثالًا يقتدي به كل امرئ عالج أن يحل مشكلة الحياة بالفكر فلم يجد لها حلًّا حاسمًا يركن إليه بكل عقله وضميره، وقد يقال عنه إنه حل مشكلة الحياة بالرياضة الدائمة. وهي عندي تشمل حركة النفس وحركة الجسد ومذاهب العرف والأخلاق. فكن «رياضيًّا» في سلوكك ولا عليك بعدها أن تهتدي بفكرك إلى الحل الذي يبطل فيه الخلاف، وخالف إن شئت من شئت ولكن كما يختلف الرياضيان، فلا يتطلب أحدهما من نفسه أن يكون على الحق كله، ولا يتهم خصمه أنه يتأثر بالخطأ كله ... وليس معنى ذلك أن همنجواي لا يفكر ولا يستخدم فكره، وإنما معناه أنه يعتمد على الفكر فيما يمكن عمله، وفيما يترجمه بفعله، حركة أو عاطفة أو لعبًا تراض به النفس على نشاطها ولا يجدي في عرفه أن تتطلب من الفكر غاية وراء هذه الغاية، وحياته كلها تطبيق لهذا المذهب إن صح فيه أنه مذهب يضاف إلى المذاهب الفكرية، فهو يخرج للصيد ويصارع الثيران، ويطارد السباع في أدغال أفريقيا، ويجوب البحار والسهوب ليتمرس بمصارعة العناصر ومصارعة الحيوان، ويجعل عمله كله رياضة، كما يجعل رياضته عملًا حيثما استطاع، وهذه خطة جرى عليها منذ شبابه، ومكنته من الجري عليها قوة الحيوية في بنيته، ثم كادت تصبح عنده «دينًا» بعد أن تمرس بمشكلات الحياة.

ومما لا شك فيه أن أسلوبه الكتابي من أسباب الإقبال على مطالعته واستحسان فنه كيفما كان الموضوع.

ويأتي ثالث هذين نمطًا مخالفًا لكل منهما في أدبه ووجهته وسيرة حياته، فليست آفات النفس ورذائل المجتمع هي «شتاينبك» وهجيراه في قصصه كفولكنر، ولا هو ممن يغرقون شكوكهم وقضاياهم العقلية في دوامة من الحركة الرياضية كهمنجواي، ولكنه يكتب أحيانًا ليصلح كما صنع بروايتيه «عناقيد الغضب والمعركة المريبة»، وكلتاهما كان لها أثر عاجل في إنصاف العمال المهاجرين بكاليفورنيا، ويكتب أحيانًا ليثير الثائرة على طغيان الفتح والاستبداد كما صنع بروايته «القمر ينزل» التي حيًّا بها الأمة النرويجية في مقاومتها للسيطرة النازية. وأبطاله كلهم أرضيون واقعيون تتساوى عنايته بهم على اختلاف الطبقات، وهو مع مساهمته في تأييد بعض المذاهب ومقاومة بعضها لا يذهب إلى حدِّ الاستغراق والحصر، سواء أكان من المناصرين أم من المنكرين، وقد زار روسيا واصطحب معه مصورًا خاصًّا لالتقاط المناظر والشخوص، ثم كتب رحلته فلم تعجب أنصار المذاهب ذات اليمين ولا ذات اليسار، وكتب في ختامها يقول إن اليساري يحسبها

حملة على روسيا، واليميني يحسبها تشيعًا لها وتعصبًا على ما عداها، ولا بد أن يقال فيها شيء كهذا لأنها سطحية، أما خلاصة القول في الروسيين فهم ناس كسائر الناس، بينهم أشرار ولا ريب، ولكن الطيبين من جمهرة الشعب أكثر من الأشرار.

وربما كان من أسباب القبول الذي يناله بين القراء أنه يروي الحسن كما يروي القبيح، ويصور خشونة الحياة وفظاظتها كما يصور طيبها ورفاهيتها، ويحتفل ببلاغة التعبير أحيانًا، ويجنح به إلى مسحة من الرمزية أحيانًا أخرى، وقد يكون الإعجاب به وبزميليه علامة على وجهة واحدة في تفكير قرائه وأحاسيسهم، فإن الإعجاب بهم جميعًا دليل على إفلاس الدعوة إلى مذهب واحد من المذاهب التي تحاول حل مشاكل المجتمع وتفسير ألغاز الحياة. وشتاينبك — على الخصوص — يثبت الألغاز كما هي ويزينها بالجانب الفكاهي والجانب الساذج على الفطرة في شخوص رواياته وأبطال رحلاته، ومنهم من يتكرر في سلسلة من القصص الصغيرة، كالصبي الفلاح جودي بألاعيبه وثرثرته وفضوله فيمثل للقارئ صورة من صور الناشئة الريفية يكاد يلتقي بها في كل مكان.

ولد جون إرنست شتاينبك بكاليفورينا سنة ١٩٠٢، وتعلم بجامعة ستانفورد على غير انتظام، واستطاع بكتابته القصصية والصحفية أن يكون إقليميًّا وأمريكيًّا وعالميًّا في وقت واحد لأنه نظر إلى مسائلة من زاوية العطف الإنساني ولم يقيدها بحدود الإقليم والساعة، وإن كانت أزمات الكساد مدار حملة الإصلاح التي شغلته في أكثر من رواية كبيرة وأكثر من قصة صغيرة.

وقد اشتهر في العالم غير هؤلاء الثلاثة من الكتاب الأمريكيين طائفة كبيرة من الأدباء، ولكن هؤلاء الثلاثة في القصة الصغيرة «تشكيلة» كافية تحيط بكل متجه ملحوظ في العهد الأخير، وهم الطرف الآخر الجديد بأن يقابل في هذا العصر طرف الرواد والأقطاب من أمثال أرفنج وبو ومارك توين ودربزر من أواسط القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين.

(١) وردة لإميلي A Rose For Emily

بقلم: وليم فولكنر

١

لما توفيت السيدة إميلي جريرسون خرج لتشييعها عامة أهل المدينة، قام الرجال بهذا الواجب بعامل المحبة والاحترام لذلك الأثر الذي طوته يد المنون، وتبعهم النساء غالبًا بعامل الفضول لاستطلاع منزلها من الداخل، ذلك المنزل الذي لم يرَ فيه أحد منذ عشر سنوات، اللهم إلا خادمًا عجوزًا يجمع في هذا البيت بين مهنة البستاني وعمل الطباخ.

كان منزلًا كبير الأركان، مربع البنيان، ويخيل أنه كان فيما مضى متألق الجنبات، تزينه القباب والطنف ذوات الأبراج على طراز القرن السابع عشر، وقد أقيم في شارع كان يُعدُّ من أهم شوارع المدينة، إلا أنه قد طغت عليه الآن حظائر السيارات ومحالج القطن، وعفت على كل ما فيه، حتى تلك العناوين الفخام التي كانت تحل في ذلك الجوار … ولم يبق غير منزل السيدة إميلي الذي ظلَّ قائمًا على رغم البِلى في إصرار وعناد بين مركبات القطن ومضخات البترول: قذًى بين أقذاء … وها هي ذي السيدة إميلي قد رحلت من هذه الدار لتلحق بمن سلفوا من أصحاب تلك العناوين الفخام، وهم رقود في مقابرهم تحت أشجار الصنوبر الساحرة، حيث مثوى جنود الاتحاد الأمريكي الذين لاقوا حتفهم في معركة جيفرسون …

كانت العناية بالسيدة إميلي تقليدًا وواجبًا وضربًا من الرعاية، وفرضًا يتوارثه الناس في المدينة منذ عهد الكولونيل سرتوريس ذلك الحاكم الذي أصدر أمره ذات يوم عام ١٨٩٤ ألا تخرج إلى الطريق امرأة من الزنوج بغير ميدعة، وظل يعفي إميلي من الضرائب ويصرف لها معاشًا منذ مات أبوها، وما كان معنى هذا أن السيدة إميلي تقبل الصدقة، كلا. بل كان الكولونيل سرتوريس قد ابتدع قصة ليفهم الناس أن والد السيدة إميلي سبق فأقرض المدينة قرضًا وأنها تختار هذه الطريقة لسداده … ولم يكن لينخدع بهذه القصة غير رجل من ذلك الجيل الذي عاش فيه الكولونيل سرتوريس ولم يكن ليصدقها من النساء غير امرأة واحدة. فلما انصرم ذلك الجيل وجاء بعده جيل له أفكاره وآراؤه، وتغير الحكام ومشايخ البلاد، ظهر بعض التذمر من جراء هذا التدبير، فأنفذ إليها رجال الإدارة في بدء السنة إعلانًا يطالبونها بالضرائب، وحلَّ شهر فبراير ولم يظفروا منها بجواب، فأرسلوا إليها خطابًا يستدعونها إلى مكتب الحاكم في الوقت الذي يلائمها،

فلما انقضى أسبوع كتب إليها الحاكم نفسه يطلب إليها الحضور لمقابلته، فإذا لم تستطع وتعذر عليها الحضور فإنه يرسل إليها مركبته، فجاءه ردها وهو مكتوب بحبر باهت على ورقة قديمة، وفحواه أنها لم تعد تستطيع الخروج، ثم أعادت الإعلان دون أن ترد على ما فيه.

دعَوْا إلى عقد اجتماع لشيوخ البلدة، فانعقد وتقرر أن يذهب إليها مندوبون منهم، فلما طرقوا بابها الذي لم يعبره قط أحد منذ انقطعت عن إعطاء دروسها في نقش الخزف قبل ثماني أو عشر سنوات، أدخلهم الزنجي الهرم إلى ردهة مظلمة تفضي إلى سُلَّم يؤدي إلى مكان أشد ظلمة، وكانت تتصاعد هنالك رائحة الغبار والعفن، ومن ثم قادهم إلى قاعة الاستقبال، وهي مفروشة بأثاث ثقيل مغطى بالجلد، فلما فتح شراعة إحدى النوافذ ظهر لهم ما في هذا الجلد من التشقق، فما كادوا يجلسون عليه حتى تصاعد عليهم التراب، وأخذت ذرات منه تطوف وسط الشعاع الوحيد الذي بدا من النفاذة، ثم ظهر أمام الموقد صورة على حمالة مذهبة للسيد والد إميلي.

فلما دخلت السيدة إميلي نهضوا واقفين: سيدة قصيرة ممتلئة في ثياب الحداد، تتدلى من عنقها سلسلة سميكة من الذهب، وتتوكأ على عصا من الأبنوس متوجة الرأس من الذهب، وكان هيكل جسمها ضئيلًا حتى إن ما يعد بدانة في غيرها يعد إفراطًا في السمن بالنسبة إليها، وقد بدا جسمها منتفخًا كأنما ألقي زمنًا طويلًا في ماء راكد، وكان لونها شاحبًا، وعيناها الضائعتان في غضون وجهها الممتلئ، كقطعتين صغيرتين من الفحم ركبتا في كتلة من العجين، تنتقل بهما من وجه إلى وجه، وهم يشرحون لها رسالتهم التي أُوفِدوا لتبليغها، لم تدْعُهم إلى الجلوس ولكنها وقفت بالباب وأصغت في هدوء إلى أن انتهى متحدثهم من حديثه، وقد استطاعوا أن يتسمعوا دقات ساعتها وراء سلسلتها الذهبية.

قالت وفي صوتها جفاف وبرودة: ليس عليَّ ضرائب في جيفرسون، بهذا أخبرني الكولونيل سرتوريس، ولعل أحدكم يرجع إلى سجلات المدينة، ويقنعكم بما يجده هنالك.

– ولكننا فعلنا، ونحن السلطة التنفيذية في المدينة يا سيدة إميلي … ألم يصل إليك إعلان بذلك من الحاكم موقع عليه بخاتمه؟

قالت السيدة «إميلي»: أجل لقد تسلمت ورقة ممن يعتبر نفسه الحاكم، ومع ذلك ليس عليَّ ضرائب في جيفرسون!

– ولكن ليس في سجلاتنا ما يدل على ذلك كما ترين، ويجب أن نذهب إلى …

– ليس عليَّ ضرائب في جيفرسون، ويمكنكم أن تسألوا في هذا كولونيل سرتوريس!
– ولكن يا سيدتي إميلي، إن الكولونيل سرتوريس قضى نحبه منذ عشر سنوات.
– ليس عليَّ ضرائب في جيفرسون على كل حال!
ثم ظهر الزنجي فأومأت إليه أن تقدم هؤلاء السادة إلى الباب.

٢

وهكذا تغلبت عليهم بخيلهم ورجلهم كما تغلبت على آبائهم منذ ثلاثين سنة في أمر الرائحة بعد موت أبيها بعامين وبعد أن هجرها حبيبها بأيام قليلة … وكنَّا نعتقد جميعًا أنه سيتزوجها.

لقد كانت بعد موت أبيها لا تغادر منزلها إلا في القليل النادر، وقلَّ أن رآها أحد بعد أن رحل عنها عشيقها، فكان بعض السيدات يجازفن ويعبرن عن رغبتهن في زيارتها، فلم يكن يسمح بالمقابلة، وقد خلا هذا المنزل من كل علامة من علامات الحياة، إلا ذلك الزنجي الذي كان شابًّا صغيرًا في ذلك الوقت، يدخل ويخرج وفي يده سلة السوق.

كانت السيدات في دهشة حينما انتشرت هذه الرائحة الكريهة من بيتها، وكثيرًا ما قلن: إن أي رجل يستطيع أن يقوم بتنظيف المطبخ. وهكذا كانت تلك الرائحة حلقة اتصال بين الدنيا الصاخبة اللاغبة وبين الأعزاء من آل جيرارسون.

وشكَتْ سيدة من الجيران إلى القاضي ستيفنسون حاكم المدينة — شيخ في الثمانين — فقال لها: «وماذا تريدين أن أفعل يا سيدتي؟»

قالت السيدة: تأمرها أن تزيل هذه الرائحة، أليس ثمة قانون؟!

قال القاضي: لا ضرورة لذلك فيما أرى، ولعله ثعبان أو جرذ قتله الزنجي وتركه في الفناء وسأخاطبه في ذلك.

وفي اليوم التالي تلقى شكويين أخريين إحداهما من رجل جاء يسترحم وهو متردد، وقال: «حقًّا إننا يجب أن نعمل شيئًا في هذه الرائحة يا سيدي القاضي.»

فأجابه: إنني آخر إنسان في العالم يقدم على إزعاج السيدة إميلي، إلا أننا نستطيع أن نعمل شيئًا.

واجتمعت في تلك الليلة هيئة — شيوخ المدينة — وهم ثلاثة من ذوي اللحى البيضاء ورجل أقلُّ سنًّا ممن ينتمون إلى الجيل الجديد.

وقال: من السهل علينا أن نرسل إليها أمرًا إداريًّا بأن تنظف منزلها ونعيِّن لها وقتًا لتنفيذ ذلك، وإلا ...

وقال القاضي: «بئس ذلك الرأي يا سيدي، أيجوز أن نخاطب سيدة ونواجهها بتهمة الرائحة الكريهة؟!»

وفي الليلة التالية اقتحم أربعة اقتحم أربعة من الرجال عند منتصف الليل حديقة السيدة إميلي، وانسلُّوا إلى داخل المنزل كاللصوص يتشممون الرائحة في الطرق، والممرات، ومن النوافذ المطلة على مخازن الطعام، وأحدهم يبذر مادة مطهرة من حقيبة معلقة على كتفه، وانطلقوا إلى باب المخزن فرشوا به مقدارًا من الجير وكذلك صنعوا بسائر مباني المنزل من الخارج، وقد ظهر بصيص من النور من نافذة كانت مظلمة، وبدت وراءها السيدة إميلي ماثلة كالدمية بغير حراك وانسلُّوا من الحديقة بهدوء إلى ظلال شجر الخروب المصطف على طول الطريق، وقد اختفت الرائحة بعد أسبوع أو اثنين.

كان هذا والناس يأسون لحاها في الحقيقة، ويذكر أهل بلدتنا كيف جنت خالتها السيدة ديات، وكانت تعتقد أن آل جيرارسون يترفعون كثيرًا لما كانوا عليه من سمو المكانة، وأن أحدًا من الشباب لا يستحق أن ينال يد السيدة إميلي وأمثالها، وكنَّا منذ زمن نراهم في لوحة مصورة تبدو فيها السيدة إميلي رشيقة القد إلى جانب أبيها، وهو شيخ ضامر قد أسند ظهره إليها وحمل في يده سوطًا، وكأنما الباب من خلفهما إطار لتلك الصورة، ولكننا جعلنا نقول في أنفسنا: إنها حتى مع الجنون الوراثي في الأسرة ما كانت لتوصد الباب في وجه كل فرحة لو أتيح لها أن تتمها!

فلما مات أبوها وجدتْ أنه لم يبق لديها غير المنزل، وارتاح الناس لهذا المصير، ولكنهم استطاعوا أن يشعروا نحوها بالشفقة؛ إذ كانت قد تخلفت وحيدة معوزة، فاصطبغت عندهم بالصبغة الإنسانية، وإنها الآن تهتم بسحتوت يزيد وسحتوت ينقص، شأنها في ذلك شأن سائر الناس من المكدودين والفقراء.

وفي اليوم التالي تهيأت جميع السيدات للذهاب إلى المنزل لتقديم عزائهن ومعونتهن جريًا على العرف والعادة، فاستقبلتهن السيدة إميلي على الباب بملابسها اليومية، وليس على وجهها أثر من أمارات الحزن، وقالت لهنَّ إن أباها لم يمت، وظلت على ذلك ثلاثة أيام لم ينقطع في خلالها وفود من القساوسة والأطباء يحاولون إقناعها بوجوب التصرف في الجثة، وإنهم ليهمون باللجوء إلى سلطان القانون واستخدام القوة إذا هي لم تتراجع وتأذن لهم أن يدفنوا أباها على عجل!

ولم نقل آنئذ إنها مجنونة، بل اعتقدنا أنها خليقة أن تصنع ذلك؛ إذ كنَّا نذكر كل أولئك الفتيان الذين طردهم أبوها وعرفنا أنها — وقد صفرت يداها من كل شيء — ستعلق بذلك الخطيب الذي غرر بها كما يفعل سائر الناس.

٣

مرضت برهة، فلما رأيناها بعد ذلك إذا هي قد قصت شعرها وعقصته على زي الفتيات الصغيرات متشبهة بسمات الملائكة المرتسمة على نوافذ الكنائس الملونة، يجللها الحزن والوقار.

وكانت المدينة قد أتمت الاتفاق على رصف الطرق وقد بدئ العمل في الصيف بعد موت أبيها، وجاءت شركة المقاول الذي قام بهذا العمل بالزنوج والبغال والآلات البخارية، وعلى رأسهم رجل يدعى هومر بارون: رجل ضخم الجسم، أسمر البشرة، غليظ الصوت، عيناه سمراوان أخف من سمرة وجهه، وكان صغار الصبيان يتوافدون زرافات ليروه وهو يسوق الزنوج وينهرهم، وهم يغنون مع حركة المعاول صاعدة وهابطة!

وسرعان ما تعرف إلى الناس في المدينة، وحيثما سمعت الضحكات تجلجل متتابعة في الحي، فهي ضحكات هومر بارون بين رفاقه، ثم أصبحنا فإذا بنا نراه والسيدة إميلي يخرجان في نزهات الأصائل أيام الأحد تسير بهما مركبة خفيفة ذات دواليب صفراء تجرها الجياد!

عمَّنا الفرح بادئ الأمر لأن السيدة إميلي قد ظفرت بشيء من التسلية، وقال سائر الناس: «إن سيدة من آل جيرارسون بطبيعة الحال لن تفكر تفكيرًا جديًّا في رجل شمالي يعمل بقوت يومه.» إلا أن أناسًا ممن هم أكبر سنًّا كانوا يقولون: «إن الحزن لا يصح أن يجعل سيدة تنسى الكرامة والعرف وتتجاهلهما!» وينتهي بهم القول إلى أن السيدة إميلي يجب أن يزورها أقرباؤها، فإن لها أقرباء في «ألباما» قد قاطعهم أبوها من جراء ضيعة السيدة ديات — تلك المرأة المجنونة — فلم يعد ثمة اتصال بين العائلتين حتى إنهم لم يحضروا جنازته …

وما يكاد الرجال المتقدمون في السن ينظرون إليها ويقولون: «يا للمسكينة إميلي!» حتى يتهامسوا ويقولوا: «أتظنونها كذلك … وماذا تكون غير ذلك؟!»

ولا يفتأون يقولون: «يا للمسكينة إميلي!» وهم فيما كانوا فيه، وحفيف الديباج المخمل المقصب خلف الستائر المغلقة التي تحجب شمس الأصيل يوم الأحد، والركب يجدُّ، وحوافر الخيل تدوي في الطريق: يا للمسكينة إميلي!

ذلك وهي لا تُرى إلا رافعة الرأس حتى في حين كنَّا نرثي لحالها، كأنما تتقاضى الناس فوق ما تعودت أن تتقاضاه من قبل — كرامة تجدر بسلالة آل جيرارسون. كذلك كانت ترى حين اشترت سم الزرنيخ، وكذلك بعد أن مضى عام وهو يقولون: «يا للمسكينة إميلي!» وفي زيارتها يومئذٍ اثنان من أولاد عمومتها.

قالت للصيدلي: «أريد سمًّا» وكانت إذ ذاك قد جاوزت الثلاثين: هيفاء أنحف من المألوف، لها عينان سوداوان متكبرتان في وجه مشدود البشرة، كأنما تانِكَ العينان قد ركبتا فيه على مثال العيون التي تلمحها في وجوه حراس المنارات.

قالت: أريد سمًّا.

– أجل يا سيدتي إميلي، وأي نوع تريدين؟ ألأجل الفئران وما شاكلها؟ إنني محضره إليك.

– أريد أحسن ما لديك، ولا أسأل عن النوع.

وأخذ الصيدلي يعدد لها أسماء شتى: إن هذه الأصناف تقتل ما تشائين وإن كان فيلًا ... ولكن ما هو النوع الذي تريدين؟

قالت السيدة إميلي: الزرنيخ، أليس هذا نوعًا جيدًا؟

– الزرنيخ؟ أجل يا سيدتي، ولكن ماذا تصنعين به؟

– أريد زرنيخًا!

وأخذ الصيدلي ينظر إليها وهي تنظر إليه وقد نصب إليه وجهها كالعلم، فقال: إذا كان هذا طلبك فإن القانون يفرض علينا أن نسألك ماذا تصنعين به؟

ولم تزد السيدة إميلي على أن نظرت إليه محملقة، وأمالت رأسها كأنها تريد أن تتمكن من مواجهته عينًا لعين، حتى مال بنظره عنها ومضى في إحضار الزرنيخ، ثم أرسله إليها مع الزنجي الذي يوزع الطلبات على أصحاب المنازل.

ولما فتحت الورقة التي لف فيها السمُّ وجدت مكتوبًا على الصندوق تحت علامة الجمجمة والعظام: «سمُّ فيران».

قلنا بعد يوم إنها تريد أن تبخع نفسها، وخيرًا ما تفعل ... إنا كنا نقول حينما رأيناها أول مرة مع هومر بارون: «إنها ستتزوجه» ثم قلنا: «إنها تحاول أن تقنعه» لأن

هومر نفسه قد صرح بأنه لا يهوى النساء، وكان معروفًا عنه أنه ينادم صغار الشبان في «نادي الوعل» ثم عدنا فقلنا: «يا للمسكينة إميلي»! وهي تمر خلف الستائر في المركبة اللامعة عصر يوم الأحد، وكانت السيدة إميلي رافعة الرأس وهومر بارون يضع على رأسه قبعة عالية وفي فمه سيجار، والعنان والسوط في يديه، يغطيهما قفاز أصفر.

أخذ النساء يقلن: هذا عار على المدينة ومثل سيِّئ لشبابها، أما الرجال فلم يشاءوا أن يتعرضوا للأمر، إلا أن النساء قد أرغمن القسيس على أن يستدعيها إليه؛ لأن أسرة السيدة إميلي كانت من أتباع الكنيسة الرسولية، فاستدعاها ولم يشأ أن يفضي بشيء مما دار بينه وبينها، ولكنه رفض مفاتحتها مرة أخرى، فلما جاء يوم الأحد التالي خرجا في المركبة وطافا في شوارع المدينة، فكتبت زوجة القس غداة ذلك اليوم إلى أسرة السيدة إميلي في ألباما.

هكذا رأينا أقرباءها يعدن إلى المنزل مرة ثانية، وتريثنا لنعرف ماذا سيكون، فلم يحدث شيء ما بادئ الأمر، ثم كنَّا على يقين بأنهما سيتزوجان لا محالة، وقد عرفنا أن السيدة إميلي كانت قد ذهبت إلى بائع الجواهر وطلبت منه بعض أدوات الزينة الفضية من لوازم الرجال، وعلى كل قطعة منها حرفا: هـ. ب. ثم اشترت بعد يومين جهازًا كاملًا من ملابس الرجال ومنها قميص للنوم، وقلنا حينئذٍ: «لا بد أنه قد تم زواجهما.» وكنا مسرورين بذلك فعلًا، لأن ابنتي عمها كانتا أحرص منها على رعاية العرف والسمعة، ولم ندهش حينما رحل هومر بارون من المدينة على أثر فراغه من رصف الشوارع، وخاب ما كنا ننتظره من ثوران زوبعة من القيل والقال بالبلدة، إلا أننا اعتقدنا أنه إنما ذهب ليستعد لاستقبال السيدة إميلي أو ليعطيها فرصة تتخلص فيها من ابنتي عمها — وكان هنا تآمر بينهما على السيدة إميلي التي كنَّا نناصرها جميعًا — ثم تأكدنا فيما بعد أنهن غادرن منزلها بعد أن قضين به أسبوعًا آخر.

قفل إلى المدينة هومر بارون كما كنَّا نتوقع بعد ثلاثة أيام، وأبصره أحد الجيران وراء الزنجي يقوده من باب المطبخ في غبش المساء.

ثم كان آخر عهدنا بهومر بارون وكذلك السيدة إميلي فترة من الزمن كان الزنجي يدخل خلالها ويخرج من المنزل والباب مغلق من آن لآخر، ومن آن لآخر كنَّا نراها تقف لحظة في النافذة كما فعلت عندما كان الرجال يلقون الجير … ولقد ظلت ستة أشهر محتجبة لا تظهر في المدينة، وكان هذا هو المنتظر كأنما كانت خصلة أبيها التي عطلت حياتها الأنوثية وراثة أقوى من أن تموت في جوانح سليلته!

فلما وقع نظرنا على السيدة إميلي أول مرة بعد ذلك كانت قد سمنت وشاب شعرها، وازداد الشيب مع السنين حتى صار — كما يقولون — في لون الملح والفلفل، وثبت على ذلك.

وحتى وهي في الرابعة والسبعين من عمرها عندما وافاها الأجل كان شعرها قويًّا حديدي اللون أشبه ما يكون بشعر الرجال الأشداء!

ومنذ تلك الآونة لبث الباب الأمامي مغلقًا إلا خلال أيام ستة أو سبعة لا يرى مفتوحًا، إلا فترة من الزمن حين بلغت الأربعين، وقد كانت في تلك الأيام تعطي دروسًا في نقش الخزف، وتتخذ لها مرسمًا في حجرة من حجرات الدور الأرضي حيث كانت بنات الخاصة من كريمات جيل الحاكم وحفيداته يزرنها بانتظام في المواعيد التي كنَّ يراعينها في زيارة الكنيسة أيام الآحاد ومعهن قطعة من ذوات الربع الريال لطبق الهدايا، وظلت إلى ذلك الحين معفاة من الضريبة.

وتولى الجيل الجديد شئون البلدة، ونمت التلميذات وكبرن، فانقطعن عن الدروس ولم يخلفهن أحد من أطفالهن ليذهب إليها بصناديق الألوان، وريشات التصوير والرسوم المقصوصة من مجلات السيدات، وهكذا أغلق بابها على آخر تلميذة من تلميذاتها، وظلَّ مغلقًا وهي لا تسمح لرجال البريد أن يضعوا على بابها لوحاتهم المعدنية وصناديقهم التي يودعونها ما يحملون من الخطابات.

وكنَّا نرقب الزنجي يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام، وهو يزداد شيبًا وانحناء، ولا يزال يقبل ويدبر بسلة السوق …

وفي كل شهر من شهور ديسمبر كنَّا نرسل إليها إعلانًا نطالبها فيه بالضرائب، فيرد بعد أسبوع بغير جواب، وكنَّا نراها من آن لآخر مطلَّة من إحدى النوافذ بالدور الأرضي، فقد كان الدور العلوي مغلقًا على الدوام، وكأنما هي وثن مكب في محراب، ولا نكاد ندري هل كانت تنظر إلينا أو لا، وهكذا عاشت من جيل إلى جيل عزيزة شكسة مستقرة.

ثم ماتت بعد أن دهمها المرض في منزل يعلوه التراب وتغمره الأشباح، ولم يكن ليشهد وفاتها غير هذا الزنجي، ونحن لا نعلم بمرضها ولا نسأل الزنجي شيئًا من أخبارها لأنه لا يكلم أحدًا، ومن المحتمل أنه كان لا يكلمها … وقد غلظ صوته وصدئ من الإهمال وقلة الاستعمال.

وماتت السيدة إميلي في حجرة من الحجرات الأرضية على سرير من الخشب الثقيل، ومطروح عليها ستار، ورأسها الأبيض ملقى فوق وسادة صفراء وقد تعفنت من القِدَم والظلام.

قابل الزنجي أول وفود السيدات على باب المنزل، وأدخلهن وهن يتهامسن وينظرن نظرات خاطفة ملؤها الفضول، وكان يسير قدمًا داخل المنزل وخارجه، ثم اختفى بعد ذلك. وحضرت ابنتا عمها على الأثر، وأقامتا الجنازة في اليوم التالي، وحضر أهل المدينة لينظروا السيدة إميلي في مرقدها الأخير تحت باقات الأزهار، وقد أطل على النعش وجه أبيها من صورته الماثلة هنالك يتأمله في عمق وأناة، والنساء يُوَلْوِلنَ في ذعر وأسًى، وبدا الرجال الذين قد تقدمت بهم السن، على سدة الباب وفي طرقات الحديقة، بعضهم يلبس الرداء الرسمي وبعضهم بغيره، وهم يتحدثون عن السيدة إميلي كما لو كانت معاصرة لهم، وربما قال بعضهم إنهم راقصوها، وهم يخلطون بين الزمن وسياقه الحسابي كما يفعل الشيوخ عادة؛ إذ يخيل إليهم أن هذا الزمن مرج طويل لا يعفو أبدًا ولا يمسه الشتاء، وإنما يفصل بينه وبينهم مدى السنوات العشر الأخيرات.

ونما إلى علمنا أن بالدور العلوي حجرة لم يرها أحد منذُ أربعين سنة، وأن هذه الحجرة يجب أن تقتحم، وقد تريث القوم حتى دفنت السيدة إميلي وتولوا فتحها.

وكان اقتحام الباب كفيلًا بانتشار التراب في كل جانب، وقد بدا كل ما في هذه الحجرة المؤثثة بجهاز العرائس، وكأنما عليه غطاء كثيف من أغطية النعوش هنا وهناك ستائر مهيأة للزفاف ناصعة اللون، ومناضد مغطاة، وأوانٍ بِلَّورية وأدوات الزينة من لوازم الرجال ... تغيرت جميعًا حتى امَّحَتْ حروف الاسم المرقوم عليها، وعلاها كلها الغبار، وران عليها ظل كظل القبور ... وبينها جميعًا طوق وقلادة كأنما خلعا أخيرًا، متروكين على التراب، ووضعت البدلة على كرسي مطوية معنيًّا بطيها، وتحتها الحذاء والجوارب ... أما الرجل نفسه فراقدٌ على الفراش!

وقفنا هنيهة ننظر إلى ذلك الوجه المكشر عن أسنانه معروقًا على جسم كان كأنما يتهيأ للعناق، ولكن خانة ذلك النوم الطويل الذي يبقى حين يذهب الحب ويطغى حتى على ملامح الهوى، ويخالس فراش الغرام، وقد تعفنت البقية الباقية من ذلك الحطام تحت ما تبقى من قميص النوم، واختلطت بالفراش الذي يرقد فيه، واستقر على الوسادة إلى جواره دثار من ذلك التراب الساكن الصبور.

ثم لمحنا على الوسادة رأسًا منخوبًا، فأقامه أحدنا ورفعه إلى الأمام، وقد غشاه ذلك التراب الهزيل الذي تجمد في خياشيمه، فوجدنا خيطًا طويلًا من الشعر الأبيض الحديدي اللون؛ شعر إميلي ...!

(٢) زعيم الشعب

بقلم: شتاينبك

عصر يوم السبت، وقف بلِلي بك راعي المزرعة يلقي بقية الدريس الذي تخلف من السنة الماضية على سور المزرعة فتتلقفها بعض الماشية المتلهفة، وتنعقد في الأفق الأدنى سحائب من الغبار كأنها طلقات المدفع، تسوقها نحو الشرق رياح شهر مارس.

وكان يسمع حفيف الرياح في أعالي الأشجار، وقلما كانت نسمة منها تصل إلى بطون المزرعة ومنحدراتها، وخرج جودي الصغير من الدار وفي يده قطعة غليظة من الخبز والزبد يقضمها، وقد وقع نظره على بلِلي وهو يلقي بمجرافه بقايا العشب المتراكم، فنزل يخبط بحذائه في طريقٍ طالما حذروه من تلف الحذاء إذا سار عليه.

وبينا يمر بشجرة السرو انطلق منها سرب من الحمام الأبيض، ثم عاد فهبط عليها مرة ثانية، ووثبت من نافذة الكوخ قطة صغيرة في مثل ظهر السلحفاة، وهي تجري على ساقيها الصلبتين وتلتوي، وتنثني ثم تجري، فالتقط جودي حجرًا وهمَّ أن يقذفها به، ولكنها أجفلت قبل أن ينطلق الحجر من يده، فألقاه على شجرة السرو، فانطلقت منها الحمائم البيض ثم حلقت وعادت إلى مكانها كما فعلت أول مرة.

ووقف راعي المزرعة، وهو رجل كهل، فغرس مجرافه في الأرض، ورفع قبعته ثم مسح بيده على شعره وقال: لم يبق من هذا الدريس شيء لم تبلله الأنداء، ثم عاد فوضع قبعته على رأسه ومسح يديه الجامدتين إحداهما بالأخرى.

قال جودي: يبدو أن وراء هذا الدريس كثيرًا من الجرذان.

قال بلِلي: إن لوسي تزحف معها دائمًا حيث سارت.

– ربما دعوت الكلاب وتصيدت هذه الجرذان، بعد أن تزيل كل ما هنالك.

قال بلِلي: يقينًا تستطيع ذلك؟!

وحمل مجرافًا من الدريس المبلل وذرَّاه في الهواء، ولم تلبث أن وثبت معها جرذان ثلاثة، ثم اختفت تحت الدريس بسرعة، وتنفس جودي في ثقة وقال: هذه الجرذان السمينة المكتظة كانت مختفية في مكمنها تحت الدريس ثمانية أشهر، تنمو وتتكاثر وهي في حصن منيع من القطط ومن المصائد ومن السم ومن جودي كذلك! وقد اكتست لحمًا واكتنزت شحمًا، وازدادت عظمًا وهي في مأمنها، والآن أزفت ساعتها، فلا نجاة لها بعد اليوم.

وألقى بلِلي نظرة إلى التلال التي تحيط بالمزرعة وقال: قبل أن تقدُم على شيء يجب أن تستأذن أباك.

– أين هو الآن؟

– لقد ركب بعد تناول الغداء وذهب إلى أطراف المزرعة، وسرعان ما يعود.

قال جودي، وقد وثب إلى الأرض: لا أظنه يأبه لشيء من هذا.

قال بلي منذرًا وهو يعاود عمله: يحسن أن تسأله على أي حال، أنت لا تجهل أطواره.

إن جودي ولا شك يعرف تلك الأطوار، فإن والده كارل تفلن يصرُّ على استئذانه في كل ما يجري في المزرعة، عظُم أو صغُر، قلَّ أو كثر.

ولم يلبث جودي أن هبط على العمود الذي كان يستند إليه حتى تربع على الأرض، ورفع بصره إلى قطع السحاب التي تسوقها الرياح، وقال: أترى في الجو مطرًا يا بلي؟

– قد يكون، إن هذه الرياح تنبئ به وإن لم تكن من القوة بحيث تعجِّل بسقوطه.

– أجل، أرجو ألا تمطر حتى أقضي على هذه الجرذان اللعينة.

وألقى من وراء كتفيه نظرة ليرى وقع حديثه، إلا أن بلي ظلَّ منهمكًا في عمله، ولم يجبه.

ونكص جودي ملتفتًا إلى جانب الرابية حيث ينحدر الطريق، وقد غمرتها أضواء شمس مارس الخافتة، وبدت زاهية من بين أغصان الريحان رءوس العوسج الفضية، وقد أينعت زهرات الترمس الزرقاء وبعض شجيرات الخشخاش، وظهر في عرض الطريق إلى جانب الرابية كلبه الأسود «دبل تري. مت» يحفر برجليه جحر سنجاب فتتناثر الأوحال من بين ساقيه، وكأنه لا يعرف أن الكلب لا يستطيع أبدًا أن يتصيد السنجاب في جحره.

وبينما جودي يترقب الكلب الأسود إذا به يراه قد ثبت في مكانه وانصرف عن الجحر، وقد ألقى نظرة إلى الرابية حيث يمتد الطريق، فرفع جودي بصره كذلك فلمح بعد لحظة خلال السماء الشاحبة «كارل تفلن» ممتطيًا جواده، منحدرًا نحو الطريق الذي يؤدي إلى المنزل، وكان يحمل في يده شيئًا أبيض.

وانتصب جودي واقفًا على قدميه وصاح: هذا خطاب … ودلف مسرعًا نحو البيت، علَّ الخطاب يُتلى أمامه فيسمع ما فيه.

وصل إلى المنزل قبل أن يصل إليه أبوه، ثم دخل وسمع كارل وهو يترجل ويربت جواده ليصرفه إلى حيث يتلقاه بلي ويخلع عنه أدواته ويعيده إلى حظيرته!

جرى جودي إلى المطبخ صائحًا: ورد إلينا خطاب! فرفعت أمه رأسها من قدر الفول وقالت: مع من؟

– مع أبي، رأيته في يده.

ودخل كارل المطبخ، فسألته أم جودي: ممن الخطاب يا كارل؟

قال مُقطِّبًا: من أين علمت بالخطاب؟

فأومأت برأسها نحو الوالد: لقد أخبرني جودي الذي يزج بأنفه في كل شيء.

واضطرب جودي؛ إذ التفت أبوه إليه مشمئزًّا وهو يقول: إنه فضولي ثرثارة، إنه يهتم بأمر كل إنسان إلا أمر نفسه، ويزجُّ بأنفه الكبير في كل شيء!

ولان صوت السيدة تفلن وهي تقول: لا بأس، إنه لا يجد ما يشغله دائمًا ... ومن عند مَن هذا الخطاب؟

قال كارل وهو لا يزال مقطِّبًا ملتفتًا نحو جودي: سوف أطيل شغله إذا لم يقلع عن هذه الأفاعيل.

ثم أبرز خطابًا مغلقًا.

– أظنه من عند أبيكِ.

فأخرجت السيدة تفلن دبوسًا من رأسها وفتحت الغلاف، وقد أبصر جودي عينيها وهما تجولان بين السطور، وأخذت تلخص ما فيه: يقول إنه سيبرح إلينا يوم السبت ليمكث بيننا بضعة أيام. «كيف ذلك ونحن في يوم السبت؟! لا شك أن الخطاب قد تأخر!» وأقبلت تتفحص خاتم البريد فقالت: لقد أُرسِل أول أمس، وكان يجب أن يكون هنا أمس، ثم التفتت نحو زوجها تستفسر متجهمة، وقد اكفهر وجهها غضبًا؛ إذ قالت: ما بالك مقطِّبًا؟ إنه لا يزورنا إلا لِمامًا!

فأشاح كارل محوِّلًا ناظره عن وجهها المغضب؛ فهو يستطيع أن يشتد معها في غالب الأحيان، إلا أنه لا يقدر على مواجهتها حين يتملكها الغضب.

وعادت تصيح به: ماذا أصابك؟!

قال متلعثمًا، وكان في تعليله شيء من الاعتذار قد يجدر بجودي بعض الأحيان: إنه كثير الكلام، كثير الكلام ...

– وماذا في هذا الكلام؟ إنك أنت كذلك كثير الكلام!

– أنا ولا شك أُكثِرُ من الكلام أحيانًا، ولكنَّ أباك يتحدث عن شيء واحد لا يعدوه! وصاح جودي متوفزًا: الهنود الحمر واجتياز السهول!

فانتهره كارل في عنف وصاح به: اخرج أيها الفضوليُّ، اغرب عن وجهي.

فانصرف جودي من الباب الخلفي وأمارات الكآبة ترتسم على محيَّاه، وأغلق وراءه المزلاج حريصًا على الهدوء، ووقعت عيناه الخَجِلَتان على حجر يلفت النظر، فانحنى

والتقطه، وجعل يقلبه وهو يسمع الحديث جليًّا من نافذة المطبخ المفتوحة، فإذا بأبيه يقول: ولكن جودي لم يعدُ الحقيقة، إن أباك لا يعرف إلا حكاية الهنود واقتحام السهول، سمعت منه قصة الخيول العاديات آلاف المرات، يعيد فيها ويبدي ولا يغيِّر حرفًا مما يحكيه.

قالت السيدة تفلن مغيرة لهجتها ترد عليه، حتى لم يتمالك جودي أن رفع بصره عن الحجر الذي كان يتأمله تحت النافذة، وكانت نبرات صوتها نبرات من يوضح ويلتمس المعاذير، وإن جودي ليعرف كيف تغير ملامحها وهي تحاول الإقناع: انظر إلى عادات أبي من حيث تنظر يا كارل. فقد كان ذاك هو الأمر الجلل في حياته، وهو أنه كان يقود القافلة ويجتاز بها السهول نحو الشاطئ، إن حياته لتنتهي بانتهائه من هذا العمل، وإنه لعمل عظيم وإن لم يطل.

قالت وهي توالي حديثها: تأمل كأنه خُلق ليقوم بهذا العمل، وإذا انتهى منه لم يبقَ أمامه إلا التفكير فيه والتحدث عنه، ولو بقي أمامه مكان يتقدم فيه نحو الغرب لتقدم. لقد طالما سمعته يقول ذلك، إلا أنه وجد أمامه البحر المحيط في النهاية، وهو يعيش الآن إلى جانب المحيط — المكان الذي وقف عنده.

قالت هذا، وكأنها أسرت كارل واستحوذت عليه بصوتها الرقيق!

فقال مصدقًا هادئًا: إني رأيته؛ رأيته يهبط فيلقي بنظرة إلى الغرب نحو المحيط، ثم يذهب إلى نادي «حدوة الفرس» في غيضة المحيط الهادئ ويظلُّ يتحدث عن الهنود وكيف كانوا يسوقون الخيل.

ثم أخذ صوته يرتفع قليلًا.

وحاولت أن تلفه وتعتقله بلهجتها مرة أخرى فقالت: إن هذا كل شيء لديه، ولعلك تصطنع معه قليلًا من الصبر، وتتظاهر بالإصغاء إلى حديثه.

ولكن كارل أعرض بوجهه متململًا وقال: على أية حال إن زاد الأمر عن الطاقة ذهبت إلى حجرتي في المزرعة، وجلستُ مع بلي هنالك.

ثم خرج من المنزل وأغلق وراءه الباب.

أما جودي فقد راح يزاول هوايته، ويضع الحبوب لصغار الدجاج ولا يطاردها، ويجمع البيض من الأوكار، ثم انطلق إلى المنزل ووضع في الصندوق حزمة من الخشب بالغ في تشبيكها حتى ملأه بوسق ذراعين، وانتهت أمه من المطبخ، وقلبت النار، ثم مسحت الموقد بريشة من ريش الدجاج، وأحدق جودي بنظره نحوها ليرى هل هناك ما يعوقه، ثم سأل: هل سيحضر اليوم؟

– هذا ما يقوله في خطابه.

– أليس من اللائق أن أذهب لاستقباله في عرض الطريق؟

قالت السيدة تفلن وقد وضعت غطاء القدر: يحسن بك ذلك، فقد يسرُّه أن يجد أحدًا في استقباله.

– إذن سأذهب للقائه.

وانطلق جودي يدعو الكلاب ويصفر لها في سرور وابتهاج: هلمي إلى الربوة؛ فرفع الكلبان ذنبيهما وجريا إلى عرض الطريق، واقتطف جودي أزاهير من الريحان الفضي الذي ازدانت به جوانبه؛ وربطها في يده، فانتشر أريجها في الفضاء، واندفع الكلبان يقفزان وهما يعبران الطريق وراء أرنب بريٍّ، ثم اختفيا عن جودي، وعادا أدراجهما نحو المنزل بعد أن اقتنصا الأرنب! وأخذ جودي يعدو ويجدُّ في السير فوق المرتفعات حتى وصل إلى المنحنى الذي يؤدي إلى الطريق، وكان هواء الأصيل يداعب وجهه ويعبث بشعره ويلعب بطيات قميصه، وهو يلقي نظرة على الآكام والرُّبى، حتى وصل إلى «وادي سالينا» الخصيب وبدت لعينيه مدينة سالينا تلمع نوافذها تحت أشعة الشمس الشاحبة، وظهرت تحته شجرة البلوط وقد غطَّاها سرب من الغربان حتى بدت سوداء بلونها، وأخذت تنعق بصوت واحد.

تتبَّع جودي بناظريه طريق القوافل الذي ينحدر أسفل المرتفع الذي يسير فيه حيث كان يبدو من جانب ويختفي من الجانب الآخر، وقد أبصر على هذا الطريق الممتد عربة تسير في بطء، يجرها جواد أشهب، ثم اختفت عن عينيه وراء الأكمة، جلس جودي على الأرض حيث تعود العربة إلى الظهور، والرياح تتناوح على ظهور الآكام، وقد أخذت قطع السحاب تغِذُّ السير نحو الشرق، وهنا بدت المركبة ظاهرة لعينيه، ووقفت، ثم نزل من مقعدها رجل يرتدي لباسًا أسود، فتمشى قليلًا حتى جاء إلى رأس الجواد، وأدرك جودي على بُعد أنه يخلع عنه العنان، فقد رآه يطأطئ رأسه إلى أسفل ... وسار الجواد قدمًا والرجل يسير إلى جواره بخطًى وئيدة، فصاح جودي مبتهجًا وعدا نحو الطريق متجهًا إليه، وكان بعض السنجاب يقفز هنا وهناك، وقد نشر سنجاب منها ذنبه وجرى على الحافة، ثم انبرى كمن ينزلق على الجليد.

كان جودي يعدو ويحاول في كل خطوة يخطوها أن يقفز إلى نصف ظله، وسقط حجر تحت قدمه فزلت به إلى أسفل.

فلما وصل إلى حَنِيَّة صغيرة جرى حتى صارت بينه وبين جده وعربته مسافة قصيرة، وخفف الولد من جريه وتريث ثم سار متئدًا.

كان الجواد يتعثر في مشيته فوق تلك الآكام، وكان الشيخ يسير إلى جواره، وارتمت خلف شبحهما الكبير ظلال سود، كان على الجدِّ حُلَّة من القماش الأسود الخشن، وفي رجليه طماق من جلد العنز، وحول عنقه طوق منشًّى حوله قلادة سوداء، وقد حمل قبعته في يده، وبدت لحيته مطمومة وحاجباه المبيضان يتدليان فوق عينيه كأنهما شاربان، أما عيناه الزرقاوان فعليهما مسحة المرح الوقور، وتحفُّ بمرآه جميعًا سيمة صخرية يُخيل إليك أن تحريكها مستحيل، فإذا سكن جسمه تحوَّل إلى صخرٍ لن يتحرك ثانية، وإذا خطا فخطواته وئيدة ثابتة كل خطوة منها لا تخالف الأخرى في اتجاهها ولا تزيد ولا تنقص في اتساعها.

وما كاد جودي يظهر من جانب المنحنى حتى رفع جَدُّه قبعته مُرَحِّبًا قائلًا: هذا أنت يا جودي، أقادم أنت لاستقبالي؟! فاقترب جودي ثم عاد فأسرع وتقدم نحو الرجل الشيخ ومثل إلى جانبه يجر قدميه، وأجابه: أجل يا سيدي، إننا لم نتسلم خطابك إلا اليوم.

قال جده: كان ينبغي أن يصل بالأمس! كيف حالكم جميعًا؟

– إنهم على أحسن حال يا سيدي.

وتردد قليلًا ثم قال في خجلٍ: هل لك في صيد الجرذان غدًا؟

فأجابه الجَدُّ متهانفًا: صيد الجرذان؟! هل انحدر أبناء هذا الجيل إلى هذا الحضيض؟! إنني أعلم أنهم ضعاف، ولكني لم أكن أحسب أن سيبلغ من ضعفهم أن يتخذوا الجرذان صيدًا!

كلا يا سيدي، إنها لعبة فحسب، لقد ذهب الدرس وأنا أسوق الجرذان إلى الكلاب وأنت تراقب أو تضرب العشب قليلًا.

قال الجَدُّ، وأدار إليه عينيه الثابتتين المرحتين: إني أراك لا تأكلها؟ لم يصل الأمر بك إلى هذا الحد!

وقال جودي وهو يحاول أن يشرح له ما يرمي إليه: إن الكلاب تأكلها يا سيدي، ولا شك أنه ضرب من الصيد غير صيد الهنود.

كلا ليس الأمر كذلك، ولكن بعد أن خرج الجنود يتعقبونهم ويتصيدون أبناءهم ويحرقون أجرانهم، لم يكن ثمة فرق كبير بين هذين الضربين من الصيد!

وتسلقا المرتفعات فأخذ يهبطان إلى الوهاد وضوء الشمس يتقلص من فوق أكتافهما، ويقول الجَدُّ: لقد طلتَ يا جودي وأحسبك قد نموت نحو قيراط!

فأجابه جودي مزدهيًا: بل أكثر من ذلك، إنهم حينما قاسوا قامتي على الباب وجدوا أني زدت أكثر من ذلك، أحمد الله على كل حال.

قال الجَدُّ بصوته الأجش: قد يكون هذا ... لعل عودك قد أصاب ماء غزيرًا فنما وترعرع، ولكن انتظر حتى تستوفي نموك ثم ننظر ماذا تكون؟

وألقى جودي نظرة عاجلة على وجه الرجل الشيخ يخشى أن يكون قد أساءه على غير قصد، ولكن عيني الرجل النافذتين الزرقاوين لم تُنْذِرا بشيء من العقاب أو تشيرا إليه بالزجر، واقترح جودي صيد خنزير.

– كلا، لست أدعك تفعله، إنما هو كلام تجره معي يا جودي، فما الساعة بموعد صيد.

– أتتذكر الخنزير الذي كنا نسميه رايللي يا سيدي؟

– أجل إنني أذكر رايللي جيِّدًا.

– لقد قرض جحرًا من العشب فانهار عليه واختنق!

فأجاب الجَدُّ: إن الخنازير تفعل ذلك كلما أمكنها.

– كان رايللي خنزيرًا لطيفًا، وكنت أمتطي ظهره وهو لا يبالي.

وفُتِح باب من أبواب المنزل، وبدت لهما أم جودي على عرض الطريق تلوح بمئزرها مرحبة به، وبدا تفلن قادمًا من الجرن لاستقباله.

كانت الشمس قد اختفت من فوق الروابي، وطبقات الدخان الأزرق الذي ينبعث من المدخنة معلقة في الأفق الأرجواني، وقد وقفت السحب التي تسوقها الرياح فوق السماء بغير حراك.

خرج بللي بك من الحجرة وألقى على الأرض إناء من الماء والصابون، وكان من عادته أن ينظف لحيته في منتصف الأسبوع.

إن بللي يهاب الجَدَّ ويوقره، وكذلك الجَدُّ يقدره، ويقول: إن بللي من الأفراد القلائل الذين لم تفسدهم طراوة الترف في هذا الجيل، ويدعوه بالولد، وإن كان قد بلغ منتصف العمر.

وأسرع نحو المنزل، فلما وصل جودي مع جَدِّه كان الثلاثة في استقبالهم على باب الفناء، قال كارل: مرحبًا بالسيد، لقد كنَّا في انتظارك.

وقبلته السيدة تفلن على جانب لحيته، وجلست إليه في أدب، فربَّت براحته الكبيرة على كتفها، وصافحه بللي بهدوء وهو يبتسم ابتسامة عريضة من تحت شارب كأنه منسوج من التبن، ثم قال: سأذهب لأريح الجواد، وأرفع عنه الركاب.

وكان الجَدُّ يرقب حركاته وهو يروح ويغدو ويردد تلك الكلمة التي طالما رددها مئات المرات: هذا ولد طيب، إنني أعرف أباه «ذيل البغل» كما كانوا يسمونه، لا أعرف لماذا كانوا يسمونه «ذيل البغل» ألأنه كان يربط البغال؟

والتفتت إليه السيدة تفلن وقادتهم إلى داخل المنزل، وقالت: كم تقضي معنا يا والدي؟ لم تقل في خطابك.

فأجاب: لا أدري على التحقيق، قد أمكث أسبوعين، ولكنِّي على أي حال لا أخالني سأقضيهما.

جلسوا بعد هنيهة إلى المائدة يتناولون عشاءهم، ومن فوقهم مصباح تنعكس أشعته عليهم من صفحة القصدير يرفرف حولها الفراش والبعوض.

وأخذ الجَدُّ يقطع شطائر اللحم أجزاء صغيرة ويمضغها ببطء، ويقول: لقد جعتُ حقًّا، إن ركوبي إلى هنا هيَّج فيَّ ضراوة الجوع! وكذلك كنَّا ونحن نعبر البراري، كان يدركنا الجوع عاجلًا، فلا ننتظر حتى ينضج اللحم لنأكله، وكنت ألتهم قرابة خمسة أرطال من لحم الجاموس كل ليلة.

قال بلي: هكذا تفعل الحركة، لقد كان أبي عاملًا في الحكومة، وكنت أساعده وأنا صغير، وكنَّا نأكل معًا فخذًا من لحم الغزال.

قال الجَدُّ: إنني أعرف والدك، إنه رجلٌ لطيف، وأعجب كيف قَبِلَ أن يشتغل بربط البغال!

قال بلي: نعم كان يربط البغال.

ووضع الجَدُّ السكين والشوكة أمامه، ونظر حول المائدة وقال: أذكر أننا ذات مرة استنفدنا ما عندنا من اللحم.

وانخفض صوته وانبعث في جرس كأنه أخدود تشقه عباراته لنفسها دون قصد منه ... قال: لم يصادفنا جاموس ولا وعل ولا أرنب، لم يصادفنا حتى ولا ذئب، وهنا يعمل الزعيم عمله، وما كان الزعيم يومئذٍ أحدًا غيري! وظلت عيناي ترقبان، أتعرفون لماذا؟ في هذه اللحظة كانت القافلة تتضور جوعًا، وأوشك رجالها أن يذبحوا الثيران التي نعتمد عليها! أتصدقون هذا؟! لقد سمعت أن قافلة أكلت لحم ماشيتها نيئًا! بدءوا بالوسط، ثم انصرفوا إلى آخرها فأكلوه، ثم قضوا على الأزواج الأولى فالأخيرة، وعلى زعيم القافلة أن يحول بينهم وبين ذاك.

ودخلت فراشة كبيرة إلى الحجرة فجعلتْ تحوم حول المصباح، وإذا بلي ينهض ويحاول أن يصطادها بكفيه، وبادر كارل فضربها وأمسك بها. واستطرد الجَدُّ في حديثه

ولكن كارل قاطعه قائلًا: خذ قليلًا من اللحم فإنك لم تستوف عشاءك بعد هذا الجوع، إننا نوشك أن نأكل الحلوى.

وأدرك جودي أن سحابة من الغضب تعلو وجه أمه، وقال الجَدُّ وقد أخذ في يده الشوكة والسكين: إنني جَدٌّ جوعان وسأتم لكم قصتي فيما بعد.

وإذ انتهوا من العشاء جلسوا إلى الموقد. فأخذ جودي يتفرس في وجه جَدِّه، ويتطلع إلى الملامح التي عهدها، وإلى رأسه الملتحي، وإلى عينيه وقد فارقتهما صرامته، وتوجه بهما إلى نار الموقد واضعًا أصابعه النحيلة فوق ركبته وهو يقول: لا أدري هل أخبرتكم بأن هؤلاء اللصوص قد ساقوا أمامهم خمسة وثلاثين جوادًا من خيولنا؟

قاطعه كارل قائلًا: أظنك رويت لنا ذلك، أليس هذا قبل أن تذهب إلى تاهواي؟

قال الجَدُّ وقد التفت التفاتة عاجلة إلى صهره: هذا صحيح، أظن أنني أخبرتكم بذلك.

قال كارل بقسوة: عدة مرات!

وتحاشى أن ينظر إلى عيني زوجته، وإن كان قد أحسَّ وقعهما، فقال: إلا أنني طبعًا أحب أن أسمعها مرة أخرى.

وعاد الجَدُّ ينظر إلى نار الموقد وقد فكَّ أصابعه المتشابكة، أما جودي فقد عاوده في تلك اللحظة شعور بالمهانة والانكسار، ألم يصفوه بالفضولي أصيل ذلك اليوم؟ لقد تسامى به الفضول إذن إلى أوج البطولة؛ فأنشأ يقترح على جَدِّه الحديث ويقول له: حدثنا عن الهنود.

وتسري الصرامة مرة أخرى إلى عيني جَدِّه فيقول: إن الأولاد يحبون دائمًا أن يسمعوا ما يقال عن الهنود، إنه عمل رجال، إلا أن الأولاد يشوقهم خبره، هل أخبرتك كيف أشرت بأن تحمل كل مركبة صفحة طويلة من الحديد؟

وكان الجميع في سكون شامل عدا جودي، فأجاب: كلا إنك لم تخبرنا.

قال الجَدُّ: حينما كان الهنود يهاجموننا كنَّا نقيم المركبات حولنا كالدائرة ونطلق عليهم النار من بين العجلات، وخطر لي أنه إذا وضعت في كل عربة لوحة من الحديد مخرقة تنفذ البنادق من خروقها، أمكننا أن نحمي بها المركبات فنصون حياة رجالنا، غير أنه ما من أحد في القافلة كان يعمل بهذه الوصية؛ إذ لم تسبقنا قافلة إليها قبل ذلك، فما بالهم يتكلفون مثل هذه النفقة التي لم تتكلفها القوافل الأخرى؟! على أنهم قد عاشوا حتى ندموا على إهمالهم لتلك الوصية.

وألقى جودي نظرة إلى أمه، فرأى ما ينم عنه وجهها، إنها لم تكن مصغية إلى شيء، وأبصر كارل يتفحص إبهامه، وبلي بك يرقب عنكبوتًا يزحف على الحائط!

كان صوت الجَدِّ قد تهيأ للإيقاع والإلقاء، وإن جودي ليعرف جيِّدًا مواقع كلامه: إنه ينقض كلما استعرض مواقف الهجوم، ويُشْجِي كلما ذكر الجراح، ويكاد ينتحب عند ذكر الموتى ودفنهم في البراري والسهول.

كل ذلك وجودي هادئ يرقب حركات جَدِّه، وعيناه الزرقاوان منصرفتان عنه، غير مكترث بالقصة، فلما فرغ من حديثه قوبل صمته بالخشوع والتوقير كأنه تخوم القصة التي تحق لها الرعاية والاحترام.

وقام بلي بك فتمطى وأصلح من لباسه، وقال: «لعلي أعود» ثم توجه نحو الجَدِّ وقال: «إن عندي بندقية ومسدسًا لعلك رأيتهما!»

وهزَّ الجَدُّ رأسه وقال: أظن ذلك يا بلي، لقد ذكَّرْتَني ببندقية كانت لديَّ حين كنتُ أقود القافلة، وجلس بلي ساكنًا حتى انتهت القصة، فحيَّاهم وانصرف من المنزل، وحاول كارل أن يغيِّر مجرى الحديث فقال: كيف حال الطريق من هنا إلى مونترو؟ سمعت أنه طريق يابس.

وأجاب الجَدُّ: إن الطريق ليابس حقًّا وليس في إقليم اللاجونسكا قطرة واحدة من الماء، ولكن العهد بعيد من عام ٨٧، حيث كانت الأرض جميعها شعلة من البارود، وفي عام ٦١ ماتت الذئاب عن آخرها من شدة الجوع وارتفعت درجة الأمطار حتى بلغت ١٥ قيراطًا في هذه السنة، أجل حدث كل هذا آنفًا وفي وسعنا الآن أن نكتفي بالتعليل.

واستقرت عينا كارل على جودي فأشار إليه قائلًا: ألا تذهب إلى فراشك؟

ووقف جودي ممتثلًا، وقال: هل لي أن أبيد الجرذان التي في الدريس يا سيدي؟

– الجرذان؟ أجل، اقتلها جميعًا ولا تبقِ ولا تذر؛ إن بلي يقول إن الدريس قد أزيل ولم يبقَ منه شيء.

وتبادل جودي وجَدُّه نظرات خفية راضية، وقال متوعدًا: غدًا سأقضي عليها.

رقد جودي في فراشه يسبح بخياله في ذلك العالم العجيب، عالم الهنود والعجول، ذلك العالم الذي ذهب واندثر إلى غير رجعة، ما كان أشوقه أن يعيش في ذلك العصر الحافل بالبطولة والأبطال! كان يعلم أنه لم يخلق من معدن البطولة، وليس أحد من معدنها يعيش الآن خلا بلي بك، فإنه يستطيع أن يضطلع اليوم بما كانوا يفعلون بالأمس.

جِيل من الجبابرة، كان يعيش في تلك الآونة، كانوا رجالًا بواسل أولي شجاعة لا تُعرف اليوم، ثم أخذت تطوف بذهن جودي صور السهول الشاسعة والمركبات التي تزحف كالديدان، وتصور جَدَّه وهو يمتطي صهوة جواد أبيض يتقدم القوم، فتمثلت في ذهنه تلك الأشباح الكبيرة التي سارت على الأرض أمدًا ثم اختفت أبدًا.

وعاد أدراجه إلى المزرعة لحظة فوقر في سمعه ذلك الصوت الثقيل الذي ينبعث من الفضاء الصامت، وسمع أحد الكلاب في حظيرته يحكُّ برغوثًا ويضرب بذراعه في الأرض، وعادت الرياح تهب وشجر السرو الأسود يتمايل ويتناوح مع تلك الرياح، ثم استغرق جودي في النوم.

واستيقظ قبل أن يدق جرس الإفطار بنصف ساعة، ودخل إلى المطبخ فرأى أمه تقلب الموقد فينبعث زفير النيران.

قالت: لقد استيقظتَ مبكرًا، أين تذهب؟

– سأخرج لاستحضار عصًا، وسوف نبيد نحن الجرذان اليوم!

– ما ذا تعني بـ «نحن»؟

– أنا وجَدِّي.

– إذن أنت قد طويته معك! وهكذا دأبك لا تزال تشرك معك أحدًا تتقي به اللوام!

قال جودي: سأعود عاجلًا، إنما جئت لأستحضر عصًا، وأعدَّ عدتي بعد أن نتناول طعام الإفطار، وأغلق خلفه الباب، وخرج فلاقاه جوٌّ صباحٍ صاف برود.

كانت العصافير تغرِّد والقطط تنحدر من الأكمة وهي تتلوى كالحيات، وكانت هذه القطط الأربع تصطاد الجرذان في الظلام ممتلئة بلحومها، ولكنَّها مع ذاك تموء في ضراعة شوقًا إلى جرايتها المعهودة من اللبن!

وجرى الكلبان دبلتري مت وسماشر على حافة السور يؤديان واجب التحية بجدٍّ ووقار إلا أنهما لم يكادا يستمعان إلى صفير جودي حتى شالا برأسيهما وبصبصا بذنبيهما واندفعا إليه يتثاءبان، فربَّت جودي رأسيهما، ثم التفت إلى حزمة من العصيِّ واختار يد مكنسة قديمة وعودًا من الخشب، وأخرج رباط حذاء من جيبه وربط العصي بعضها إلى بعض؛ ليصنع منها مدقة وأدار سلاحه في الهواء ثم ضرب الأرض ليجرب متانة هذا السلاح والكلاب تثب وتعدو متوحشة إلى جواره.

ثم استدار جودي وسار إلى مكان الدريس ليلقي نظرة إلى ميدان المذبحة، إلا أنه سمع بللي يناديه وهو يجلس في هدوء على درج السلم الخلفي: خير لك أن ترجع، لم يبق إلا دقائق على موعد الإفطار.

فارتد جودي من وجهته ومشى ناحية المنزل، وأسند مدقه على درج السلم، وهو يقول: «سوف أُخرِج بها الجرذان، لا شك أنها قد سمنت وانتفخت، وكأني بها لا تدري ماذا سيحل بها اليوم!»

قال بلي متفلسفًا: «كلا، ولا أنت تدري ماذا يحلُّ بك!»

فاضطرب جودي لهذا الخاطر لعلمه بصدقه، وغابت عن خياله كل فكرة عن الجرذان وصيدها، ثم خرجت أمه من الباب الخلفي وطرقت الناقور، فانهارت كل أفكاره كومة واحدة!

فلما جلسوا على المائدة لم يظهر الجَدُّ معهم، وأشار بلي إلى كرسيه الخالي متسائلًا: «لعله بخير، ما أحسبه مريضًا.»

قالت السيدة تفلن: «إنه يتوانى طويلًا في ارتداء ملابسه وفتل شاربيه ومسح حذائه.»

وأخذ كارل يرشُّ السكر على العصيدة التي في إنائه، وهو يقول: إن الرجل الذي يقود القافلة يجب أن يُعنى بارتداء ملابسه.

والتفتت إليه السيدة تفلن وقالت: هه دع هذا أرجوك يا كارل، والتهديد في لهجتها أقرب من الرجاء، مما أثار كارل وأغضبه.

حسنًا كم مرة يا ترى سوف أجبر على سماع قصة الأطباق الحديدية وقصة الخيل الخمسة والثلاثين ... ذلك زمان قد غبر، ما باله لا ينساه! إنه غبر واندثر.

وجعل كلما يتكلم يشتد به الغضب ويرتفع صوته، واستطرد قائلًا: ما باله يعيدها كرة بعد أخرى؟! لقد عبر السهول ... نعم عبر السهول، حسن، هذا كله قد مضى وانقضى، وما من أحد يعنيه أن يستعيد هذه القصة مرارًا وتكرارًا.

وكان باب المطبخ مقفلًا، وجلس الأربعة على المائدة جامدين، ووضع كارل ملعقته على المائدة معتمدًا ذقنه بأصابعه.

وفي تلك اللحظة فُتح باب المطبخ ودخل منه الجَدُّ مبتسمًا وعيناه تغمزان، قال: «عِموا صباحًا!»، ثم جلس ينظر إلى صحفة العصيدة التي أمامه ...

ولم يطق كارل أن يسكت دون أن يسأل: هل سمعت ما كنتُ أقول؟

فأنغض الجَدُّ رأسه قليلًا ...

– إنني لا أعرف ماذا جرى لي! وإنني لا أعني شيئًا، إنما كان محض مزاح.

نظر جودي إلى أمه خجلًا، ورآها تنظر إلى كارل وهي تكظم أنفاسها، لقد كان الجَدُّ يعاني أشدَّ العناء، ويغالب نفسه مغالبة شديدة وهو يتكلم على هذا النحو إذ كان يحز في نفسه أن يرجع في كلمة واحدة ... فأما أن يرجع فيها خجلًا فذلك مما لا يطاق!

ونظر الجَدُّ إلى جانبه وقال في دعة: وددت لو أنني أكفُّ عن هذا، وما أنا بذي جنَّة، ولستُ أبالي ما قلتَ، فلعله حقٌّ، ولعلي خليق أن أباليه.

قال كارل: لا شيء من هذا، لا شيء مما تظن، لقد قمتُ من نومي متوعكًا، وآسفُ لأنني قلت ما قلت.

– لا تأسف يا كارل، إن الشيخ الهَرِم قد يفعل ذلك أحيانًا، ولعلك على حق، إن أيام تلك الرحلات قد غبرت، وكان خليقًا أن تُنسى …

قام كارل وغادر المائدة ثم قال: لقد شبعت وسأذهب إلى عملي، ثم التفت إلى بللي قائلًا: كلْ كفايتك … وخرج مهرولًا، فالتهم بللي بقية الطعام وتبعه على عجل، ولكن جودي لم يغادر مقعده.

قال جودي: ما عدت تقول لي شيئًا من القصص.

– وكيف لا؟! إنني سأقول! ولكن حين أجد أذنًا صاغية.

– إنني أحب أن أسمعها.

– لا شك أنك تحب ولكنك صغير، وهذه القصص عمل رجال، وإن كان الأطفال يحبون الإصغاء إليها.

وقام جودي من مقعده، وهو يقول: سأنتظرك في الخارج يا سيدي، لقد أعددت عصًا جيدة للجرذان.

– اذهب فاقتلها أنت، إنني أفضِّل أن أجلس في الشمس.

– تستطيع أن تستعمل عصاي إذا شئت.

– كلا، سوف أجلس هنا لحظة.

والتفت جودي محزونًا، ثم اتجه إلى مكان الدريس فأخذ يشحذ همته بالتفكير في الجرذان السمان، ودقَّ الأرض بمدقته وانبرت الكلاب تلهث وتلتف حوله، ولكنه لم يستطع الذهاب، ولما عاد إلى المنزل وجد جَدَّه جالسًا على سُدَّة الباب متضائلًا شاحب الوجه؛ فانصرف جودي عما هو بصدده، وجلس على الدَّرج تحت أقدامه.

– لقد عدت أدراجك، هل قتلت الجرذان؟

– لا يا سيدي، سأقتلها في يوم آخر.

وكان الذباب الذي يدب في الصباح يغمر الأرض والنمل يسير على الدَّرج، ورائحة الريحان تنبعث من الرابية، وخشب البوابة دافئًا تحت أشعة النهار.

ولم يكن يعرف جودي متى استأنف جَدُّه الكلام، ولكنَّه سمعه وهو يقول: أما والحال حالنا، فليس لي أن أمكث هنا.

وجعل يتفحص يديه القويتين، ثم قال: أحسب تلك الرحلات لم تكن تستحق أن ترحل. وتحركت عيناه إلى جانب التل فاستقرتا على صقر جاثم على شلو ميت، وعاد

يقول: إنما أقص هذه الحكايات، وما هي بالذي أعنيه وإنما أعني أن أرى ماذا يجول في خواطر الناس حين يسمعونها.

لم يكن المهم شأن الهنود ... كلا، ولا تلك المغامرات ... كلا، ولا مَخرجي منها إلى حيث ترونني في هذا المكان، إنما كان الخطب خطب كتلة من أبناء آدم تجمعت في شبه حيوان ضخم يزحف هنالك، وكنت أنا رأس ذلك الحيوان ... كان همُّنا جميعًا أن نضرب ونضرب، وكان كل منهم يتمنى شيئًا لنفسه، ولكن الكتلة الهائلة، ذلك الحيوان الضخم، لم يكن من همه إلا أن يضرب ويضرب ... وكنت أنا الزعيم، ولكني لو لم أكن زعيمها، لكانه إنسان آخر، فلم يكن في تلك الكتلة الهائلة غنًى عن رأس.

«كانت الظلال تحت الخمائل مسودة حالكة في وضح النهار، فلما رأينا الجبال في النهاية مرحنا جميعًا، ليس الوصول إلى هنا هو المهم، إنما المهم هو التجوال والتغريب.»

«لقد حملنا حياتنا كأننا النمل التي تحمل بويضاتها وكنتُ أنا الزعيم، كان التغريب فكرة كبيرة كأنها إله، وتجمعت خطواتنا، وكانت تلك الخُطا التي خطوناها تتجمع وتتجمع حتى تمهد مسالك القارة.»

«وهنا وصلنا إلى البحر وانتهى كل شيء.»

ثم وقف ومسح عينيه حتى احمرت جفونهما: «هذا ما يجب أن أقوله بدلًا من القصص.»

ولما قال جودي: «أتراني مستطيعًا أن أقود الناس كما قدتَهم يا جدِّي؟»

ابتسم الرجل وقال: «لم يبقَ ثمة مكان تذهب إليه، إن المحيط أمامك، وعليك أن تقف عنده، وإن هنالك صفًّا من الرجال الشيوخ الذين في مثل سني يقفون على طول الشاطئ وهم يكرهون المحيط؛ لأنه صدَّهم عن العبور ...»

– «ألا أعبره في الزوارق والسفن؟»

– «لم يبقَ أمامك مذهب يا جودي، لقد أُخِذ كل مكان، كلا، ليس هذا أسوأ ما فيه، إن فكرة التغريب قد ماتت في نفوس الناس، لم تعد هناك شهوة إلى التغريب بعد أن انتهى كل شيء، إن أباك على حق» وشبك أصابعه على ركبته وأخذ يتفرس في وجوههم!

واغتمَّ جودي غمًّا شديدًا وهو يقول: إن أردت يا سيدي كوبًا من شراب الليمون ففي وسعي أن أهيئه لك، وكاد جَدُّه يرفض ولكنه آثر أن يوافقه، وقال: والله إنه ليحلو أن نتناول كوبًا من الليمون الآن ... نعم إنه ليحلو.

وأسرع جودي إلى المطبخ حيث كانت أمه تمسح الصحفة الأخيرة من صحاف الإفطار، وسألها: هل لديك ليمونة لأصنع كوب شراب لجدِّي؟ وابتسمت أمه محاكية، وقالت: ليمونة أخرى، لتصنع كوبًا لأجلك أنت!

– كلا أنا لا أريد يا أماه.

– أنت مريض يا جودي.

ووقفت فجأة، وقالت بصوت وديع: خذ ليمونًا من الثلاجة، وسأحضر لك العصارة ههنا.

ملاحظة

تمت هذه المجموعة الأولى من «ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي»، وقد توخينا في اختيارها أن تشتمل على مثال من كتابة كل أديب معروف من كتَّاب هذه القصة، فلم تخلُ من آثار أحدهم إلا لضرورة تقضي بها حقوق التأليف والترجمة، وفيما عدا ذلك نرجو أن تكون المجموعة وافية بالدلالة على القصة القصيرة في الأدب الأمريكي من عصر الاستقلال إلى العصر الحاضر.